

أبو دليل

مجزرة المقابر

رواية مستوحاه من حكايا الناس



نبيل مرعي

أَبُو يَلْلَوْ

الطبعة الأولى

٢٠٢١ هـ - ١٤٤٢ م

كافة الحقوق محفوظة

المؤلف : نبيل مرعي

تصميم الغلاف والتنسيق : المؤلف

رقم الإيداع :

الت رقم الدولي :

الناشر : دار الأمة العربية للنشر والتوزيع

٢٠٢١ هـ - ١٤٤٢ م

الطبعة الأولى

تنبيه

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف ولا يسمح
بإعادة نشر أو إصدار هذا الكتاب ، أو أي
جزء منه أو تقليله أو تخزينه في نطاق إعادة
المعلومات ، أو نقله بأي شكل من الأشكال
دون إذن مسبق موقع من المؤلف

الناشر

مؤسسة الأمة للنشر والتوزيع

هاتف : ٣٥٧١٢٢٣ - ٠٤٨ - ٠٠٢

المبيعات : تحويل داخلى ١٣

الفاكس : تحويل داخلى ١٤

إدارة النشر : ٠٠٢٠١١٤٢٠٢٢١٧٤

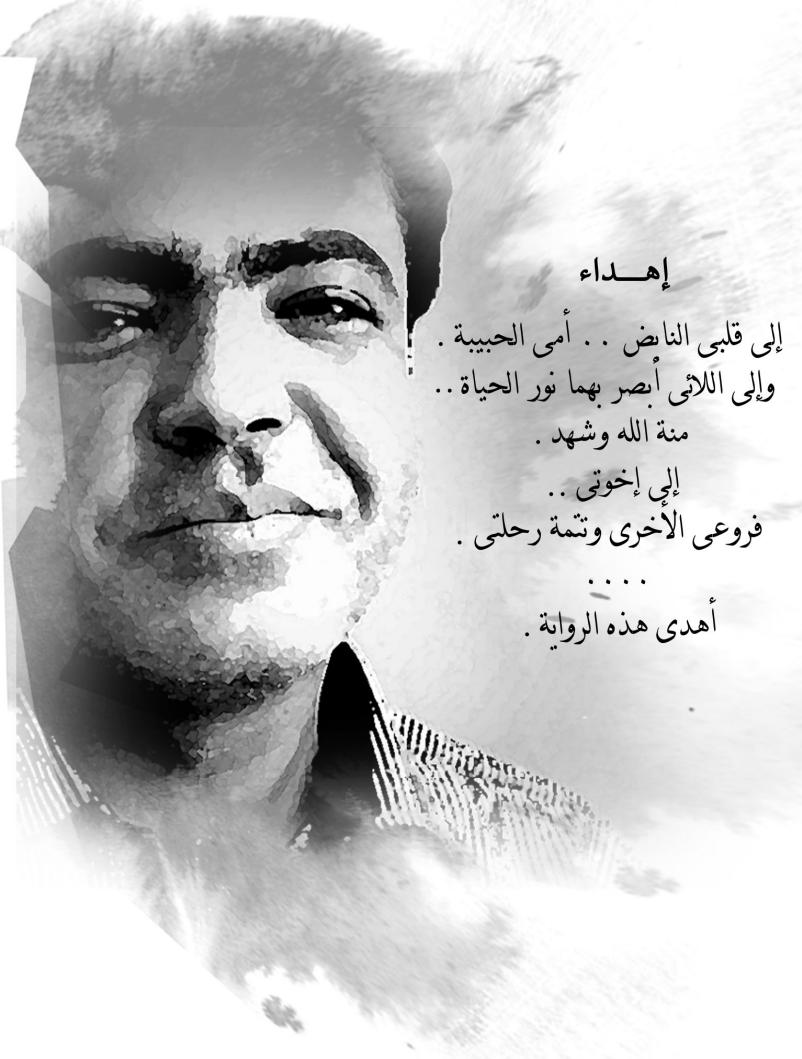
**مُوَسِّعَةُ سَيِّدَةِ الْأَمَّةِ الْعَرَبِيَّةِ
لِلنَّسْرِ وَالتَّوزِيعِ**

أَبُوكِيلْلُو

مجزرة المقابر

رواية مستوحاه من حكايا الناس

تأليف
نبيل مرعى



إهداه

إلى قلبي الناض .. أُمِي الحبيبة ..
وإلى اللائي أبصر بهما نور الحياة ..
منة الله وشهد .

إلي إخوتي ..
فروعى الأخرى وتنمة رحلتى .

....
أهدي هذه الرواية .

أبو بيلو

الحكايات عنها تصارع الأساطير ..
قيل أنها قدماً كانت مدينة فرعونية عظيمة
عقد لها كهنتها رصداً مهيباً منذ أزمان سحرية ..
فحسف بها ..
ومنذ ذلك الحين ما شفوك أن تنغرس قرية على أطلالها
حتى تصيّبها ذلك الرصد المخيف ..
فتبتاعها الأرض في جوفها وكأنها لم تكون ..
ولكما حاول أحد هم التحرى داخلاًها عن كثوز الفراعين إختلاساً
يذهب في غياها دونما عودة ..
وكتيراً منها الإرهاصات والأضطرابات تلك
تندفع على السيدة النافذة وفي عمق أدمعتهم ..
بيد أن تلك الأرض المزصودة ..
ستظل شاهدة عيان على ما حدث في تلك الفترة ..
يتحاكون به الأهالي ممراً ولسنوات طوال بعدها ..
سيوريون أولادهم وأحفادهم ..
وسَتَظلُّ الْحَكَايَةُ الْأَكْثَرْ ذِيْعَا وشِيُوعَا عَلَى السِّنَّهُمْ ..

نبذة عن منطقة أبو بيللو

تدعى "بوبيللو" أو "كوم أبو للو" .. وهى كوم أثرى يطلق عليه الأهالى .. مجازا .. "تراب الأقباط" .. وهى تقع في زمام قرية "الطرانة" .. والتى عرفت في النصوص اليونانية بإسم "Tarenthis ثرميوثيس" .. وهو الإسم الذى حور في العربية إلى "الطرانة" .. وتقع هذه القرية بمحافظة المنوفية ، مركز السادات ، إلى شمال بلدة "الخطاطبة" ، وإلى الشمال الغربى من مدينة منوف .

ولقد إختلف المؤرخون في تحديد جذورها الأولى ، قيل أنها تقع في موقع معمور منذ عصور ما قبل التاريخ ، كما يقال أن الجذور الأولى للمنطقة ترجع للعصر الفرعونى وخصوصا للأسرة ٢٦ .. ولقد كانت في العصور الفرعونية مقراً لعبادة الإله "إيزيس" ، وفي العصور اليونانية _ الرومانية أصبحت حامية عسكرية ومقرًا لعبادة الإله "أبوللو" ومنها جاءت التسمية "بوبيللو" والإسم الدارج لدى المحليين "أبوبيللو" .

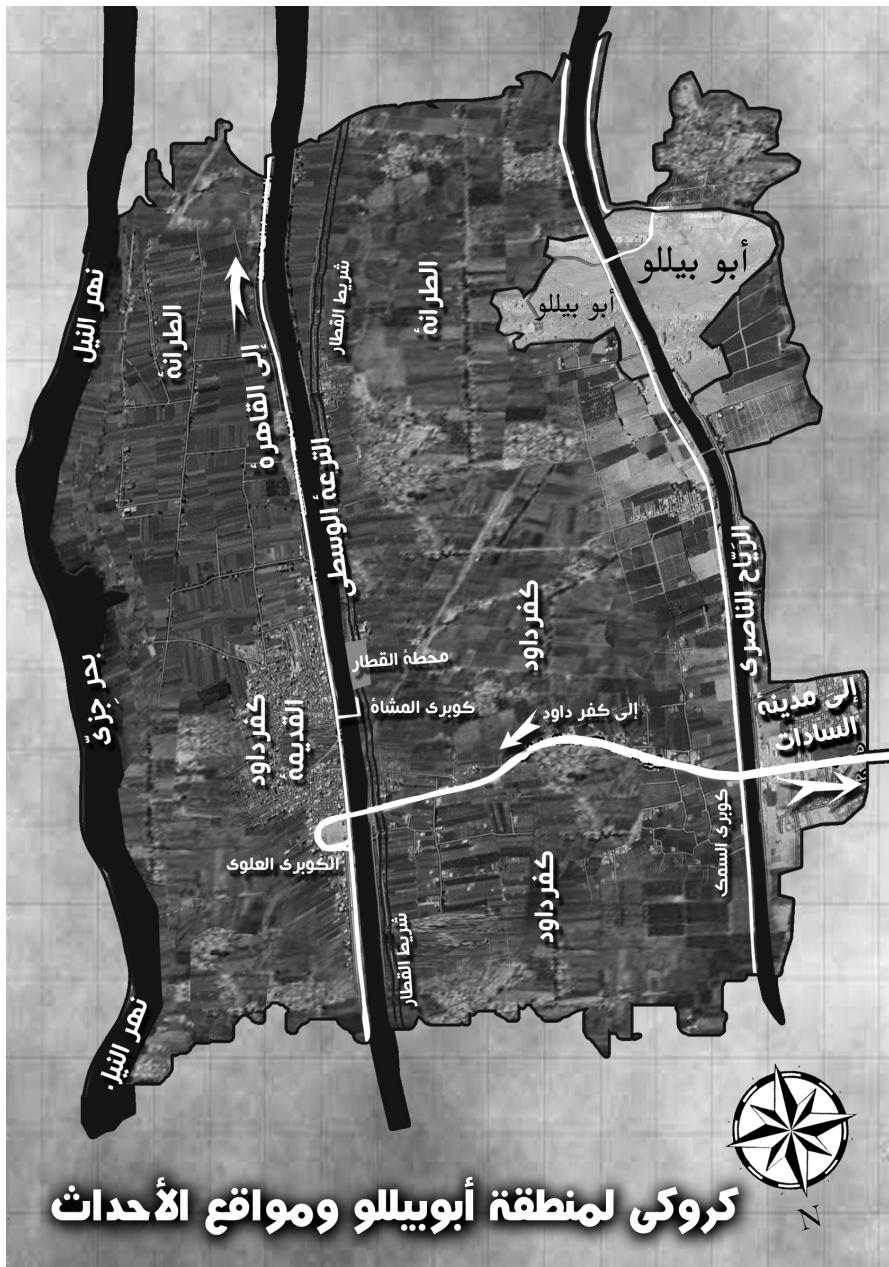
ولقد عثر في منطقة "أبوبيللو" على العديد من المقابر الفرعونية واليونانية .. ما يقارب ٦٠٠ مقبرة أثرية ومن الملفت أن عثر فيها

على أكثر من ٥٠ هيكلًا عظيمًا مصابة كلها بضربات البلاط والسهام .

ولقد إزدهرت في العصور القديمة وخصوصاً في القرن الثالث قبل الميلاد كمركزًا لتجارة القوافل بين دلتا النيل والصحراء الليبية وذلك لأنها كانت تقع في مفترق طرق القوافل التجارية التي تنقل البضائع من موانئ البحر المتوسط لتصل بها إلى غرب الدلتا

وإشتهرت بملح النطرون الشمين الذي كان يرد من وادي النطرون .

ومن الجدير بالذكر أنه من أهم الأعمال الأدبية الروائية التي تناولت منطقة أبوبيلو بشيء من التدقيق والإسهاب .. رواية " حجارة بوبيلو " للروائي الكبير إدوارد الخراط .. " دار الأدب - بيروت ١٩٩٢ م " .. " دار شرقيات للنشر والتوزيع ١٩٩٣ " .. ولقد عرف إدوارد الخراط هذا الموقع الأثري " بوبيلو " وإرتبط به وجداً نيا عندما كان يعيش في " الطرانة " قرية جدته ، في البحيرة " إذ كانت تتبع محافظة البحيرة سابقاً " منذ خمسين عاماً .



كروكى لمنطقة أبو بيلو وموقع الأحداث

عند حافة النهير .. جلست أرمق أديم المياه ذاهلا بنظرات
شاحصة .. ساهمة وشاردة .. أباشره يتمطى في أريحيه وإسترخاء
.. وصداح بعض الطيور المائية يتواتر إلى مسامعي تدثره
وشوشت الأمواج الهادئة .. وفحيح السيارات المارقة على الجسر
الرابض بالضفة المناظرة يتتردد في جنباته بأصداء خاطفة ..

تذكرت ما حدث في تلك الفترة البائدة والأيام المنصرمة
المشحونة .. لردى من الزمن .. وكان علة ما أنا عليه الأن .. وما
أليه حالى .. وإنتهى به مطافى .. أهل غير الأهل .. وناس غير
الناس .. وأرض غير الأرض .. وكأنما قد بدللت جلدى .. أو
قطنت روح أخرى ..

جالت ذاكرتى بسالف عهد تلك البقعة .. وما جرى بها ..
فكان شاهدا عيان عليه ..

أكتوبر ٢٠٠١ ميلادية ..

كان النهار شديد القيط .. لافح .. مختنقا بالهبوب الحارقة ..
والرمال الجبلية تنفس حررا يضارع جهنم ، أو يكاد .. ما تنفك

كل حبة رمل أن تنفر مثيلتها " إتقاء اللفح المؤلم " .. حتى
تلسعها جارتها الأخرى .. فتردعها إيلاما وإلتياعا ..
ورغم أنه على المدى القريب يرتحى الرياح الناصري .. ذاك النهير
العفى .. إلا أن نسائمه لم تستطع تليطف إحتقان " زمة حرارة
الجو " .. فمياهه شديدة السخونة .. تتج بدورها أنفاسا لاهبة ..
وثرمة قطار مكفره يلهث بعيدا على القضبان الملوحة بفعل حراب
الشمس المسننة .. يصدر نعيقا يملأ أذان الأفق يسراه ويمناه ..
تناواح أصداوه القرية والبعيدة بتردد متزاوج حاد ..
وعلى بعد زهاء النصف كيلو متر تتموقع قرية كفر داود القديمة
.. تلك البلدة الحظية .. غرائية المعالم .. فريدة القسمات واللاماح
.. إذ يجسراها ثلااث مجاري مائية رحبة .. ففى أقصى الناحية
الشرقية يحدها البحر الكبير .. " كما يدعونه القريون المحليون "
.. المطل على بلدة جزى .. بينما تخترقها ترعة وسطية محاذية
لشريط القطار .. أما الرياح الناصري .. المنعوت باسم منشئه ..
فيشطرها إلى نصفين .. الشطر الشرقي ذو التربة الطينية الولادة
.. السمراء المشبعة بطمئن النيل الشرى المخصب .. فتفترشها

القرية القديمة .. أما الشطر الغربى فيثقل بمحط القرية الجديدة
ذات التربة الرملية الصفراء ..

ولا عجب في هذا التحول القطبي .. الناحى إلى العبئية ..
فقطاطنى تلك المستقرات .. أدانها وأقاصيها .. لدיהם من
الأعاجيب العجائب ..

وثرمة أيضاً ثلاث جسور تعبر محاريبها .. فهناك يتتصب كوبرى
المشاهد والكوبرى العلوى العابران للترعة الوسطية .. ليصلان
ضفافها .. وكوبرى السمك العابر لمجرى الرياح ..

وفي الجوار .. إلى الغرب من مجوى الرياح .. تقع الأحداث
المنشودة .. بمحاذاة قرية الطرانة على الضفة الأخرى .."
المجاورة لـ كفر داود من الناحية الجنوبية .." خواء شاسع من
الرمال المتحجرة ذات اللون الخشبي القاتم .. أرض قاحلة .. لم
تسق بشربة ماء واحدة منذ زمانات سحيقة .. عديمة الزرع
والإنسان إلا ما ندر .. فإلى إمتداد البصر تترافق أكواام رملية
وتلال هزيلة .. وتموجات من الكثبان الناعمة تنبسط على أديمها
.. تتناوب في الظهور والخفاء .. تلتهم لجاتها رحابة السماء بينما
تدثرها الأخرى على مرأى الأفق البعيد .. تخترقها مدققات ضيقية

ختنقة "زهيدة التعبيد" بالكاد تسع للمشاة والمطايا أو المركبات الصغيرة ..

ولا تمثل الحياة هنا إلا في مجموعات متناشرة من الأشجار الصحراوية كأدغال النخيل الهزيلة وأشجار الكافور والجزورين أو تكورات الهيش الجاسية المسافرة الشاردة .. وتكثر هنا بوفرة أوابد الوحش .. التي نفرت من الانس .. كالذئاب والثعالب والزواحف والهوام السامة .. وثمة تجمعات من البيوت الريفية المتنافرة .. البدية على استحياء .. يقطنها عربان البدو المتشارين بتلك البقاع دون غيرها من محطات ومستقرات الجوار ..
هنا تبدو وتنجيلى منطقة أبو بيللو الأثرية .. الساحة الغراء الأشهر .. الضاربة في عمق التاريخ والموغلة في الزمن .. "الإمتداد الغربى لبلدة الطرانة" .. حيث تشرئب أطلال الدور المدفونة تحت الشرى .. والتي دارت حولها الحكايا والأقاويل والخرافات .. وفي أعماقها تقبع آلاف المقابر الفرعونية .. شأنها شأن البلدة القديمة الطافية على بحر من أطلال الفراعين الميتة .. وكنوزها المنسية المفقودة ..

يتراهى بالقرب القريب .. مشهد مرير .. حادثة مروعة عند حافة أحد المدققات .. عدد من الجثث الراقدة بعشوشائية .. تفترش الرمال الساخنة .. ورجال المباحث والطب الشرعى شرازم فى كل مكان يتفحصون الجثث .. ويتحرون أسباب الجريمة .. فعلى مبعدة ثمة سيارة " هيونداى " ضخمة قاتمة .. متعرضة فى الرمال .. وعلى سطحها ذرات وبقع من الدماء المتخرفة .. وثلاث جثث غرقى فى الشجيج الأحمر .. يحيط بها بعضا من أفراد الأمن .. وعلى بعد ما بما يناظر العشرون مترا .. سيارة أخرى " جيب سوداء " مقلوبة على أحد جوانبها .. وأثار الحادث والاحتكاك منطوبة على أديم الرمال .. وخمس جثث أخرى نافقة داخل السيارة .. وثمة حديث دائر بين أحد خبراء الطب الشرعى ومساعده ..

- ملقيناش مع الجثث أى إثبات شخصية يا فندم ..

- خلى رجال الإسعاف يخلو المكان ..

حمل المسعفون الجثث داخل الأكياس المعدة لهذا الغرض .. بينما كان الضابط مدوح رئيس المباحث بمركز السادات يقتفي أثار أقدام نافرة بجوار السيارة المقلوبة .. أسهمت طبيعة التربة الرملية شديدة النعومة والإنسانية في إبراز محظ الأقدام المغادر

بدت لشخص ما كان قد غادر الساحة هارباً إثر وقوع الحادث ..
إذ تتناقض وتتازف بعشوائية لا همة مكروبة .. صوب إتجاه مقصود
إقناد الضابط سيارته متبعاً وكاشفاً الآثار في ترو وهدوء .. كان
سيره أثقل من حبو طفل رضيع .. إلى أن تلاشت وإندثرت
الآثار عند مدق فرعى مهجور .. "غير معبد" .. تراءى على
مراميه مزارع الموز المتوجلة ومحاجر الزلط ..
هبط الضابط متراجلاً يستجدى أية أثر أو شيء .. ولكن دون
جدوى .. وقف حائراً مريحاً .. زهيد الحيلة .. على مبعدة من
الطريق الاقليمي .. "العمومي المرصوف" .. بزهاء الكيلو متر
.. حيث ترتاده السيارات المتوجهة صوب مدينة السادات غرباً
ظل شارداً واجماً إلى أن لمح جشتين مسجاتين لرجلين طريراً
الأرض .. فهرع إليهما ليكتشف أنهما لخفيرين نظاميين قد عيشهما
هيئه الآثار لحراسة المنطقة .. وكان هذا بادياً من بطاقة تحقيق
الشخصية .. والبنادق الرسمية ..

وبغتة .. سمع الضابط صوت أزيز وصفير خافت .. إلتفت
خلفه ليجد سيارته غارقة إلى أذنيها في حيز الرمال المتحركة ..

إبتلعتها على حين غفلة منه .. أصر على أسنانه يحتقن غيظا ..
وأرسل إشارة عبر الأثير من خلال جهازه اللاسلكى ..

- تعال وهات ونش معاك .. الرمل بلع العربية .. وهات

عربة إسعاف فيه جثين هنا ..

وأسقط الجهاز ضائقا .. يتسمع عواء سيارات الاسعاف مغادرة

محط الجريمة ..

فِي تَلْكَ الْأَثْنَاء .. كُنْت مَتَعْثِرًا تَحْوَطْنِي بِحُورِ الرَّمَالِ الصَّفِرَاءِ
 الْجَدْبَة .. أَحْمَلْ حَقِيقَةً صَيْدَ صَغِيرَةً وَتَتَلَطَّخُ أَرْدِيتِي بِالدَّمَاء ..
 كُنْت أَهْرُولَ مُحَاوِلًا الْهَرُوبِ مِنْ ذَاتِ الْبَقْعَةِ حَيْثُ وَقَعَتِ
 الْجَرِيمَة .. يَبْدُؤُنَّ مَا كُنْت أَحْمَلَهُ فِي حَقِيقَتِي أَعْاقِنِي وَأَثْقَلَ كَاهِلِي
 .. حَاوَلْتُ حَيْثِيَا مَنَاهِضَةً عَثَرَاتِ الرَّمَالِ وَعَقَبَاتِ أَكْوَامِهَا .. كُلَّمَا
 سَرَتْ خَطْوَةً إِنْغَرَسْتُ إِحدَى قَدْمَائِي .. وَتَوَحَّشَتْ الشَّمْسُ
 الْحَارِقَةُ تَلَهَّبَ ظَهْرِي بِكَرَابِيجَهَا الْلَّافِحة .. وَتَلَتَّهُمْ بَصَرِي بِسَنَا
 إِشْعَاعِهَا الْمُتَكَاثِفَ .. جَاهَدَتْ الْمَسِيرَ يَتَصَبَّبُ عَرْقِي مَدْرَارًا ..
 أَنْكَبَ تَارَةً وَأَنْهَضَ تَارَةً .. حَتَّى شَارَفَتُ الطَّرِيقَ الْعُمُومِيَّ الْمَهَدِ
 .. لَمْ يَكُنْ بِإِسْتِطَاعَتِي الْمُضِيَّ بِأَيِّ مِنْ الْمَدَقَاتِ حَتَّى لَا أَكُونْ مُخْطَطًا
 أَنْظَارَ الْمُتَرَقِّبِينَ مِنْ رِجَالِ الشَّرْطَة ..

لَوْحَتْ لِإِحدَى سِيَارَاتِ النَّقْلِ الْلَّاهِثَةِ عَلَى صَفَحَةِ الطَّرِيقِ
 الْأَسْفَلِيَّ .. جَيْئَةً وَذَهَابًا .. وَكُنْتُ مَا زَلْتُ أَتَلَصَّصُ وَأَسْتَرْقُ
 السَّمْعَ خَلْفِي .. كَانَ الْخَوْفُ يَتَمَلَّكُنِي وَيَقْبَضُ جَائِشِي ..
 وَيَكْتَنِفُ أَنْحَائِي .. كُلَّمَا إِطْمَأْنَ قَلْبِي لِبْرَهَة .. شَعَرْتُ وَأَنْ

أحدهم يترصدنى .. فأعيد الكرة وأحد النظر خلفى مرتعدا
خيفة أن يفتشح أمرى ..

وقفت إحدى السيارات .. وإرتقى إلى صندوقها الخلفي حاملا
حقيقة بمناقيلها التي أرهقتني طوال المسير .. إندفعت السيارة
كالسهم المارق .. ومازالت أتحرى الطريق وراءى .. أنعم ناظرى
صوب كل اتجاه .. وإلى مرامى الأ بصار .. إلى أن إبتعدت السيارة
 تماما عن تلك البقعة المقبضة .. وأحسست أنها أمنى في مأمن
نسبى بعيدا عن مراميهم ..

جسرت السيارة الكوبرى العلوى العابر من الضفة الغربية إلى
تلك الشرقية للترعة الوسطى .. " التي تخترق حشا قرية كفر
داود القديمة .. مرورا بشرط القطار المحاذى للمجرى المائى
والمتعامد مع الكوبرى العتيق " ..

ما هي إلا دقائق .. وكنت أسفل الكوبرى متراجلاً أتحرى عن
سينارى .. التي واريتها في الغداة عند ناصية أحد الأعمدة
الضخمة " التي تحمله نيرا على عاتقها " .. كنت قد خبأتها خلف
أحد القوارب الراسية عند ضفة الترعة .. أبدلت ملابسى

الملطخة بالحمرة الفاقعة بأخرى كنت قد أودعتها بالقارب قبل
المضى صباحا .. "تحسبا" ..

وثقت الأردية المبقعة حول حجر صغير وأحكأت عقدها ثم
ألقيتها بمياه المجرى .. وتناولت السنارة ثم خرجت إلى الطريق
تارة أخرى .. "شبه مطمئن" ..

أحاول تنظيم هندامى .. ومحو بعض آثار الأتربة العالقة به ..
حتى لا تنجل حالي .. وينكشف مأربى ..

طفقت سائرا على جسر الطريق .. وشئيا من الوجل ما زال
يشاغلني ويخايل فؤادى .. ويراؤدنى بين الفينة وأختها .. ما
دفعنى لأحدق النظر خلفى مرارا إلى أن دثرنى الزحام ووارانى
عجيج المارة وهوجة السيارات .. فبت فى مأمن مطلق من أي
خطر محقق ومباغت ..

إنطلقت إلى عمق البلدة الريفية .. المنحوتة من طين النيل وطميه
.. تطوقها الزراعات والجبانة القديمة .. سرت أجوب حواريها
الضيقه وأزقتها المختنقة "المراوغة" قاصدا وجهتى ..
وفي جوف إحدى الحارات .. عمدت إلى بابا مواربا .. كان واطئا
بهيئة ملفتة "يغمرك بالنفور والرهبة للوهلة الأولى" وكأنه باب

طابق تحتى .. كان البيت قديم أشبه بقبر مدفون تحت طبقات الطين والطمى الصلد .. تبعت منه دلجة حالكة تقبض الجاوش الجسور .. على غرار باقى بيوت القرية التليلة ..

طرقت الباب عدة طرقات خافته خفيضة .. " تسمعها ولا تلحظها " .. فتحت الباب طفلة صغيرة .. " أعهدها وأعرفها حق المعرفة " .. إنها صغيرة سماح .. سماح الأرملة المعذبة صغيرة السن .. في طور الشباب .. تلك التى ضاع عمرى فى رحاب فؤادها .. فتاتى التى أغرتتنى عشقا ولهفة .. فباتت حلمى الأبى عصى التحقق ..

إستدعت الطفلة أمها حتى وافتني .. " مثلت أمامى من داخل الباب الموارب " .. فمددت يدى وأعطيتها الحقيقة .. وقبل أن تنبو لها بنت الكلمة .. ناهضتها بالحديث .. رجوتها أن تستبقيا عندها ريشما أعود لها ليلا .. وأن تخبيها بمكان آمن لا تتمد إليه الأيدي ..

حاولت سماح أن تتken حقيقة الأمر .. " طلبت مني ايساصا " .. لكنى لم أنس بلفظ بل خليت سبيلها مغادرا فى لهاث ولهفة .. " دون أن يسترعى التفاتى قلقها وربيتها " .. بيد أنى قبل أن أدور

من عطفة الحارة حدثتها بأنى سأعطيها تبيانا للأمر حينما نلتقي
ليلًا ..

لم تملك سماح من الأمر شيئاً سوى أن تعلقت عينها بشبحى
الغارب في حيرة ووجل .. وترامت إلى مسامعى عباراتها المعتادة
بأنى سأوردها المهالك جريرة أفعالي .. لم أكثر وأكملت
مسيرى ..

إختفيت عن ناظريها بين وشائج الأزقة المتشابكة ببغاء وعشوائية
.. بينما ظلت سماح شاخصة عند تلك الناصية " التي ولجت
وغادرت منها " .. رمقت سماح الحقيقة في شتات .. هنيهة زهيدة
.. ثم دعت طفلتها إلى الدخول وأوصدت باهبا تنتظر خبراً أو
مقدمي المنشود ..

طويت المسير متوجهاً صوب المقهى أسفل الكوبرى العلوى "
وال المجاور ل موقف السيارات العمومى للبلدة .. ينبعسط خلفه
ملعب الكرة المطوق بدوارن الكوبرى " .. ولجت إلى المقهى
قادساً منضدة بعينها يشرف عليها شخصين .. هما فتحى صديق
عمرى ورفيق دربى ورحلتى ..

وبركات أحد هؤلاء من تربطنا بهم علاقة سطحية .. "إذ لا
تجمعنا غير الطرقات والمقاهى" ..

ما إن دلفت إليهم .. حتى هلل بركات بمصطلحاته المعتادة
وطلته المرائية مدعيا لففة اللقاء .. "وكأنك في زفة لبغبة
الكاذبين" ..

أطرقت في صمت متجاهلا عباراته العابثة اللاهية .. "فلكلم
طرقت مسامعي" .. إنطربت على أحد المقاعد متطلعا إلى تلك
الضجة الغامرة أعلى الكوبرى .. كانت سيارات الشرطة
والاسعاف لاهثة تجوب شرقا وغربا .. فإرتبكت في إثرها حركة
التنقل والمرور ..

حاول بركات تبيان كنة الأمر .. بينما مال فتحى برأسه قرب أذنى
يمادثنى بصوت خافت ..

- إتأخرت ليه .. إوعى تكون إتورطت في حاجة ..

أجبت والخوف والهزال يتتبانى ويكتتفانى ..

- متكلمنيش في أى حاجة دلوقتى .. كفاية اللي أنا فيه ..

رمقنى فتحى مريجا وأحس بالخوف ينهاش صدره ..

بينما نادى بركات أحد المارة محاولاً إستيضاح علة تلك الجلبة
أعلى الكوبرى ..
فأجابه ..

- فيه حادثة فظيعة حصلت بأرض المقابر .. إتقتل فيها أكثر
من عشر رجاله ..

فرع بركات وأحس أن تحرّكات ما أمنية ستدور رحاه .. وما إن
لمح إحدى سيارات الشرطة عند ناصية المقهى حتى هب متفضضا
"طارحاً مقعده خاويًا" وهرع هارباً ..

وشعرت أنا بدوري أن خطراً داهماً يقترب شيئاً فشيئاً ..
فأصابني ذعر وهلع شديدين ففررت من محطى .. داعياً فتحى
لمغادرة المكان توا .. فيبين لحظة وأخرى .. سيمتلئ المقهى برجال
الشرطة ويقتادون الحابل بالنابل .. ولكن ما إن خرجنا من باب
المقهى حتى داركنا خفيران نظاميان .. وإصطحبانا إلى سيارة
الشرطة .. تذمر فتحى متحجاً على هذا النحو المتعسف .. إلا أنه
بالنهاية أذعن لإرادة الخفرين خيفةً أن يتلقى صفعاتهم الموجعة

إِسْتَشْرِيَ الْخُفَرَاءِ دَاخِلَ الْمَقْهَىِ وَجَلَبُوا الْكَثِيرَ مِنْ مُرْتَادِيهِ الْمُشْتَبِهِ
بِهِمْ .. مِنْهُمْ مَنْ هَاجَ هَائِجَهُ .. وَمِنْهُمْ مَنْ مَضَى بِهَدْوَهُ وَإِنْصِياعُ
غَيْرِ آبَهِ بِمَسْلِكِ الْخَفَّارِينَ الْمَنَاهِضِ .

وَإِنْطَلَقَتْ سِيَارَةُ الشَّرْطَةِ بِنَا مَتَجْهَةً شَطَرَ مَرْكَزِ شَرْطَةِ الْمَدِينَةِ ..
وَنَعِيقَ إِنْذَارِهَا يَطْنَ فيِ الْأَجْوَاءِ مَرَدَدًا صَدَا خَيْفَا وَمَقْبِضَا .

صبيحة اليوم التالى .. وأمام مركز الشرطة .. خرجت أنا وفتحى من ساحة المركز بعد إنقضاء ليلة مضنية بالحجز الاجبارى وبصحبتنا بركات الذى لم يتمكن من الهروب ظهيرة أمس من قبضة الخفراء .. إذ لحق به أحدhem مترصدا و منهاضا لرغبه .. وكانت تبدو على أسراريرى إشارات الغضب والتذمر .. فلم اعتاد البيت بالتخسيبة .. بينما سار فتحى إلى جوارى يفرك عينيه ويتشاءب في هدوء رتيب .. وتبلد غريب مستفز .. أما بركات فلم يحفل بالأمر مطلقا .. أشعل سيجارة وطفق ينفث دخانها غير آبه "غلبتنى دمدمتى .. فخليت سبيلهم ضائقا .. "أجافى صحبتهم" .. وما لبثت أن ترجلت خطوتين حتى باغتني ألونيا يناظرنى مباشرة .. وذاك أيضا أحد المتطفين على أديم صحبتنا .. بادرنا بعباراته الساخرة المتشفية .. مدعيا الرجولة إزاء موقفنا المكفره من قضاء ليلة واحدة بالحبس .. " ولا أخفيك خبرا فقد كان تعس الحظ من مرتدى السجون ومفترشى الأبراش" .. علاوة على عمله كمرشد سرى لدى رئيس المباحث .. الضابط مدوح ..

ألقى تحيته السمجة على ثلاثتنا .. والتي أجبتها وفتحى على
مضمض .. بينما تأبطة بركات في قيلة خاصة .. "تسمعها بوضوح
" .. مستوضحا عن محطة غداة اليوم الماضى ..
لم يحب ألمونيا .. ووجه حديثه لى مستهزئا ..

- إنت زعلان قوى كده ليه ؟ .. أمال كنت هتعمل إيه لو
رحلوك على النيابة ؟ ..
أجبته بلهجة نافرة متوترا ..
- الحكاية مش مستحملة رخامتك ..
وإستطرد فتحى ..
- سيبه في حاله ..

تجاور ألمونيا عن الحديث في ذات الأمر .. وسائل بركات ..
- هنقضى ليلنا فين النهاردة ؟ .. ياترى جبت التموين "
الخشيش والبيرة " ..
فتذمرت مكظوما من ذاك السليط .. بارد الحس ..
- الله يخرب بيوقكم إحنا لسة في المركز .. هتودونا في داهية
وأسرعت خطوى مرددا ..
- أنا غاير في داهية .. قبل ما أروحها على ايديكم ..

فتداركى بركات ..

- إهدى شوية .. هنروح مع بعض ..

بينما أماء بناظره إلى ألمونيا .. يدعوه للتخفيف من وطأة حديثه
الفج .. بيده أنه لم يرتدع .. واجهنى بحديثه الناحى إلى البداءة ..

- فوق يابويا .. إنت هتصعبها علينا ليه ؟! .. الحكومة
بنفسها هي اللي بتجيip لنا حصص المخدرات .. صح
النوم ..

ثار ثائرى وتقدمت متآزفاً أردد ..

- غور من وشى .. ربنا يزيدك غباوة على غباوتك
فلا حقنى وناظرنى قسراً .. ساخراً ..

- انت جبان كده ليه ؟ .. امال ليه على طول عاملى عنتر
وسيد الرجال ؟ ..

فإبتدره بركات .. وحدته بصوت خفيض هامس ..

- سيبك منه وقولي .. فيه حريم الليلادى ولا هقضىها وشى
في وشك ؟ ..

أجابه ألمونيا متحذلقاً ..

- اللي يسمعك بتقول كده يقول الواد مقطع السراير

- طب هاتلى واحدة دلوقتى وشوف أنا هعملك فيها ايه ..
وفي المركز .. المهم يبقى فيه ..
- مخك ده أعرج .. ودى حاجة تفوتني ياناصح .. هو
الكيف يعلى من غير حريم ؟ ..
يعنى فيه ؟ ..
- حرمتين على أبوهم .. وش فورة وجسم كرباج .. معايا
ولا هتفضحنى زى كل مرة ..
رد بركات فى حرارة ..
- وأنا ليابركة غيرك .. هنتقابل فىن وإمتى ؟ ..
- ماشى ياراجل يابركة .. فى القرية اللي فوق فى البيت إيه
.. وإيسط ياعم الحشيش والبيرة مجانا من غير كام ..
لوى بركات رقبته موجها حديثه إلى فتحى فى سفور وفظاظة ..
- معانا ؟ ، ولا هتعمل فىها خضراء الشريفة زى عادتك ؟ ..
أجابه فتحى صاحبا فى ضيق ..
- الله يسود وشك .. متدخلنيش فى مشاوركم الصايحة دى
.. مليش فيها .. ثم إنى مشغول الليلادى ..

بينما جالت بخلدى فكرة .. " حاولا مراوغة سليقة ألمونيا لأهليه
عنى .. لم أرد أن أنحط تحت أنظار ذلك المرشد عديم الزمة " ..
فباغت الجميع أحدث فتحى مقتضبا في جدية مفتعلة ..

- هنروح معاهم .. إحنا الليلادى معاكم .. يمكن نخلص
شوية من الحالة الزفت دي ..
نظرنى فتحى دهشا .. مستنكرا ردة فعلى ..
- إنت هتروح ؟ ! ..

لم أعيه إلتفاتا .. وتقدمت عدة خطوات للأمام ساهمها .. " تراه
فتضحك .. بدا كالمخدور يهز هز رأسه .. ويردد بصوت خفيض
يوشك على الإختفاء "

- أية .. هنروح معاكم ..
هلل بركات كعادته على نحو مبتذل .. يقصدنى ..

- إلحقو يارجالة .. مصطفى إنحرف .. مش هنعرف
نكلمه تانى ..

وعلى حين غرة .. واجه ألمونيا ثلاثتنا .. يتقهقر بظهره للأمام
بخطاو ثابت ..

بيد أن ألمونيا لم يستطع الإفلات من قبضة بركات فأجل مسعاه
وسار في صحبتنا .. وظلا في سجاهن السمج طوال مشانا .. بينما
تعلقت عيناي فتحى بقسى المستعارة .. " وله الحق فموقفي
الأخير وقرارى غير المبرر .. حقا يدعو للدهش والإستغراب "
.. فقلما جمعنا بهؤلاء مسيرة أو تدبير .. وذاك أن بركات وألمونيا
من الشخصيات الطفيلية المؤذية .. إبتلاهما الله بطلات مقايتة
تليق بأخلاقهم وخلقهم ..

ولا عجب فكلاهما يشبهان القرود .. بركات يشبه تلك القرود
الصغيرة .. خفيفة الحركة سريعة الهروب .. " مذ أن ترك تبدأ
فورا في المحاوره والراوغة والإحتيال ".. تلك المرائية اللاهية ..
الوصولية .. أيها وجدت الطعام واللهو وطنت .. ومضت
تمسح وتتنزج .. مالا يملأ عينيها الفارغة لا يملأ معدتها
البطينية .. لذا فهى لا تشبع أبدا ..

بينما ألمونيا .. فقد فاق كل النعوت الرذيلة والسمات المنفرة المقية
.. شخصية بغيبة ماكرة .. شديدة الدهاء .. فهو أشبه
بالحلاليف العجيبة .. دميم الخلقة كريه السحنة .. لئيم كعجائز
اناث الذئاب .. لا يمسك لسانه عن أحد .. ولا يسلم أحدهم

من لدغاته الخائنة الغادرة .." أحد التركيبات البشرية التي قد
توقفك حائرا .. كيف أذعنها نير الهوى كيفا شاء .. وتقازفها
الأقسام النفسية .. العدوانية منها تحديدا .. فباتت ممسوحة
مشوهه .. لا يؤمن شرها "..

طفقنا مترجلين إلى أن ألقينا أحد "أوتوبسيسات الأجرة" التي
ستتهي بنا إلى البلدة .. وما لبث ألمونيا أن إرتقى المركبة حتى
بوغتنا بصياحه الوضيع .. وجلبته الفوضوية العبيثية ..

فقد لمح إحداهم من اللاهيات .. "بنات الهوى وفتيات الليل"
.. كانت تجلس على الأريكة الخلفية للمركبة .. إنكب بجسده
الرخيص على جسدها الأرخص .. وإنحط يلتتصق بها "شاغرا
نصفها الأيسر" .. بينما تلزج به بركات متطفلا .. وجلسنا أنا
وفتحى في جوارهم على مقربة بذات الأريكة .. تحت أنظار
الركاب المستهجنة والمستاءة .. معظمهم من قاطني البلدة ويعرفه
جيدا .. لذا لم يجرؤ أحد them على ردع مسلكه البذيع .. أصحابهم
الخرس الذي يطوى نفور وتأفف ..

مضت المركبة .. وثمة حديث هامس "لاهى" دائر بينه وبين
الفتاه التي كانت "بين الفينة والأخرى" تطلق ضحكة سافرة ..

إلا أنى في غفلتى وإنشغالى مع حديث فتحى اللحوح لم أحتسب
لصعود سماح بغتة .. وبمحض الصدفة .. خلال الطريق لترانى
على تلك الهيئة المزرية .. فتلاعب برأسها الظنون حول تورطى
في تلك الصحبة المشبوهة .. " وما ظنك بشخص يلتصق بفتاة
ليل ذائع صيتها .. وتعرفها جيدا " ..

فما إن ركبت حتى إنفجرت صائحة في وجه السائق .. فتوقف
على جانب الطريق ..

ونزلت غاضبة تستنكر فعلتى ..
لم أرها حينها " وكأنك أعميت عيني فلم ألم بحضورها ..
وصمممت أذانى عن صياحها " ، كنت غارقا في قيلتى مع فتحى
استأنفت المركبة سيرها .. ومال فتحى برأسه إلى " يجذب
ساعدى .. هامسا بأذنى " يستفزنى من مقعدى .. فهجمت
بصحبته وجلسنا في مقعدين أماميين .. وبادرنى قائلا ..

- إنت بتتكلم بجد .. هنروح معاهم ؟ ! ..

- أية ..

- أمرك عجيب ! .. من إمتنى بتجمعنا بيهم مشاورير ؟ ..
وبعدين هو إحنا لينا في المشاورير البایظة بتاعتهم دى ؟ ..

- بعدين هفهمك ..

ظل فتحى ينظرنى محملا .. دهشا فاغر الفاه .. فإلى حينها لم
أجبه بإجابة صراحا ..

أطبق علينا صمت غرائبى ..

وساد الهدوء ساحتنا إلا من غنج يأتينا عبر الأثير من مذيع
المرکبة ..

بينما مكت الآخران لاهيان مع فتاتهما اللعوب ..

في ظهيرة ذات اليوم .. إنتهى بي المسير أمام بيتي المتواضع بمنطقة التجارة " تراها إلى الغرب من الرياح الناصري " .. كنت أقطن حد تخوم القرية الجديدة " قدر نزوحك بزهاء الكيلو متر من كفر داود القديمة " .. واللامح هنا شديدة الاختلاف فالبيوت مبنية من الطوب الجيري ومسقوفة بأسقف خشبية .. وقلماً أن تجد سقفاً خرسانياً .. فمعظم القرية ذات طابع فقير يعيش على الكفاف " ولا ترى في هذا غرابة فهذا حال جل قاطنيها " .. وهنا لا يتم الأهالى بالتعليم قدر إهتمامهم بالعمل وجلب الرزق .. حتى لو تأتى هذا بأيدي صغارهم وسواعدهم العذراء " فالمشهد الأعم الذى تعتاده عيناك عند حافة الطريق العمومى ونواصى الشوارع المطلة عليه تجمعات الصغار جنباً إلى جنب مع الرجال والشباب النازحين فى الصباح الباكر للعمل فى مصانع المدينة أو المزارع المترامية فى كل إتجاه فى جوف البلدة أو تطوق أطرافها .. وأرجو ألا تبدى عجبًا فى ذاك " ..

ورغم أن تلك البيئة كانت مناسبة نسبياً .. بعيداً عن بيوت العوائل المكتظة والضائقة بالأفواه والمتطلبات .. لإخراج جيل

جديد من المتعلمين يكسر عادات المجتمع القديم بالقرية العتيقة .. " ولا تعجب أيضاً أن تعلم أن معظم بلدان الجوار القريب والبعيد فعلتها رغم الفاقة والعود والتحديات الصعبة " .. إلا أن الأهالي هنا لم ينحون ذات النحو .. أهتمهم المعيشة ..

فداروا في ساقية الأيام وإنحصرت طموحاتهم في البحث عن لقمة العيش فقط .. بفائدة لحال أسوأ من مجتمع العائلة الكبيرة بالبيت الواحد ..

وقفت أمام الباب متملماً .. أنظر إلى أطراف الشارع الخاوي يمنة ويسرة .. أختنق بهذه البيئة الجافة المجافية .. باردة الحس .. دفعت الباب ضائقاً .. وما ان ولجت حتى هب أخي الصغير " ذو الخمسة أعوام " مرتعياً بين دفتاي .. حملته وأمتعته لشمة حانية .. وأمسكت أنامله الصغيرة .. كنزة راحتى يصطحبنى إلى الداخل ..

كان أبي بيته المنزل الضيق يتوطن أسفل بقعة مشمسة .. " شيخ مسن أعيته الخطوب وهدته النوازل يهزمه أن تراه قعيد أسير مقعد متحرك " .. وما إن رأني حتى مضى هو الآخر في حديثه المعتم .. بدوره .. يؤنبني ويوبخني ..

- كنت فين من إمبارح ؟ ..

- عند فتحى .. كنا بنخلص شوية شغل ..

- فتحى ! ! .. كل ليلة فتحى ! .. مفيش أبلد ولا أبرد من
الحجج اللي بتتحجج بيها .. شغل إيه ده اللي بتقضوا فيه
الليالي ؟ ! .. عمرى يعني ما شوفتك بتصرف ع البيت
حاجة .. ده أنا حتى عمرى ما لقيتك داخل علينا بكيس
فاكهة ولا حتى كيس عيش .. ده إحنا عايشين مع
العايشين بالعافية .. ولو لا معاشى كنا لفينا نشتت من
السكل أنا وأخوك .. أنا زهقت من كتر ما نصحتك ..
وإنت ودن من طين وودن من عجين .. من فشل لفشل ..
هتعمل فينا إيه تانى ؟ .. مش كفاية أملك اللي ماتت
بحسرتها عليك ؟ .. ولا أنا اللي بقىت مشلول لا حول
ولا قوة بسبب مصايبك وأفعالك .. مش مكفيك اللي
جريته علينا ؟ ..

وإبتدرت عيناه وإغزورقت بالدموع .. إجهش بالبكاء .. بينما
وقفت أنا صفر اليدين .. حائرا .. إلا أنى لم أستطع التهامسك

ومغالبة فورتى وأنا أرى دموعه قد طفرت .. فإنطلقت صائحا
في ضيق ..

- الله يسامحك .. كلامك ده هو اللي بيعجزنى وبيسد الدنيا
في وشى .. إنت سبب فشلى .. خلتنى أتعلق بالتعليم ..
أحلام أحلام كبيرة عليا .. وسيبنتنى تاييه وسط الطريق
مش لاقى اللي يكمل معايا مشوارى .. ومصاريف الكلية
كسرت ضهرى ..

ياريتكم علمتني صنعة .. كنت هرضى وأحمد ربنا .. كنت
شتغل بيها .. دلوقتى بقى عامل زى اللي رقص على
السلم .. لا اللي فوق شافوه ولا اللي تحت سمعوه ..
كف أبي عن البكاء .. وتحرك صوبى بمقعده .. تلتحم عيناه
بعين ..

- يابنى .. الأرزاق بيد الله .. ياريتكم كملت دراستك
وغمسناها بملح .. إنت اللي مشيت ورا كلام زمايلك
الفاشلين .. متعرفش إن الخير مقطوع من طريق آخره ندم
.. بتسليني ذنبك ليه ؟ .. كان بإيدى إيه أعمله
ويعملته هوش ؟ .. روح يابنى وسيينا بهمنا .. يعني كنت

هتحفن وتحط في حجري .. ده إنت حتى عمرك ما فكرت
في أخوك الصغير .. هي عمل إيه بكرة ولا إيه اللي مستنيه
؟ .. مين هيستحمله بعد أما أموت ؟ .. يابنى أيامى في
دنيتكم الزايلة قليلة .. مش هعيش أكثر ما عشت ..
وأكثر حاجة مرعوب منها إن الدنيا تغدر بي ..
رددت في صلف وأنا أبدل هندامى ..

- أديك قولتها .. الأرزاق بيد الله .. لا بـأيدي ولا بـأيدك ..
تلفظ أبي غاضبا في حسرة ..

- غور من وشى .. ربنا يتولانا ويعينك على حالك
خرجت نافرا .. ضائقا .. بينما وقف أخي على اعتاب الباب
يراقب ظلي وهو يخبو شيئا فشيئا إلى أن زال عن مرآه .

.....

وافت الساعة الثانية .. عندما ولجت إلى المقهى أسفل الكوبرى
.. صادفت أن قابلنى عامل المقهى يناظرنى إثر دخولى .. فطلبت
منه أن يجلب كوبين من الشاي .. وإنجهاهت إلى حيث كان ينتظرنى
فتحى وحيدا في آخر بقعة بالمقهى .. جلستأتاؤه ..
- حاسس بإرهاق شديد .. عضمى كله متكسر ..

- بسبب المشوار الزفت اللي حشرتنا فيه إمبارح .. اللي لا
كان على البال ولا النية
- ولا يهمك .. أهي ليلة وعدت ..
وران علينا صمت رتيب .. إلى أن جلب لنا عامل المقهى
المشروب وغادر .. فإستهل فتحى الحديث قائلا ..
- إنت مش ملاحظ إنك مقولتليش إيه اللي حصل ؟ .. وإيه
المصايب اللي سببتوها وراكوا دى ؟ .. المركز عامل حالة
طوارئ تقلق .. وياترى إيدك إلتطخت بدم الناس اللي
إقتللت هناك دى ؟ ..
تداركت فتحى مناهضا ..
- ممكن تهدى شوية .. ومتقدعشى ترمى الإتهامات كده
بمزاجك ..
خلاص إحكيلي إيه اللي حصل ..
- نزلت فوق راسى مصيبة معمليتش ليها حساب .. بدعى
ربنا يخرجنى منها على خير والأمور تعدى بسلام ..
- أعمل إيه فيك بس .. ياترى وحلة إيه دى اللي وحلت
رجليك فيها ؟ .. أنا مش حذرتك ؟ ..

- قولتلك إهدى وهقولك على اللي حصل ..

- قول ياسيدى وأنا سامعك ..

ومضيت أروى له ماحدث بشيء من الإسهاب الخذر ..

- كنا واقفين قدام البيت مباشرة .. بنحوٍ مدخل المقبرة
اللى كانت تحت رجلينا .. أنا والشيخ مرسي وصاحب
البيت وبقية الوسطا .. وكان العمال بيшиلوا الردم عن
بلاطة باب المقبرة .. وحوالينا عربيات النقل وعربيتين
ملاكي كبيرة ..

بعد ما تعن العمال البلاطة الحجر .. إتكترنا عليها
ورفعناها بونش مخصوص .. لحد ما ظهرت قدامنا الفتحة
مضلمة قوى ..

بعدنا عنها وإستنينا شوية .. علشان محدث يشم الهوا اللي
متعنق من ألف السنين و مليان جراثيم في بطن المقبرة ..
شوية و قعد الشيخ مرسي يبخر حواليها ويتمتم بطلاسم
غريبة ..

لحد ما إطمئن إن كل شيء تمام ..

وبعدين شاور بصبuge لواحد من العمال كان شايل كشاف
منور نزل قدامنا على سلم من الحجر عشان ينور الضلعة
اللى تحت .. ونزل وراه الشیخ مرسى يتمتم ويمرجح في
سبحته يمين وشمالي ..

ولما وصلنا تحت إنكشف قدامنا كنز رهيب .. كانت
المقبرة لكاهم من كهنة الفراعنة .. كان واضح ده من
عصايتها وأدواته الشخصية و حاجات تانية غريبة إندفنت
معاه ..

" محلته ومراته ، ومبحة من العقيق الخالص ،
ومحرته وريشه الخاصة ، ونطاق وسطه وإزاره وبعض
أرديته المنمقة والمنقوشة .. التي ظلت على حالتها رغم
تعاقب الدهور عليها ، وسوار بمدلاة ذهبية صريحة
وفردي قرط ذهبي وحلقات وخواتم
ومجامر الطيب النحاسية ولفائف ورق البردى ذات
الرائحة المعتقة النافذة ، وعدة مشاعل معدنية خاصة ،
والكثير من تمايم الأحجار الكريمة وبعض لزوميات
الكهنة والأحجيات ..

وأكثر من أنموذج مصغر لبعض أهتمهم وثمة بوق هلالى ،
والأوانى والأباريق وعبوات الخزف الملائى بالعملات
الذهبية ، والسحارات والصناديق الخشبية المطعممة
بالأحجار والذهب والفضة " "

وبأمر من الشيخ قعد واحد من رجالته يصور بتليفونه
المحمول كل قطعة وتمثل لوحده في مكانه الأصلى ..

وقدع الشيخ مرسى يرمى سبحة على راس كل تمثال
وقدامه ورقة نتيبة بتاريخ اليوم .. عشان تبان السبحة
وورقة النتيبة في التصوير ..

وأنا والرجالة ماشين ورا الشيخ نتفرج على الكنوز ..
كنا مبهورين بعظمة اللي شاييفينه ..

وفي الآخر رفع العمال التمايل والقطع الخفيفة اللي قدروا
يشيلوها بالإيد ..

ووقفت أنا والرجالة نتابع كل اللي بيحصل وكل واحد
مستنى نصبيه

حطوا التمايل جوة صناديق من الخشب متبعبة بقش الرز
وإتحملت على عربيات نقل عليها علامه زى علامات
شركات البترول العالمية المعروفة ..

حطوا فوقها صناديق تانية .. كان عددها قد صناديق
التمايل يجي مرتين أو ثلاثة .. كان جواها زيت عربيات
وشحم بتاع مكن .. كان ليها ريحه جامدة فواحة بهدف
التمويل ، بيقولوا إن "الكلاب البوليسية" بتتلخبط بين
روايج الممنوعات زى السلاح والمخدرات والأثار
وروايج المواد البترولية النفاذه ، وفي الوقت نفسه كان فيه
حديث داير بين ثلاثة "الشيخ وصاحب البيت والمشترى
وكان راجل شكلة غنى قوى " .. وبعدين قرب واحد
من رجاله المشترى وقاله إن الصناديق كلها إتحملت ..
فأمره إنه يجيب الشنط من عربيته الملاكي ..

جاب الرجل تلت شنط كبيرة من عربية "جيب سودا"
وحطهم قدام اللي قاعدين .. وقعد المشترى يوزعهم
لتلت أقسام ..

حط شنطة قدام صاحب البيت وكانت نصيبيه .. وشنطة
ثانية من نصيب الشيخ ، والثالثة كانت نصيب الوسطا ..
فتح صاحب البيت والشيخ مرسي شنطهم .. وكانت
مليانة ومرصوصة برمز العملة الصعبة .. أما الشنطة
الثالثة فأشرف على توزيعها الشيخ مرسي بنفسه
بالتساوي بينا " الوسطا " كل واحد بنصيبيه ..
وبعد شوية ركبت مع المشترى ورجالته في العربية " الجيب السودا " كدليل طريق لحد ما يوصلوا لأول الطريق الإقليمى ..

كانت عربيات النقل اللي شايلة الأثار سبقتنا بحوالى عشر
دقائق .. وركب بقية الوسطا في عربية ملاكي تانية " هيونداي " .. ومشيوا ورانا .. كان بين العربيتين مسافة
صغريرة .. أما الشيخ مرسي قرر إنه يمشى بعربيته لوحده
بعدين إلا إنه فضل عند البيت ومشيش ورانا .. مش
عارف ليه؟ ..

المهم اللي حصل بعد كده مكانش حد يتوقعه .. في أثناء ما
كنا ماشين بالعربيات عند مدق من المدقفات المطلة على

منطقة أبو بيللو .. وكان بين العربين " الجيب
والهيوندai " حوالى عشرة متر .. وقف عربية الهيوندai
اللى فيها الوسطا فجأة وقطعت طريقنا .. ونزل السوق
منها شايل سلاح ألى كان خافيه جنب كرسى السوق
وفتح النار على زمايله بعشوانية لحد ما قتلهم كلهم ..
مسابش واحد منهم عايش ..

حاول سوق العربية اللي كنت فيها أنا والمشترى ورجالته
إنه يفادي منطقة ضرب النار .. فليس بعنف فى صخرة
كبيرة وإنقلبت العربية بينما على جنبها الشمال بزاوية مع
عربة الوسطا والطريق ..

وجري السوق الخاين ناحيتنا بسلاحه وفتح النار علينا
بغباء مطرح ماتروح تروح .. ساعتها كنت إستخبيت فى
أرضية الكرسى اللي ورا " مقولكش عن الرعب اللي دب
في قلبي فجأة لما سمعت صوت ضرب النار العالى " ..
خدت حذرى .. كنت عارف من قبل كده إنه عادة
بتحصل خيانة للعهد فى العمليات المشبوهة اللي زى دى
ولحظى الحلو إترمى فوق ضهرى واحد من رجاله

المشتري بعد ما إتقلبت العربية على طول .. وخد رصاصة
في صدره ومات في الحال .. كان بالنسبة لي زي الدرع
واقى .. أما أنا ففضلت ساكت مابتحركت حاضن
شنطتي في هدوء وكإني ميت ..

في الوقت ده طل واحد من رجالة المشتري براشه من
العربية وفضل يزحف على الرمل شايل مسدسه ..
وضغط على الزناد بصعوبة بيحاويل يقاوم الألم الشديد
والنار اللي بتاكل في جوفه .. ضرب طلقة خرمت راس
السوق الخاين ..

فضلت على حالي شوية .. مستموت .. ولما حسيت إن
الجو هدى .. مش سامع لا صوت ولا حس حد فيهم ..
رفعت الجثة المرمية فوق ضهرى ورميتها على جنب ..
بصيت لقيت نفسى غرقان فى بحر من الدم .. فضلت
أزحف لحد ما خرجت من العربية المقلوبة .. وبعيد عنك
لقيت الحطة كلها ناس مقتولة .. محدثش نجوى من الحرب
دى .. ورغم كده نجيت أنا من غير خدش واحد ..

فضلت أجرى أجرى مرعوب .. أجرى وأقع .. وأقوم
وأقع وأسف الرمل .. لحد ما بعدت تماما عن منطقة
الخطر العaimة بالجثث والدم .. شايل شنطى على كتفى
.. وأهو أنا قدامك أهو .. حى يرزق بلطف الله ..

قال فتحى وقد إنتدى جبينه عرقا ..

- وده معقول ؟ ! .. أنا مش مصدق اللي بسمعه .. إنت
عرف إن ربنا نجاك من معركة كنت ميت فيها مفيش
كلام ؟ !

- الحمد لله .. ربنا سترها معايا ..

فأرجأ فتحى يحدق النظر فى وجهى لبرهه ..
ثم قال ..

- إنت فاهم اللي بتقوله ولا بتتغابى ؟ ..
- فيه إيه ؟ ..

فصرخ فى وجهى بعنة .. ضجرا يحتقن غيظا ..
- ودى مصيبة إيه دى اللي وقعتنا فى حباهدا دى .. يابيه إنت
غرقتنا لو دانا فى كل اللي حصل .. ووحلتنا مع الحكومة ..

مش هتفلت من إيديهم عمرك .. هتتسجن هتتسجن ..
وهتجر رجل معاك ..
فناهضته قبل أن يسفر سترى ..

- يخرب بيتك وطى صوتك .. هتودينا في داهية .. مفيش
غیرنا يعرف الموضوع ده ..

- عايز يفهمنى إن محدش شافك خالص ؟ ..

- أنا عارف إنك غبى وheetتبني معاك .. قلت لك هربت
بمجرد ما وقف ضرب النار .. وبعدين كنا في مكان
مهجور مفيهوش صريح إبن يومين .. يبقى مين
هيشوفى هناك ياناصح ؟ ..

- طب والشيخ مرسى ؟ ..

- معرفش .. ما سمعتش أى خبر عنه لحد دلوقتى

- أن خايف يكون هو الدليل اللي هيجر رجليك للجريمة

- ما أظنش .. هو متورط زينا .. وبعدين لو كان تخمينك في
 محله كانت الدنيا هتدور بسرعة ويتفضح سرنا .. كان
 زمانهم ظبطونا متلبسين بالجريمة .. إيه الحكمة من

سکااتهم لحد ما الحکایة تبقى على كل لسان ؟ .. فكر
شوية هتلaci کلامی صحيح ..
فإعتدل فتحى في جلسته مناظرالى ..

- طب قولى نصييك قد إيه من ورا العملية دي ؟ ..
فقلت متهدجا بالكلمات .. أتبطرق في زهو ..

- نص مليون دولار ..

كاد الرقم أن يضرب رأسه بالخبار .. حملق في وجهى وقد
تحجرت مقلتاه فاغرا فاه .. بينما أردفت مقالتى ..

- وديتهم عند سماح لحد ما تهدى نار الحکایة ..
فإهتاج فتحى في وجهى فجأة ..

- إيه اللي إنت عملته ده ؟ ! .. إنت على طول أهبل وعييط
كده .. مش خايف الفلوس تزيغ في عنি�ها وتطعم ؟ ..

- لا .. إطمن .. سماح متعملهاش ..

ثم سرحت لبرهة وقد إعتملت الريبة بصدرى .. مرددا ..

- ما أفتكرش .. تفتكر تقدر ؟ ! .. عندها الشجاعة يعني
تعملها ؟ ! ..

- وهو فيه غير كده .. حرص ولا تخون يا صاحبى .. دول
حرىم .. " وإنـتـ الـأـدـرـى .. جـبـائـلـ الشـيـطـانـ " .. وـمـكـنـ
يلعب بـدـمـاغـهـ .. الـخـلاـصـةـ وـدىـ فـلـوـسـكـ الـبـنـكـ ..
أـرـدـفـتـهـ مـسـتـهـجـنـا ..

- بنـكـ ؟ ! .. إـنـتـ بـتـهـذـرـ ؟ ! .. أـكـيدـ بـتـهـذـرـ ! .. الـبـنـكـ يـافـالـحـ
هيـخـلـيـنـىـ مـحـطـ أـنـظـارـ الـقـرـيـبـ وـالـبعـيدـ .. مـنـ أـينـ لـكـ هـذـاـ
وـخـدـ عـنـدـكـ بـقـىـ وـجـعـ قـلـبـ مـيـتـهـيـشـ .. لـاـ طـبـعـاـ مـيـنـفـعـشـ
.. هـخـلـيـهـمـ مـكـانـهـمـ لـحـدـ أـمـاـ أـلـاقـىـ لـهـمـ مـتـوىـ .. هـىـ أـصـلـاـ
مـتـعـرـفـشـ الشـنـطـةـ فـيـهـاـ إـيـهـ ..
ضـحـكـ فـتـحـىـ ضـحـكـةـ سـخـرـيـةـ ..

- يـاسـلـامـ ! .. دـىـ زـمـانـهـاـ فـتـحـتـهـاـ وـمـتـعـتـ عـنـهـاـ .. وـبـدـأـتـ
تـصـرـفـ يـمـينـ وـشـمـالـ ..

- نـيـتـكـ دـيـاـ سـوـءـ .. إـنـتـ هـتـخـوـفـنـىـ لـيـهـ ؟ ..
- مـفـيـشـ مـانـعـ بـيـنـكـ وـبـيـنـ فـلـوـسـكـ .. رـوـحـلـهـ وـهـتـأـكـدـ
بـنـفـسـكـ ..

- سـيـبـكـ مـنـ دـهـ كـلـهـ .. مـشـ دـهـ المـهـمـ دـلـوقـتـىـ ..
- أـمـالـ إـيـهـ المـهـمـ يـافـالـحـ ؟ ..

- أنا إكتشفت سر أثناء وجودي معاهم جوه في المقبرة ..
سر خطير جدا ..
- سر ؟ ! .. سر إيه ده ؟ ..
- وإننا بنلف جوه المقبرة .. الشيخ مرسي قال إن مقابر الكهنة فيها كنوز أكثر من اللي لقينها .. ولا بد إن فيه فراغ تانى فيه تماثيل قد دى يجى ميت مرة .. وكمان لقينا أكثر من دليل جوه مقبرة الكاهن على مقبرة تانية قريبة ..
وممكن يكون جنب من جانب المقبرة اللي إكتشفناها جدار فيها
- نظرنى فتحى مستنكرا ومستوضحا فى آن ..
- ودى نوصلها إزاي ؟ .. بتفكر فى إيه بالظبط ؟ ..
- هقولك وركز معايا .. وأنا تحت فى القبر .. إعترت رجلى فى بروز حجرى وإننا نازلين على السلم .. كان البروز شكله ملفت شبه بباب المقبرة بالظبط .. عباره عن كتلة حجرية مربعة .. أنا متأكد إن هو ده باب المقبرة الثانية المطلوبة ..

وأخرجت هاتفي المحمول .. وجعلت أريه تلك اللقطات التي تم تصويرها من داخل المقبرة .. ويتبين بها جلياً تلك العثرة التي يظن أنها مدخل آخر ..
وواجهته قائلاً ..

- إنت مش شايف إن الحجر ده مش ماشى مع السلم ..
قصدى مش شكل التدرج بتاع درجات السلم .. ده حتى
بارز عنها وواحد مساحة زيادة بشكل ملفت .. "متهيألى
الفراعنة ميوقعوش فى غلطة زى دى وهمـا المعروف عنهم
الدقة المتناهية" .. ومحـن يمكن يكون اللي بقولك عليه صح ..
مدخل لمـقبرة تانية ..

- مش عارف .. متـهيـألى كده برضـه ..
- لأ .. ده باين زى عـين الشـمـس .. ما تفتح عـنـيك كـويـس ..
أـهـوـ باـيـنـ قدـامـكـ أـهـو ..

- طـبـ يـاعـمـ بـراـحةـ شـويـه .. قـولـى ، هوـ فيهـ حدـ غيرـكـ شـافـهـ ؟
- يـاصـاحـبـيـ المـجزـرـةـ خـلـيـتـشـ حدـ .. وـلوـ كانـ فيهـ حدـ شـافـهـ
فـهـوـ دـلـوقـتـيـ مـيـتـ .. لـكـنـ ..
- لـكـنـ إـيهـ ؟ ..

- لكن مفيش غير الشيخ هو اللي لسة عايش ..

- ومفيش خوف أصلاً غير من الشيخ ده .. متعرش هو
شاف الباب ده ولا لا .. إفتكر ..

- فـ الحقيقة أنا مش متأكد .. لكن بخمن إنه لازم يكون
على علم بيـه .. ما هو مش معقولـة أنا هاخد بالـي منه وهو
لـأ .. إنـما أكـثر حاجة مخـوفـانـي إنه مجاـبـش سـيرـته خـالـص ..
معـنى كـده إنـ في نـيـته حاجـة .. وـخـصـوصـا والـلي بـيـأـكـد
كلـامـي دـه .. إـنـه مـعـشـيش مـعـانا وـفـضـلـ معـ صـاحـبـ الـبيـت

- طب وناوی علی ایه دلوقتی؟ ..

و قبل أن أتم جملتي لمحت بركات وألمونيا قادمان من بعيد عند
الباب الأمامي للمقهى .. فقللت في خلسة ..

- سيبك من الحكاية دي دلوقتى .. البغلين جاين أهـ .. أنا همشى .. مش طايق أسمع رغبـهم الفاضـى ..

وذلكت خفية من الباب الخلفى .. بينما تقدم بركات وألمونيا وإنكبا على المقاعد .. وأعينهما صوب ذات الجهة التى غادرت منها .. وقال ألمونيا مستوضحا ومتطفلا كعادته ..

- صاحبك هرب ليه كده زى الحرامية ؟ ..

أجابه فتحى ليسكت هو اجسسه ..

- وراه شغل ..

أمتع ألمونيا عيناه تحديقا في ذات الاتجاه .. ينظرنى في ريبة مرددا
في دهش وقد رتعتطنون برأسه ..

- وراه شغل ؟ ! .. أه ..

"٥"

فِي جَوْفِ الْبَلْدَةِ الْقَدِيمَةِ .. كُنْتُ أَتْرَجُلُ مَاشِيَا أَغْوَصُ فِي حَشاها
الْمُتَشَابِكِ .. إِلَى أَنْ دَلَّفْتُ مِنْ نَاصِيَةِ الْحَارَةِ التِّي تَتوَطَّنُ بِهَا سَمَاحُ
.. كَانَتْ غَاصَّةً بِالْأَطْفَالِ الْلَّاهِيِنَ فِي جَنْبَاتِهَا وَعُمقَهَا وَصُوبُ
كُلِّ اِتْجَاهٍ .. وَشَمَةً إِبْتَهَا بَيْنَهُمْ .. مَا إِنْ رَأَتِنِي الطَّفْلَةُ حَتَّى إِنْفَلَتْ
مِنْ قِيَادِ جَمْعِهِمْ وَإِرْتَمَتْ بَيْنَ ذَرَاعَيِ الْمُبْسُوطَانِ .. " تَذَكَّرْنِي
بِأَخْيِ الصَّغِيرِ وَنَحْوِهِ لِذَاتِ الْفَعْلِ " .. حَمَلْتُهَا فِي حَنْوِ مَقْبِلًا
وَمَدَاعِبًا .. وَنَفَحْتُهَا قَطْعَةً فَضْيَةً أَحَدَثَهَا ..

- أَمْكَ فِينِ؟ ..

- جَوْهُ ..

أَنْزَلْتُهَا بِرَفْقٍ وَتَوَجَّهْتُ رَأْسَا شَطَرَ الْبَابِ بَيْنَمَا هَجَعَتِ الطَّفْلَةُ
وَإِنْدَسَتِ فِي الْعَجَيْجِ الْلَّاهِيِ .. قَبْلَ عَدَةِ طَرْقَاتِ خَفِيْضَةِ ..
كَانَتْ سَمَاحٌ مَاثِلَةً أَمَامِي بِوْجَهِ عَبُوسِ مَكْفَهِرِ .. وَمَا لَبَثَتْ أَنْ
رَأَتِنِي حَتَّى تَرَكَتْنِي خَالِيَا عَلَى عَتَبَاتِ الْبَابِ .. وَإِنْذَوْتُ إِلَى
جَوْفِ الدَّارِ ..

وَلَجَتْ خَلْفَهَا أَنَادِيهَا .. وَلَكِنْ دُونْ مُجِيبٍ .. شَعَرْتُ أَنَّهُ لَا رِيبٌ
أَنَّ الْخَطْبَ جَلْلَ .. طَالَعْتُنِي أَمْهَا بِصَالَةِ الْبَيْتِ .. " عَجُوزٌ كَفِيفَةٌ

هرمة" .. كانت تفترش حصير متواضعة "من أعواد السمار" ..
عرفتني من صوتي .. رحبت بها لا أحفل بوجودها ..

- إزيك يا خالتى؟ ..

- بخير يابنى .. مصطفى؟ ..

- أيةة ياخالتى ..

- عامل إيه يابنى؟ .. تعالى هنا أقعد جنبى ..

لكنى تركتها وأكملت مسیرى اختلاسا .. أتبع سماح الى غرفة
نومها .. لاستطلع الأمر .. كانت تجلس على مهادها مبهوتة
مفعمه بالغضب .. تزفر سخطا وضيقا .. جلست في جوارها
دهش من سوء إستقباها ..

- إيه يابنتى .. مالك؟ ..

- إنت بتتمسخر بي؟ .. إيه اللي رجعك لعادتك القديمة
تاني؟ .. عادتك الوسخة ..

- احفظى أدبك ونقى كلامك .. عادة إيه أنا مش فاهم
حاجة؟ ..

- مين دى اللي كانت راكبة معاك إنت وفتحى من يومين؟ ..
.. وأنا مش حذرتك متمشيش مع اللي إسمه ألمونيا ده؟ ..

وجالت ذاكرتها " سريعا كالبرق " كم كان ذاك الوضيع ..
صديقًا لزوجها المتوفى .. وأنه كان علة تلك الزبحة المشئومة ..
وإرتسم أمام ناظريها شبحه وهو يقدمه لأبيها على أنه زوجا
صالحا .. وبمرور الأيام يتضح تحايله على الحقيقة وإنجلی عکس
ما إدعى .. فدفعت هي الثمن باهظا وعانت أشد معاناة جراء
ذاك الارتباط المقيت .. إلى أن رحمة الله بموته ..
قطعت سرحتها القصيرة .. أجيبي سؤالها ..

- أقسم بالله أنا ماليش أى علاقة بيها .. دى واحدة شهال
من اللي يعرفهم ألمونيا .. قبلناها بالصدفة .. ثم تعالى هنا
إنتمى عرفتى إزاى بالحكاية دى ؟ ..
- شوفتكو بعينى في العربية ..
" هنا فضلت أنا كنا تحت أعينها في ذات السيارة التي جمعتنا
بالفتاه " .. فتداركتها مناهضا ..

- سيبك من التخاريف دى .. فين الشنطة ؟ ..
- شنطة إيه .. ده لما تشف حلمة ودنك .. إنت وقعت في
إيدى .. وبإيدى هظبطك .. ولعلمك أنا شوفت كل اللي
فيها ..

- كده برضه .. بالسهولة دى أهون عليكى .. ده كله ليكى
ياعبيطة ..
- ماتسرحش بيا .. مش هتقدر تلعب بقلبي تانى .. أنا
فاض كيلى منك ومن عمايلك ..
- سيبك بقا من الكلام ده كله .. لازم تخبى الشنطة في مكان
أمان .. بعيد عن الأنظار ..
- وإيه اللي بإيدى أعمله ؟ ..
- خطيها في متوى متدارى .. حتى لو هتدعنيها تحت التراب
.. المهم إتصرف إنتي هتعلبى ..
- ولسه .. إنت شوفت حاجة .. أنا مش قولتلك تبعد عن
الطريق ده ؟ ورينى بقا ياشاطر هتواجعه مصايبه إزاي ؟ ..
- معلش خليكى واقفة جانبى ..
- ماشى ياآخر قدرى .. أما نشوف آخرتها ..
- آخرتها خير إن شاء الله .. وأحب أبشرك فيه رزق تانى
واسع وفايض داخلين عليه ..

- تانى ؟ ! .. هتلعب بالنار تانى يامصطفى .. إنت مش
مكفيك اللي حصل عشان تدخلنا في مخاطرة تانية .. أنا
إحთار دليلي معاك ونفدي صبرى منك ..

- إهدى شوية بس .. مش تعرف هي إيه الأول .. ولا
بتولولي مقدما ..

- قول يا عندليب .. عارفة آخرتها هزورك بعيش وحلوة
.. ده إن جرتش رجل معاك ..

- تفى من بقك يا شيخة .. إسمعى بس اللي هقولوك
وبعدين أحكمى ..

ورحت أقص عليها ما حدث .. وأطلعتها على أمر باب المقبرة
الإضافية .. فإندھشت كثيرا مما سمعت .. إلا أنها لم تبد حماسا لما
أرנו إليه .. فتغاضيت عن ردة فعلها الفاترة وأكملت حديثي ..

- بس أكثر حاجة مخواني إن الشیخ مرسي ميضيعش وقت
ويسعى لفتح الباب الإضافي .. ده إن مكانش فعلاً إتفق
مع صاحب البيت إنهم يفتحوه ..

- خايفة عليك يامصطفى من أخرة الحکایة دي .. واللي
هتجره عليك .. الناس دي مبتهزرش ..

- إجمدى .. ربنا مش هيضيعنا إن شاء الله .. المهم تاخدى

بالك من الشنطة اللي معاكى ..

فجمحت سماح في دلال مصطنع .. تحاول إستجداه مشاعرى ..

- شنطة؟! .. إنت خايف على فلوسك أكتر مني .. بوريه

منك! ..

فأمسكت بيديها تناظر عيناي عينيها .. أهمس بنظرات مخدورة ..

- وأنا عندي أغلى منك أخاف عليه .. ياحبيبتي إنتي مش

عارفة إنك إنتي اللي مقويانى ومديانى الشجاعة ..

ووقفتك جنبي هى اللي خليانى صابر على الدنيا ومرارها

.. بعد ده كله تقوليلى أخاف على حاجة غيرك .. ده أنا

يبقى معنديش دم ومستهلاش النفس اللي بتنفسه ..

نظرتني وقد ذابت أساريرى في بحور مرآها .. تقول في ترح

وشجن ..

- أقسم بالله من ساعة ما عزلتوا من جنبنا والبلد بقت رحمة

وملهاش معنى .. نفسى في يوم من أيام زمان لما كنت

بصحى أشوفك قبل ما أشوف الشمس .. كانت الدنيا

كلها بتضحكلى وبتئور في عينى .. وبتئور حياتى كلها ..

ورغم إنى إتحوزت بعدها بس عمرك ما غبت عنى ..
كنت ديمها فى خيالى .. شاييفاك فى جوزى ومش شاييفاه ..
ولا حساه .. كنت حاسة بس بحنانك وحبك .. بيجروا
فى دمى وف قلبي .. كان كلامك ديمها بيهمس فى ودنى ..
وأقول لروحى ياريتك إنت اللي كنت جوزى ..
ودلوقتى بسائل نفسى ..

إيه حجته ؟ .. مستنى إيه ؟ .. جوزى ومات .. لإمتى
هنفضل بعداد كده ؟ ..
فإنفرجت ملامحى دهشة ..

- بعاد إيه اللي بتتكلمى عليه .. ما كل يوم بشوفك
وبتشوفينى ..

فأطربت فى آسى .. ثم قالت ..

- مش كفاية .. لما كنتم جنبنا مكتنش خايفه .. كنت عارفة
إنه لو حصل حاجة .. أول إيد هتلمسنى هى إيدك ..
وأول صورة هشوفها صورتك .. إنما دلوقتى أستحمل
إزاي حد غريب يلمسى .. وخصوصا فى ظروفى دى ..
الناس مابتبطلش كلام ..

نظرت إليها مبتسمـا ..

- مكتش عارف إني غالى عندك كدة ..

فقط بـ حاجـيـها وـ اـيـسـمـتـ مـبـهـوـةـ ..

- وأهو إنت " كتر خيرك " بتجازيني أحسن جزاء ..

سايني زى البت وقف .. زى القارب اللي ملوش

العيّب .. عداؤه راحه بصري ..

فأمسكت يديها في حنو ..

- یابنتی إفہمی ..

نزرعت يديها .. وأدارات لى ظهرها تقول متملمة ..

- ماتقوليش يابنتي تانی .. كرهت الكلمة دي .. ماها

حبيبي؟ .. تقيلة على لسانك؟ ..

فنظرت إليها في دهشة ..

- أنا مش عارف جيتي الجراءة دي منين؟ ..

لَوْتٌ عَنْهَا .. تَرْمِقُنِي بِلَحْاظِ عَيْنِهَا فِي دَلَالٍ ..

- وجودك هو اللي مجرأني .. ولا دي كمان مستخسرها فيا ..

رست پدی علی كتفها .. أحاول أن أكشف وجهها الخافى في

الجهة الأخرى .. قلت مازحاً وملاطفاً ..

- قد كده إنتي واثقة فيا .. ياموزتى ؟ ..

فتلقت مزحتى بمزاج سى .. إستدارت تخدشنى في استياء

- موزتك ؟ ! .. إنت مش هتبطل مكايدة فيا ؟ ..

- إنتى زعلتى ؟ .. أنا بهزر ..

- إنت عارف إنى بكره الكلام ده ..

وسكتت لبرهة ثم ثارت دون داع ..

- نفسى تقولى إنت شايقنى إيه بالظبط ؟ .. بتجيلى كل ليلة
ليه ؟ .. بتحبلى زى مابحبك ؟ .. ولا أنا بالنسبة لك
واحدة بتسللى بيهَا وخلاص ؟ ..

إنفلت مبتعدا عن ناظريها .. منتصبا على بعد خطوتين محتاجا ..

- الله يسامحك .. بقا أنا مستحمل المرار ده كله .. وبخاطر
 بحياتى عشان أكون جدير بيكي .. وإنتى لستة مش واثقة
فيا ؟ ! .. نفسى تقدرى وتفهمى أنا بعمل إيه عشان
خاطرك ..

رمقت شبھي الواقف .. تحملق في إستنكار ..

- أفهم إيه ؟ ..

فقبضت ثائرى وند صدرى زفيرا قصيرا هادئا .. ثم ربضت إلى
جوارها .. أتلمس يدها وأستجدى تفهمها ..

- تفهمى إنك إنتى المستقبل اللي ضييعت زهرة شبابى
علشان أحقيقه .. كل الناس تعرف إنى أجلت دراستى
علشان مصاريف الكلية .. لكن الحقيقة مش كدة ..
الحقيقة إنى مكتنثش قادر أمسك قلم ولا كتاب وأنا
عارف إنك فى حضن غيرى .. عشت مستنى الفرصة
علشان أردك ليَا تانى .. هتصدقى لو قولتلك إنى كنت
بطير من الفرحة لما كنت بعرف إنك سيبتى بيت جوزك
غضبانة .. كنت بحس إن الميعاد اللي هنتجمع فيه تحت
سقف واحد قرب .. لكن من غير فايدة .. كل ما أبني
أمل كان يتهدى فوق راسى ..

مالت برأسها تحدق في وجهى المطرق ..

- ودلوقتى .. إيه اللي منعك ؟ .. الفرصة جاتتك سهلة
وتحت رجليك ؟ .. مستنى إيه ؟ ! .. مستنى لما يخلص
عمرنا ونبقى مش قادرين لا نسمع ولا نشوف بعض ..
يا مصطفى العمر بيعدى .. وأنا متبدلة من الوحدة شوية

ومن كلام الناس شوية ومن رخامة صيع البلد شوية ..
نفسى يكoon لى راجل يجمينى ويحمى بتى .. ياحببى
عايزك راجلى .. ويكون لى منك عيل .. أفهمك إزاى
بس؟ ..

رفعت هامتى .. مقتربا منها ..

- بالله عليكى إصبرى شوية .. خلاص قربنا .. المقبرة الثانية ..
دى هييجينا من وراها الخير الكبير .. هيكتفينا ويفيض ..
هيعيشنا بكرامة من غير ما نحتاج لحد ..
انكمشت أساريرها فى قنوط ..

- الله يسامحك .. ده اللي معانا يعيشنا ملوك لحد أما نموت ..
أنا اللي عملت فى نفسى كدة .. سكت لحد ما شوفتني ..
لعبة وحلية فى عنريك .. ولسة مشبعتش ..

ثم تذمرت وانتصبت واقفة .. وقد حاق بها ضيقا وضجرا

- أنا خارجة قبل أمى ما تلاحظ غيابنا .. أنا مش ناقصة ..
فضايم ..

وتركتنى خالى الوفاين .. جالسا على مهادها .. مطأطاً الرأس ..
مطرقاً أرمق الأرض مريجا بالحيرة والقنوط ..

.....

عدت إلى منزلي ليلاً "زهاء الحادية عشر مساءاً" .. كان فتحى قد رافقنى الطريق إلى أن شارفنا الساحة أمام البيت لما قد رأه في مسحتى من ترح وأسى .. سار معى يحاول التخفيف عنى .. إلا أنه أبى الدخول وأثر العودة إلى بيته متوججاً بأن الوقت قد تأخر .. بيد أنه في حقيقة الأمر كان يهاب مواجهة أبي لما يعلمه من كنة موقفه المتعسف تجاهه .. فودعته ووقفت أرافقه حتى غادر ناصية الشارع ..

فتحت الباب في هدوء .. "كنت غير مفيق وفي حل من ذات المواجهة" .. كان الصمت والحمدود يسودان البيت .. تحركت متخففاً بخطوات رهيبة .. لأجد أبي نائماً على مقعده المتحرك بصالة البيت .. مطيناً ذراعيه حول جسد أخي الصغير النائم بأحضانه ..

أثار المشهد مشاعرى .. وتهزهز له قلبي .. وشعرت حراً كما مؤلماً وتأنيباً موجعاً يعتمل في صدرى .. فتقدمت ممسكاً بساعد أخي محاولاً إفلات قبضة أبي عليه برفق .. وما إن أحس أبي الخواء بين دفتيه وحركة جسم أخي وأنا أحمله .. حتى إستفاق فرعاً

مذعورا ممسكا بذراعه .. فإنحنىت برأسى أقبل هامته .. فرفع
راحته اليمنى وإستشعرت دفتها وهو يربت على وجنتى بنعومة
حملت أخى بهدوء إلى غرفة النوم .. وأرقدته في مهاده ودثرته
بغطاءه ثم لثمت وجنته في حنو وحبية .. ثم خرجت لأبى أقوده
إلى ذات الغرفة .. تساند بين ذراعاى وإستقر مستلقيا بجوار أخي
.. جررت مقعدا وجلست قبالة وجهه الشاحب المتهلل ..
أحدثه بصوت هامس خفيض النبرة ..

- ساخنى يابا على اللي قولته الصبح .. الأيام دى أنا تعبان
ومتلخط قوى .. ومامعدتش قادر أسيطر على نفسى ..
يارب تفهمنى وتعذرنى ..

- أنا مش زعلان منك .. أنا خايف الدنيا تغدر بيك .. يابنى
عضيمك لسة طرى مش هتتحمل .. عايزك تفوق بعد
فوات الأولان .. والدنيا مش هتستنى عليا كتير .. خايف
أموت وإنك لستة على حالك ..

- هانت يابا .. مبقاش إلا القليل .. قريب هنرناح كلنا بعد
سنين الفقر والعوزة .. كل اللي عايزه منك تبقى في
ضهرى وتساندى .. وتفتكرنى في دعواتك ..

- ربنا ييسرك أمرك ويسلوك طريقك .. خد بالك يابنى
.. ماعدىش لينا غيرك بعد ربنا .. متوجعنيش فيك .. قلبي
داب من الألم والحسرة ..

- ربنا ما يجعلك قلب .. إطمئن يابا .. أنا واخد بالى من
كل خطوة بخطيها .. كل اللي بعمله عشان راحتك ..
عشان أعوضك سنين الشقى والعذاب .. وأضمن
لأخويا مستقبل يكفيه حوجة الدنيا وغدرها ..
- الضامن هو ربنا يابنى .. قادر يساعدك ويحقق لك اللي
بتتمناه ..

رفعت يده وقبلتها ثم ودعته لينام .. وخرجت إلى الصالة
وإنظرت على إحدى الأرائك .. وما هي إلا دقائق زهيدة
أمضيتها أحدق في السقف حتى غصت في نوم عميق منهوكا
مرهقا ..

كان بركات وفتحى وألونيا ماكثين بالمقهى .. وثمة حديث دائم
حولى .. ويبدو على قسمات فتحى علامات الإحتجاج والتذمر ..
إذ سمع ألونيا يقول ..

- ملوش فى الحرير ياعم .. وشه يتقمّر عليه العيش ..
مكشر على طول وكلامه ناشف .. بالبلدى كده
ما بيعرفش يزوق الكلام ..

فإنفجر فتحى محظيا .. عندما وجدتهم قد إستفاضوا في وصمى
ورشقى ..

- وهو شغلك ليه كده ؟ .. ياريت تخليك في حالك ..
وتسبيب مصطفى في حاله ..

في ذاك الحين .. تقدم شخص ما في طور العشرين من ألونيا ..
فباغته الثاني بدوره وإنزعه من الحضور قبل حتى أن يتم تحيته ..
"مبعدا" .. وما إن توطنا على مسافة من مجلسهم .. قال ألونيا
بصوت خافت مختلس ..

- إيه الأخبار ؟ .. جبت الأمانة ..
رد الرجل مبشرا ..

- أية جبتها .. مخبيها في الجاكتة .. تشووفها ؟ ..
فقبض ألمونيا على يده بقوة .. قائلا ..

- إنت هتسريح .. خليها في مكانها ..

تلفت الرجل حوله .. وإتجه بناظره يستوثق من المحط الذى كان
يجلس فيه ألمونيا .. قائلا ..

- أمال فين الراجل اللي هيشرها ؟ ..

أماء ألمونيا برأسه ولاحظ عينه مشيرا صوب موقف السيارات ..

- في مدينة السادات .. هنروح له دلوقتى ..
أصاب الرجل ذakra مدهوشًا ..

- السادات ؟! ودى هنروحها إزاي بالمصيبة دى ؟!

أمسك ألمونيا بساعده "يجذبه" ثم حرر ره متقدمًا دون إكتراث ..

- ملكش دعوة أنا هتصرف .. تعالى بس ورايا .. على
مسئوليتي ..

ثم سار إلى حيث تنتشر السيارات الهاجعة صوب مدينة السادات ..
يتبعه الرجل تتشاكل قدماه .. وبعيداً يرمقهما بركات .. يتأمل
ذاك الذي رحل بغتة دون سابق إنذار أو إبداء أية اعتذار أو إذن ..

.....

الكثير من العساكر المسلمين كانوا قد إنتشروا بساحة منطقة الكمين .. تلك النقطة الشاطرة لطريق مدينة السادات الاقليمى .. وقد دنا أحد أمناء الشرطة ليستوقف السيارة التى يستقلها ألونيا ورفيقه ..

مر أمين الشرطة على نوافذ السيارة تباعاً متحرياً الراكبين .. إلى أن توقف ناظره بعثة عند ألونيا ومحمد .. فأمرهما بإشهار بطاقات تحقيق الشخصية .. وطفق يتفحص وجهيهما ثم إستدعاهما للنزول قسراً "فلو رأيتهما لإرتبت في أمرهما .. وطريقة اطلاق نظراتها" ..

.....

إقتيد ألونيا ورفيقه وبسبعة شباب آخرين إلى مركز شرطة السادات .. وفي غرفة رئيس المباحث .. إنتصبت جماعتهم وقوف بين يدي الضابط ممدوح .. بينما كان الأخير على مكتبه يكبس زر الإستدعاء "أمامه" ..

ما هي إلا هنيئة .. تسمع طرقات الباب ثم يلتج أحد العساكر إلى الغرفة قائلاً ..

- أوامر سيادتك ..

أو ما له الضابط ..

- مشى العيال دى .. وسيب الإتنين دول ..

مشيرا إلى ألمونيا ومحمد ..

إقتاد العسكري "المأمور باصطحابهم" إلى خارج الغرفة .. بينما ترجل الضابط عدة خطوات مقتربا من ألمونيا بينما يوجه نظره ناحية محمد .. ولكرز الأول في صدره بقوة قائلا ..

- خليك إنت على جنب .. حسابك بعدين ..

ثم جلس على أحد المقاعد الأمامية للمكتب موجها حديثه إلى محمد ..

- إسمك إيه ياله ؟ ..

رد الرجل في نبرة متهدجة .. تنم عن توتر شديد ..

- إسمى محمد .. حضرتك ..

قبض الضابط براحته على تمثال أثري صغير .. كان متتصبا على سطح مكتبه يقول ..

- جبت الحتة دى منين ؟ ..

أجاب الرجل وجلا ترتعد فرائصه ..

- لقيتها مدفونة في الرمل وأنا بردم بيتي ..

- إنت مش عارف إن الحته دى كفيلة تحبسك أكثر من
خمسة سنين؟ ..

فإستعتبرت عينا الرجل .. وإنخرط في بكاء "مباغت" مستجدية
الضابط ..

- أقسم بالله دى المرة الأولى والأخيرة .. إرحمنى ياباشا أنا
عندي عيال .. ألمونيا هو اللي حرضنى .. قالى الحته دى
 غالية وهتنقذنى من الفقر .. وإن عنده تاجر هيشتريها ..
 والله العظيم هو ده اللي حصل .. لا أكثر ولا أقل .. والله
 ياباشا دى أول مرة أعملها .. أنا اللي غلطان إنى مشيت
 وراه .. وأستاهل ضرب البلع على دماغى ..

رمق الضابط بنظره ثاقبة ..

- إنت سوابق ياله؟ ..

أفرد الرجل راحتية عموديا يهز هزهما يمنة ويسرة ، مجينا بالنفي ..
 - لا والله ياباشا دى أول مرة ..

رمق الضابط التمثال لبرهة .. ثم رفع ناظره إلى الرجل " تراه
 يحرك طرف بناته برأس التمثال يتلاعب به كدمية "
 - ومسلمتش الحته دى ليه للحكومة لما لقيتها؟ ..

أجاب الرجل بغباء مستعار ..

- مكتتش أعرف بتسلّم فين .. وبعدين كنت خايف
سعادتك ..

صاحب الضابط مستنكرًا ساخطا ..

- سمعني بتقول إيه ؟ .. مكتتش تعرف ؟ .. إنت بتهرز
يابن ال " الشـ...." ..

وقام الضابط مدوح .. " على حين غرة " .. وصفعه بقوة
فإنبعثت الدماء منثالة من أنفه وفيه .. وهو منظرًا على
الأرض .. فتناهض راكعا بين قدمي الضابط يلشم حذاءه

- والنبي ياباشا سيبيني أروح .. أبوس رجليك إرحمنى ..
إستدار الضابط وترجل خطوتين .. جالسا بنصف جسله على
حافة المكتب .. ثم أشار بإصبعه إلى ورقة ما في جواره
- قوم ياروح أملك إمضى على المحضر .. أنا هعرفك إزاي
مكتتش تعرف ..

تساند الرجل واقفا وإنحنى برأسه يرمي صحفة المحضر .. ومن
بين كلماته وسرده وقعت عيناه على عباره " قطعة مقلدة " ..
فرفع ناظره يحملق في وجه الضابط ثم أرسله إلى ألمونيا الرابض

خلفه .. فجاءه طلاتها المفتعلة .. ويبدو أن الرجل لم تنطلي عليه الحيلة التي حيكت لإيقاعه بين براثنهم .. فمن فرط تركيعها لم تعد تخفي على طفل يحبو .. إلا أنه وقف عاجزا .. زهيد الحيلة في ساحتهم .. فلم يملك إلا أن يذعن لقوانين ذاك السجال القدر .. الاحتياطي .. وأن يخطو منصاعا خطوه الروتيني الفاتر الرتيب .. متقمضا دور الشاة السيغة بين مخالب ذئب فتى متحذلق لا يملك ناصية الخطاب ولا أفنان الكلام .. فصاح الرجل بصوت مصطنع أشبه بنيق الغراب يرتجي إنفكاكا ..

- ياباشا والله ما هعمل كده تانى .. إعتقدنى لوجه الله عشان خاطر عيالى .. هيتشردوا في الشوارع من بعدى .. ربنا يعلى مقامك إرحم ذاتى ..

إنتصب الضابط في هدوء ورزانة وأطلقه ضربة عنيفة بظاهر قدمه .. لوّحت وجهه فالتصدق الرجل بعنف بملاط الغرفة .. إختل توازنه وأحس أن الأرض تدور به .. بيده أنه ما إنفك أن إستفاق لنفسه فتحامل راكعا يردد إستجدااته .. حتى بادره الضابط مبرزا صحفة أخرى .. يحركها بطرف إصبعه .. "إذ

كانت واطنة أسفل ورقة المحضر .. بيد أن الصحفتان تحملان نفس الصيغة .. كانت فقط محض حيلة مراوغة ..

- يعني إتعلمت الدرس ومش هتعمل كده تاني ..

- إتعلمته ياباشا .. والله العظيم إتعلمته ..

- خلاص تعالي إمضى على المحضر الثاني .. هنقول لقينا

معاك حته متقلدة .. ولا نقول لقيناك متلبس بالختة

الأصلية دة ؟ .. وترحل على النيابة المسائية

هنا تأكد حدس الرجل .. إنها محض خديعة .. ولكن لا ضيم أن يكمل اللعبة إلى آخر مطافها .. حتى لا يرتاب الضابط

.. ولينعتق من قبضته الفاشية .. رفع هامته تطفر عيناه دموع التهسيح وقال لاهثا متازفا ..

- لا ياباشا همضى على المحضر الثاني .. ربنا يكرم أصلك

ويعلن مقامك ..

ووقع محمد على محضر القطعة المقلدة تدفعه خيبة الأمل

ويعدغدغه الإنكسار .. بينما أمر الضابط بإخلاء سبيله في الحال

وصرفه من ساحة مركز الشرطة ..

وما إن خلت الغرفة حتى توجه الضابط بناظره إلى ألمونيا
مستوًثقا ..

- إنت متأكد إن الحلة دى سليمة؟ ..

أرسل ألمونيا بصره إلى التمثال ثم إقترب يرمي الضابط ..

- إلا متأكد ياباشا .. دى أصل الأصل .. وبعدين ده
موضوع ميخفاش على سعادتك برضه؟ .. ياباشا دى
متقدرش بتمن .. وأنا رهن الإشارة سعادتك ..

حدجه الضابط بنظرة حادة جداً صارمة ..

- لأخر مرة بحدرك .. بلاش تلون في الكلام .. لأنه
مبيجييش همه معايا ..

ثم أمسك الضابط بالقطعة وطبق يتحرّاها .. ثم وضعها على
سطح مكتبه .. وترجل عدة خطوات إلى مقعده .. فتح درج
مكتبه وأخرج رزمة مكتنزة من النقود وألقاها في وجه ألمونيا ..
ثم تلفت إلى التليفون على مكتبه اثر سماع دويه .. ورفع المسماع ..

- ألو ..

- عملت إيه؟ ..

- سيادتك مبقاش إلا القليل ونوصل للشخص المقصود ..

- لازم تجيئه فى أقرب فرصة .. القيادة
العليا مستاءة جدا .. ودول زعلهم وحش ..
مفيش مخرج من الورطة دي غير إنك تلاقيه ..
لصلحتك ومصلحتى ..
- وأنهى الضابط محادثته قائلا ..
- هبذل أقصى ما بوسعى .. وهجبيه لسيادتك قبل يومين
من دلوقتى ..
- ووضع الضابط المسماع فى محطة ثم إلتفت إلى ألمونيا هائجا
- الله يخرب بيوتكم هتخربوا بيته .. فين يا حيون الواد اللي
أمرتك بالتحرى عنه ؟ ..
- أجاب ألمونيا فى وجى ..
- ياباشا معنديش معلومات كافية عنه .. وبلدنا كبيرة فيها
أكثر من يجي ميت نفر مشتبه فى تورطهم فى تجارة الأثار
أمعن الضابط النظر فى وجهه ..
- وفين مصادرك يابيه ؟ ..
- بزغت من عينى ألمونيا نظرة ذات مغزى .. فقال مستدرجا
- هو مش الواد ده ياباشا نفسه اللي هرب من مجزرة المقابر ؟

فأوْمَا الضابط إِلَيْه بطرف بنانه .. محذرا ..

- مش شغلك .. ويarity تشغل دماغك في التدوير عليه ..
بدل متشغلها عليا .. نفذ اللي بأمرك بييه وبس .. ولا
نفسك ترجع تلحس تراب السجن من تاني ؟ ..
فإنكب المونيا مطأطئ الرأس ..

- لاإ .. أنا في عرض سعادتك .. اللي تؤمر بييه ياباشا
أشاح له الضابط بيده ..

- خلاص غور من وشى .. ويتجيني بييه أو بأخبار عنه ..
وإلا المحاضر القديمة لستة موجودة .. فاكرها ولا أفكرك
- فاكرها سعادتك .. ملوش لازمة ياباشا .. بعد إذن
جنابك ..

وخرج المونيا وأوصد الباب خلفه .. بينما ذهل الضابط شاخصا
يرمق الباب واجما يردد في نفسه ..

- ياترى ليه مهتمين قوى بالواد ده ؟ ! .. إيه قصته بالظبط ..
أكيد فيه سر وأنا لازم أعرفه ..
ثم رفع مسماع التليفون يجرى مكالمة ما ..

.....

في رابعة النهار .. كنت أقف على مقربة من مصنع المسووجات "
بمحور خدمات المنطقة الصناعية الثالثة بالمدينة" .. إنتصبت
بعيدا عن بوابة المصنع "زهاء العشر مترات" أستند إلى حائط
خرسانى .. أنتظر خروج سماح بعد دوامها النهارى بالمصنع ..
كان مقدمى مباغتا .. غير مهد له .. إذ آثرت أن أصطحبها إلى
أحد المتنزهات لازيل ما علق بجأشها من ترح ونفور تجاهى ..
وقفت متظرا لما يعدو النصف ساعة حتى إنفتحت بوابة المصنع
وبدأت العمليات فى البزوغ على التتالى .. إلى أن لاحت سماح
فتآزفت إليها قبل أن تستقل سيارة الوردية .. وما إن رأتهى حتى
تغيرت قسماتها مندهشة وقلقة .. إقتربت منى تستطلع الأمر ..
- إيه اللي جابك هنا ؟ .. أمى كويسة ؟ .. بنتى جراها
 حاجة ؟ ..

فإبتسمت أطمئنها ، وإنطلق لسانى قبل أن أفسد الأمر ..
بصمتى ..
- إطمئنى مفيش حاجة .. كلهم كويسيين .. كان نفسى
أشوفك بس ..

ودعوتها لقضاء بعض الوقت بمتنزه المدينة .. إلا أنها في بادئ الأمر أبى وتنعت .. بحجة أنها مرهقة وغير مفيدة لهذا التسкур .. ظلت أتحايل رضائها وحدثتها بأنى أريد الافاضة لها بأمر ضروري إلى أن إرتضت بالنهاية على مضض .. إستجابة لإلحاحي المستمر ..

ترجلنا نتمشى عبر الممر الأسفلي " باتجاه الطريق الاقليمي " .. بيد أنها لم تنبس بكلمة طوال مشانا .. كما أن التلعثم عقد لسانى وأفقدنى النطق .. ليس إلا نظرات مضطربة خجل ومتعددة أبعثها إلى وجهها المطرق .. أستجدى كلمة من فيها .. إلا أنها ما زالت غاضبة مني يعتمل الترح النافذ بصدرها ..

شارفنا حافة الطريق العمومى .. فوقفت ألوح لإحدى السيارات القادمة .. بينما وقفت هي متحجرة على بعد خطوتين منى تحدق النظر في الجهة المعاكسة .. كانت تتهرب بوجهها عنى وكأنها لا تريد أن ترانى ..

وقفت سيارة .. أفسحت لها الطريق للولوج .. فقبرعت على مقعد ملاصق لإحدى النوافذ تنعم النظر إلى الطريق .. أما أنا فجلست في جوارها ساهمًا واجماً أنظرها متربقا .. أتوقي نظرة ولو بمحض

المصادفة .. دلفت السيارة إلى قلب المدينة وتوقفت أمام أحد المولات المواجهة للموقف العمومي ..

غادرنا السيارة .. وسرنا نتمشى في الطريق الخلفي للمول حيث يهدأ الحراك وتحف حركة المارة .. إلا أن الحال لم يتغير .. إذ ساد الصمت ممثانا .. فوطنت العزم أن أستهل الحديث فقلت ..

- الطلة والتکشیرة دی ميلقوش بو واحدة عندها شنطة مليانة

برزم الدولارات ..

لوت عنقها نحوى .. فنظرت إليها مبتسمـا .. بينما رمقتني هي ضائقة تقول ..

- الفلوس لأصحابها ..

نظرت إليها أداعبها ..

- وهو إنتى مش صاحبة الفلوس واللى جايـب الفلوس ؟ ..

فهزـزت رأسها في يأس ..

- أنا ما أملکش غير الستر .. وحظ عـنـيد إستعبدنى للحزن

والهم .. ولألاعـيـك المراوغـة ..

تقاربت .. ووقفت أمامها حتى أوقفتها عنـوة .. أـلتـحـمـ بـعـينـيهـا ..

- حبيبتي .. إنتي ليه بتسيئي الظن بيا كدة ؟ .. إنتي مش عارفة إنى ما أستحملش أشوفك لحظة حزينة وموجوعة نظرتني ثاقبة .. تترقرق عينها ..

- إنت اللي ديهما توجع قلبى وتسىيبه غرقان فى بحر من الألم .. أطبقت راحتى على راحتها برفق .. وإقتدتها بهدوء لنجلس عند حافة أحد الحواجز الخرسانية الواطئة خلف بناية حكومية عتيقة .. تشرف على الطريق .. قائلا ..

- ربنا يهلك اللي وجعل قلبك .. أطرقت تقول متهدجة على إستحياء ..

- متدعيش عليه .. فانتصبت أناظرها منشر حا .. وقلت فى صوت إحتفالى ..

- أيوة بقا .. أهو كدة يبقى الكلام .. حبيبتي بكرة تعرف إن اللي مزعلك مني بالشكل ده .. هو نفسه اللي هيجمع شملنا تحت سقف واحد .. بس أنا مستنى اللحظة المناسبة ..

رمقتنى محتجدة يائسة ..

- من يجي خمس سنين أو أكثر وإنت مستنى اللحظة المناسبة .. خلاص أنا فاض بيا ومبقتش قادرة أستحمل .. عمرى بيضيع قدام عينا وإنت واقف مكانك .. بتتفرج ما بتتحركش خطوة .. إكتفيت بإنك تشو夫 ملامحى وهى بتذوب وتتكرمش شوية شوية من التفكير واهم .. فإقتربت منها .. وملت برأسى أستجدىها ..

- إدینى بس فرصةأخيرة .. وبعديها إعملى اللي إنتى شايفاه في صالحك .. أو عدك بعد ما تنتهى حكاية المقبرة دى .. هاكتب عليكى رسمي وقدام الناس نظرتنى تحرى قسماتى ..

- ياريتني أقدر أصدقك .. كتير طربت ودانى بالوعد ده .. اللي كان ديهما متاجل .. إبتدرتها قائلًا ..

- أقسم بالله أنا صادق معاكى المرة دى .. وسواء صابت الحكاية أو خابت .. هنتحجوز عشان نعوض اللي فات من عمرنا .. أنا أصلًا تعبت من الوحدة والمرمة .. فقالت بصوت ملهوف بادى الحماس ..

- إنت بتتكلم جد .. ولا زى كل مرة ؟ ..

أجبت مؤكدا ..

- والله العظيم بتكلم جد .. وجد الجد كمان ..
فإعتقدت لتناظرنى بكمال جسدها ..

- تمام .. وإنت ناوي على إيه دلوقتى ؟ ..

أرسلت بناظرى إلى ناصية الشارع البعيدة ..

- لسة بفكير في الموضوع مش عارف أبتدئ متنين ؟

ثم توجهت نحوها في عزم أقول ..

- بس ناوي أخد خطوة بجد في الأيام الجاية .. إدعيلى ربنا

يوفقنى ..

تنهدت ثم قالت بتؤدة متهدجة ..

- هادعى لما أشوف آخرتها ..

شابت أساريرى هالة من الابتسامات .. وقابلتني هى بابتسمة

حىّة أضاءت ثغرها .. ومددت يدى إليها نكمـل مشانا ..

فقمـلت وواصلـنا المسـير ..

وبعد عدة خطوات .. أرجأت طويلا ثم قلت ..

- إنتى عارفة أكتر حاجة بحلـم بيـها إـيه ..

- إيه؟ ..

- بحلم أشتري بيت واسع وكبير .. نعيش فيه أنا وإنني

وأبويها وأمك وأخويها وبنتك .. نعيش فيه كلنا مع بعض

فتوقفت بعثة صائحة ..

- نتجوز الأول وبعدين إسعى في تحقيق كل اللي بتمناه ..

نظرت إليها مبتسمـا ..

- هتجوزك .. أقسم بالله هتجوزك .. للدرجة دي مستعجلة

فغرت فاها .. مستنكرة .. تقطب حاجبيها ..

- نعم؟! .. قصدك إيه؟ ..

أدركتها ضاما وجهها بين راحتـى قبل أن تتناوح الريـبة بروعـها

- والله ماقصد حاجة خالص .. أنا بس كنت بـهزـر ومشـ

هعملـها تانـى .. رجـعـى بـقا ضـحـكتـكـ أنا ما صـدـقـتـ أـخـيرـاـ

ضـحـكتـى ..

- إـنتـ مـبـتزـهـقـشـ؟ .. هـزـارـكـ رـخـمـ ..

- خـلاـصـ قولـتـكـ مشـ هـهـزـرـ تـانـى .. مـاـيـقـاشـ خـلـقـكـ

ضـيقـ كـدة ..

ونظرـتـ إـلـيـهاـ مـازـحاـ لـلـمـرـةـ الثـانـيـةـ ..

- إدينى فرصة أقرب منك .. متبقيش نكديه بالشكل ده ..
فتذمرت وأسرعت الخطو .. بينما خلفتها ملاحقاً أسترضيها ..
وظل هذا السجال اللاذع يدغدغ مشاعرها ويستميل قلبى ..
كنت أحاول كسر صمتها وجمودها وقنوطها بضرب من المزلا ..
والعبث والمراؤحة .. ليغشاها بين الفينة والأخرى الإبتسام
اللحوح وتغتمر تقاطيعها بعلامات البشر والإرتياح إلى أن توهج
صوتها بالنهاية فرحا .. وإنطلق لسانها بالكلمات الجذل الأشبة
بتردید الأهازيج ..

إلا أنه في عمقى .. كلما أذعنـت للصمت بـرهـة .. اعتمد بـصدرـى
القلق والخوف من المجهـول .. كانت تخـالـينـى أمورـاً مـقـبـضـة كـعـادـة
الـدـنـيـا معـى .. أحـاـولـ مـوارـاتـها بـحدـيـشـيـ المـدـاعـبـ الـلاـهـى .. يـدـأـنـ
رـقـرـقـةـ تنـجـلـىـ وـتـنـضـحـ عـلـىـ أـدـيمـ عـيـنـاـيـ بـيـنـ الـوقـتـ وـالـأـخـرـ ..
فـتقـابـلـهاـ سـمـاحـ بـوجـهـ يـشـفـ عـنـ ذـاتـ القـلـقـ وـالـخـوـفـ ..

.....

في صبيحة اليوم التالي وفي قربة العاشرة .. كنت أجلس في
المقهى بصحبتهم .. فتحى وأملونيا وبركات ..

وكان بركات قد ضاق ذرعا بحديث ألمونيا الإستقصائي .. فقال متمملا ..

- وإيه يخصنا في الحكاية دى كلها ؟ .. اللي حصل حصل ..
ولا إنت عايز تشغلنا معاك مخبرين عند ظابط المباحث ؟
حينها تذمر ألمونيا وهب قائما ..

- أنا ماشي .. مفيش فايده من كلامي معاكو ..
فقال بركات دهشا ..

- رايح فين ؟ .. إنت ليك غيرنا ؟ ..
 فأجاب باختصار ..

- عندي فرح الليلا دي .. ولازم أتم على الفرقة ..
إذ كان ألمونيا يعمل فيها يعمل ك "شاويش مسرح" في زفات
الأعراس .."
ناهضه بركات قائلا ..

- طب إستنى .. أنا جاي معاك ..
وإنصرف الاثنان تحت أنظارنا .. نتابع مرآى رحيلهم .. وما إن
غابا عن صفحة الرؤيا .. حتى أمسكت قياد الحديث وجلا ..
- ياترى ليه بيسألنا كل الأسئلة دى ؟ ..

قال فتحى يواجهنى جادا ..

- مإنت عارف إنه شغال مرشد سرى عند ظابط المباحث ؟

.. لكن اللي قالقنى إن الظابط بيدور على شخص بعينه ..

وعقلى بيقولى إنت الشخص المطلوب .. معقوله

يكون حد حس بيک وإنانت بتهرب من منطقة القتل ؟ ..

أكيد فيه حد شافك بس متعرفش عليك .. وإلا إزاي

عرف الظابط إن المجذرة سابت وراها واحد هربان ..

إنتفضت حينها أواصلى .. وقلت مذعورا ..

- ده إيه اليوم الإسود ده ؟ .. هعمل إيه دلوقتى ؟ ..

رمقنى بنظرة فاحصة ثم لوى عنقه ينعم النظر هناك حيث

الزراعات المترامية على الضفة الأخرى للمجرى المائى ..

- متهيألى فيه مخرجين من الورطة دى .. أو لهم إنت تقول

لأمونيا كل اللي حصل .. وتخرس لسانه بشوية فلوس

عشان تتقى شره .. والثانى إنت تحاول تختفى تماما .. وف

حالتك الحال التانى مينفعش لأنك لو هربت هتلتفت كل

الأنظار ليك

فحذجته بنظره مستنكرة مستاءة ..

- إنت عايزنى أرشيه ؟ .. مش هيحصل طول ما أنا عايش
على وش الدنيا .. وبعدين ده ملوش أمان .. ده خاين
وغدار .. وبعدين خليني رشيته وبلغ عنى .. هبيقى إيه
العمل ؟ .. مش هيشف قرش من اللي شقىت فيه
وغامرت عشانه .. وإن حصل يبقى على جتنى ..
تسمع فتحى الكلماتى فى غير إقتناع إلا أنه أذعن قائلا ..

- اللي تشفه .. إنت حر .. أنا بس كنت خايف الدنيا
تعلملها معاك ..

إعتدلت بكمال جسى أناظره .. و تستجيب يداي بالحركة
معبرة عما يتوجب علينا فعله ..

- سيبك بقا من الشكوك دى .. إن شاء الله كل شىء
هيمشى زى ما أنا مرتب .. بس إحنا نتعامل معاهم زى
ماحنا علشان محدث فىهم ياخد باله من حاجة ..
هز هز رأسه يوافقنى .. بجسد ثابت فاتر الحماس ..

- تمام .. لما نشوف بكرة مخبي إيه ..

"٧"

إنتصف الليل .. كنت في غرفتي مستلقيا على مهادى .. إلا أنى
كنت يقطا أستغرق في تفكير طويل .. سلسل يقودنى من فكرة
لآخرى .. ما أصابنى بأرق وقلق شديد .. طردا النوم من مقلتى
.. وطفقت أتجول بناظرى "مريجا" في جنبات الغرفة .. غرق
بصرى في صورة والدى الناشبة أمامى على الحائط .. أتذكر أيامنا
الأولى الخوالى ..

وبيئما أنا على حالتى تلك إنتقال الى مسامعى أزيز وصفير حاد ..
وأصوات جلبة وحراك بالصاله .. فنفرت من مهادى مذعورا
أستطلع الأمر .. خشيت أن يكون أبي .. فقد أصياب مؤخرا
بحالة نفسية خاصة تحدوه للسير نائما .. إثر موت أمى كمدا ..
وتكافف الهموم ومثاقيل الحياة فوق عاتقه .. وقد أشار الطبيب
بمراقبته ومتابعته عن كثب ..

فغادرت غرفتى متوجهها صوب الصاله أترجل بهدوء وتأنى ..
لأجد أبي أمام الباب ممسكا بالمزلاج يتاهب للخروج .. فهرعت
إليه .. وقبضت على راحتيه قبل أن يحرك المزلاج قلامة ظفر ..
فنظر لي تملؤ عيناه نوما وزرعا .. مبتدرأ يقول ..

- مصطفى؟ .. أمك مستنيانا برة .. هنجازى المدرس اللي
إتسبب في كسر دراعك ..
أدرت الكرسى متوجهها صوب غرفة نومه أردد ..

- بكرة نروح مع بعض يابا .. لازم ترتاح دلوقتى ..
فنظرنى قائلا ..

- هنقدم شكوى ضده ..
لم آبه بحديثه ومضيت قائلا ..

- بكرة يابا .. بكرة ..

إلى أن شارفت مرقده .. فحملته وأويته إلى جوار أخي .. ودثرته
بغطاءه ..

و ما هي إلا برهة " مكثتها واقفا إلى جواره " حتى غط في نوم
عميق .. غادرت الغرفة بعد أن أوصدت باهبا جيدا ثم عدت إلى
غرفتى .. حاولت أن أتناوم " أستجدى الغفى " .. دون جدوى
.. فقد عدت إلى سالف حالي الأولى " تتجاذبني الحيرة والقلق
" .. كان التفكير قد اعتصر طاقتى وتدفقت إلى رأسى المزيد من
الهواجس والظنون .. ورتعت به التوهمات .. كدت أصل إلى حد

الجنون .. لم تستطع رأسى أن تخمد على الوسادة .. فزاد أرقى
وتبحر النوم تماماً وذهب إلى حيث لا رجعة ..
دفعنى ميراث الهم "الزخم" الثقيل لأن أفكر جدياً لأن أخطو
خطوة حاسمة .. حاولت التركيز مستعملاً طريقة بصيرة راشدة
وقوة عاقلة غير جامحة .. كان لابد أن أبدأ أولى خطواتي في
البحث عن سبيل لفتح المقبرة الإضافية في خفية وترو .. حتى لا
يغافلني أحدهم فتسبق قدماه قدماً ..

هجرت مضجعى .. ونفرت من البيت .. وتوجهت رأساً شطر
البلدة القديمة .. وفي غضون دقائق كنت قد شارفت كوبرى
المشاه العابر للترعة الوسطية .. وفي طريقى هاتفت فتحى أن
يقابلنى أسفله في خفية من المارة والناظرین ..

ومكثت أنتظره عند أحد الأعمدة الخرسانية .. وما زالت الظنوں
تتطفئنى وتجول في رأسى عابثة دون رادع .. كلما مرت بي لحظة
إرتأت لي فكرة تحوى ما قبلها وتستخفها .. كنت أبتغي مأرباً لم
أتبيه سبيله حتى لحظتها ..

ساعدنى الليل الهادئ .. ووحدتى وإلتافق حول نفسي ..
واعتصار ثمار قريحتى شيئاً ما .. في إنتخاب بعض المقترفات ..

إذ وافتنى أكثر من فكرة صائبة .. فوطنت العزم أخيرا على تنفيذ
إحداها ..

لم يغب فتحى كثيرا إذ جاءنى فى غضون دقائق زهيدة " رغم
شعورى بكثرتها وإمتلاطها .. لوفرة ما أنتجت رأسى من أفكار
فإستطال بها الوقت .."

ما إن رآنى حتى طالعنى بصوت أجش .. ينبثق منه الكلام
بصعوبة ..

- إيه يابنى اللي حصلك ؟ .. مجرجرنى فى الوقت المتأخر ده
ليه ؟ ..

قلت مريجنا ينتابنى شعور بالخجل والتوتر ..

- أنا أسف يا صاحبى .. مقدرتش أصبر .. فيه مشوار
عايزك تروحه معايا ..

نظرنى دهشا .. وعلى أساريره علائم إستنكار مستتر ..
- مشوار ؟ ! .. مشوار إيه ؟ ..

و قبل أن أجيب .. تسمعت أصوات جلبة وحراء صادرة من
أعلى الكوبرى .. وكانت لرهط من الفتية المتسكعين فى الليل
البهيم عند أحد نواصى الكوبرى المتلوى .. يختلسون النظر إلى

كوكبة من النسوة اللاتى خرجن فى تلك الساعة المتأخرة لتنظيف
أوعية وأغراض دورهن فى مياه الترعة ..

" ترى هذا المشهد كثيرا .. إذ كان ذائعا أن بعضهن ينحون ذاك
النحو بالخروج فرادى وجماعات من العشاء وحتى إنتصاف
الليل .. وبالأخص فى ليالى الصيف المقرمة .. لغسيل حاجياتهن
حتى لا يعرضن أجسادهن لأعين قليلى الحياة تحت وضح النهار
.. فيتدبرن فى الليل وظلمته .. إلا أن الأمر لا يسلم من أعين

المترصدin الباغين .. الذين تراهم دوما على مقربة "

أحسست إثر سماع تلك الضجة ببعض الظهور والتكتشف الغير
مرغوب فيه .. لأمر يحتاج الخفية .. فقلت مناهضا ..

- مش هينفع نتكلم هنا .. أنا مش مطمئن .. تعال نروح

بيت سماح .. أئمن مكان ممكن نتكلم فيه ..

أطل فتحى فى وجهى مختدا .. فى غير إقتناع ..

- بس الوقت متأخر .. ودى أرملة ..

أمسكت بذراعه أدفعه أمامى برفق قائلا ..

- تعال بس وملકش دعوة .. أنا هتصرف ..

وإنصرنا متوجهين إلى عمق البلدة ..

ماهى إلا برهات .. كنا قد شارفنا ناصية حارتها .. إلا أننا توقفنا
"بغتة" عندما لحت ألمونيا وبركات يتطوحان عند درك أحد
أعمدة الانارة .. بدا عليهما الشمل الشديد .. "لابد وأنهما قد
أثقلان في تعاطي المخدرات وشرب الخمر" .. كانت هيئتهما مزرية
.. يترايمان على بعضهما البعض في عدم إتزان .. وكأن الأرض
ترافقن وتتجوّج تحت أقدامهما .. قلت مرتبيكا ..

- الله يعكر مزاجكم .. إيه اللي جا بهم هنا؟ ! ..
وتوارى فتحى بجسمه خلفى يرمقهم ..

- مش عارف .. دول شكلهم تقلوا في الشرب لحد ما
المخدرات تولت دماغهم .. أكيد بيتسكعوا زى عادتهم ..
فقطت عابثا يمتعن وجهى ..

- إستنى شوية لحد ما يمشوا ..
فبرز فتحى إلى جوارى يستحثنى ..

- يابنى دول غرقاين لودانهم في المخدرات .. مش هيقدرروا
يتحركون خطوة وهم فى الحالة دي ..

فنظرت إليه متتسلا في حيرة ..
- طب وإيه العمل؟ ..

طالعني فتحى ينظر فى وجهى .. يقول بتؤدة ..

- دول مش شايفين حتى تحت رجلיהם .. تعال نتحرك
براحة ومش هيحسوا بينا ..

وإستحسنست فكرته فتحركتنا بهدوء " متلصصين بجنبات الحرارة
حتى شارفنا الباب .. طرقت عدة طرقات رهيفة هادئة إلى أن
فتحت سماح .. فأطبقت راحتى على فيها " فجأة " قبل أن تتفوه
بكلمة فيفتضح أمرنا .. ثم دفعتها إلى الداخل .. ووصلنا على
إثرها متآزفين ..

.....

... بيد أنه في هذه الأثناء كان برకات يرمقنا بنظرات ضبابية ..
فقط هو الآخر " مريجا " يحدث ألوانيا ..
- بص .. مين هناك ؟ ..

خطا ألوانيا خطوة واهنة مترنحة .. لا يرى إلا طشاشا .. وقد
لعبت الخمر برأسه ..

- مين ؟ .. أنا مش شايف حاجة ..

أشار برکات صوب الباب " يجلـي الضباب عن أعين رفيقه " ..
- ده مصطفى ومعاه فتحى ..

فحملق ألمونيا .. تكسو ملامحه غباوة مزجية بالدهش ..
- مصطفى ومعاه فتحى ؟! .. إيه اللي جابهم هنا الساعة دى
.. هو مش ده بيت سماح ؟!
فضحك بركات في خبث ..

- هو بيتها .. إظاهر إنها منهم ! .. اللي بيستقبلوا ضيوفهم
من الرجال في عتمة الليل ..

إبتسם ألمونيا مشدوها يهزهز رأسه .. وكأنما قد إستفاق من
سكته ..

- يا أميسبي !! .. إزاي تاht عن دماغي دى ؟! .. إزاي
خديتش بالي منها ؟! .. أكيد هيامنهم .. طبعا منهم

.....

... ومن الداخل .. كنا نتحدث أنا وفتحى في صالة المنزل الخاوية
إلا من حصيرها الرثة .. فقلت قلقا وفي أساريرى علائم الخوف
والريبة ..

- ياترى شافونا ؟ ..
فقال فتحى يكرر حدسه .. محاولاً طمانتى ..

- إهدى .. ماظنش إن هما قادرین فى حالتهم دى يمیزوا
واقف من ماشى ..

وما إن اطمأن جأشى " شيئاً ما " وهدا قرارى .. تحرکت عدة خطوات فى مواجهة سماح وفتحى .. أستهل حديثى إليهما ..

- أنا قررت حاجة وحتاج مساعدتكم ومشورتكم فيها ..
إنتو فاكرين طبعاً موضوع المقبرة الإضافية اللي حکيت لكم عنها .. متھيألى إن الطريق الوحید ليها هو الشیخ مرسى نفسه .. ومفيش شک إنه یعرف حکایتها وتلاقیه بيرتب دلوقتى إزاي یفتحها ..

حينها سألنى فتحى مقاطعاً ..

- طب وإيه المطلوب مننا ؟ .. إنت ناوي على إيه بالضبط ..

.....

... في ذات الأن كان ألمونيا وبرکات فى الخارج يتھامسان .. قال برکات بصوت خفیض ..

- يابنى إستنى شوية وهنعرف كل حاجة ..
تحرک ألمونيا متازفاً ..

- لازم أكشـف اللـى بـيحصل جـوه وأفضـحـهم .. عـشـان
أـجيـبـ منـاخـيرـهـ الأـرـض .. طـالـعـلـىـ السـماـ بـروحـ أـمـه .. وـهـوـ
مـقـضـيهـا ..

فـأـمسـكـ بـرـكـاتـ بـسـاعـدـهـ يـسـتـوقـفـه ..

- مـاتـسـتـعـجـلـش .. دـولـ لـسـهـ دـاـخـلـين .. إـسـتـنـىـ شـوـيـةـ
وـهـنـفـاجـئـهـمـ عـشـانـ نـظـبـطـهـمـ بـفـضـحـيـتـهـمـ مـتـلـبـسـينـ

.....

... وـبـيـنـاـ كـنـتـ أـتـشـاـورـ مـعـ سـيـاحـ وـفـتـحـىـ بـالـدـاخـلـ .. هـتـفـ فـتـحـىـ
بـغـتـةـ .. بـنـبـرـةـ تـهـكـمـ وـإـسـتـنـكـارـ ..

- إـنـتـ إـتـخـبـلتـ ! .. إـزـاـيـ هـنـسـافـرـ لـلـشـيـخـ "ـ وـالـعـرـوـفـ أـنـهـ
يـقطـنـ فـيـ الشـرـقـيـةـ "ـ فـيـ الـلـيـلـ دـهـ ؟ـ ! .. الـطـرـيـقـ مـشـ أـمـانـ ..
الـنـهـارـ لـهـ عـنـينـ .. نـسـافـرـ الصـبـحـ أـحـسـنـ ..
فـأـدـرـتـ جـسـدـيـ أـيـيـاـ .. أـرـدـدـ فـيـ عـنـادـ وـحـمـيـةـ ..

- بـيـكـ مـنـ غـيرـكـ .. هـسـافـرـ .. أـنـاـ بـسـ كـنـتـ عـايـزـكـ مـعـاـيـاـ ..
وـبـعـدـيـنـ الـلـيـلـ عـمـلـوـهـ أـصـلـاـ لـلـمـشـاوـيرـ السـرـيـةـ دـىـ .. مـشـ
لـازـمـ حـدـ يـشـوـفـنـاـ أـوـ يـحـسـ بـيـنـا ..
وـإـهـتـاجـتـ سـيـاحـ بـدـورـهـاـ "ـ وـكـعـادـتـهـاـ" ..

- أنا مش عارفة ليه الإصرار أصلا على الحكاية دى ..
يامصطفى معانا اللي يكفيانا طول العمر ..
 حينها تذمرت مشوحا ..
- براحتكم .. مش عايز حد .. أنا هسافر لوحدي ..
 وتحركت لعدة خطوات صوب الباب .. فلحق بي فتحى يخمد
تأثيرى ..
- طب إهدى شوية .. أصبر .. إحنا لسة بتتشاور ..
 ثم ند عن صدره تنهيدة عميقه ..
- الله الأمر .. أنا جاي معاك .. عارف إنك أهوج وعنيد
وهتو دينى في داهية بسبب قراراتك السريعة والمفاجئة دى
فصاحت سماح هي الأخرى ..
- رجلى على رجلكم ..
 ثم قالت عباثا ..
- أنا أصلا كان عندي وردية ليل في المصنع .. هفوت
الشغل الليلادى وهسافر معاكم ..
 " وإن لم يكن قد نبا إليك علم فإن النساء في بلادنا يقتصر عملهن
بالمصانع على الدوام النهارى .. "

وعلى حين غرة .. دق الباب دقات هستيرية .. فزعت إثر دوتها
.. فنظرت إلى سماح أسفهم عبنا كنة الأمر .. رغم أنى أتكهن
حقيقته ..

- إيه ده ؟! .. إننى مستنية حد ؟! ..

فردت سماح في تنكر ..

- ومين اللي هي خط على بابي في الليل ده ؟!

آنها دمدم صوت بين وشائجى .. وخارجنى ظنا حتميا بأن هذان
المبتذلان هما مصدر تلك الجلة .. ففهمست إلى سماح مهمتها ..

- إفتحي الباب براحة .. لما نشوف مين اللي جاي الساعادى

وجذبت فتحى من ساعده ..

- تعالى نستنجى جوه ..

وتوارينا في غرفة نومها نسترق السمع .. وب مجرد أن فتحت
الباب .. بوغت بمشهد ألمونيا وبركات ثملين .. فإحتاجت إثر
مرآها ..

- إنتو عايزين إيه ؟ ..

فرد ألمونيا بوجه صفيق رقيع ..

- ليه مقولتىش ياحلوة إن ليكى في النظام ؟ .. " الأنس والفرشة " .. إحنا بنعرف نقدر برضه .. بالزمة مش إحنا الأولى .. كان نفسى من زمان فى جسمك الفاير ده .. وألقى بجسده الشقيل العفن على جسدها .. تبعت منه رائحة حمر مقززة .. فدفعته بقوة صائحة ..

- غور الله يخليك راجل .. أخرجوا دلو قتى وإلا هصرخ بعلو صوتى وألم عليكوا خلق الله .. ده إيه المصايب دى ياخويها ..

فتحرك ألمونيا دائرا بالصاله يتطرق " تراه يتقطع في سماحة ووقاحة " .. هاتفا ..

- تصدقى فكرة .. يا الله صوتى وأنا هصوت معاكى وأردف بركات ..

- إيه ؟ .. هو إحنا مش زى ضيوفك اللي بيلعبوا جوه ؟ .. ولا مانشبھش ؟ ..

فتحهمت سماح من فرط فجاجتها وغاظتها ..
- ضيوف إيه ياصايع إنت وهو ..

فأمسك ألمونيا بيدها وأزاحها من طريقه بعنف .. ثم مرق إلى
جوف الدار هاتفا ..

- هما فين ؟ .. أخرج يامصطفى .. أنا مش غريب .. الدار
أمان ..

حينها لم أجد بدا من التكشّف فأمرنا قد إفتضّح .. فبرزت من
غرفة النوم قبل أن يتدهور الحال ويتفاقم الأمر قائلًا ..

- إنت عايز إيه إنت وهو ؟ .. إيه اللي جابكم هنا دلوقتى ؟
وخرج فتحى يخلفى .. فهلهل ألمونيا سافرا ..
- الله الله .. إنتو الإتنين مع بعض .. من الواضح إنها بت
جامدة وعفية ..

فهجهت في وجهه مطلقا تلك المقالة الصادمة ..
- إخرس يا حيوان .. دى مراتى ..

فحملق ألمونيا وفغر برّكات فيه .. مرددين بصوت واحد
- مراتك ؟ !!؟ ..

وإنتصب الجميع ذاهلين واجفين .. وتحجرت عيناي سماح
شاحنة صوبى مشدوهة بغرابة ومباغتة ما لفظت .. إلا أنها

سرعوا ما فطنت لماربي من تلك القيلة .. " فكما تعلم لم يكن من
خرج من تلك الورطة سوى ما تخض به لسانى " ..

"٨"

لم تتغير تدبيراتي لتلك الليلة .. ولم تتأثر بها حدت .. فما هي إلا
ساعة زمن و كنت أنا وفتحى و سماح على رصيف محطة القطار
.. ننتظر آخر قطار نازح إلى القاهرة

آنها كنت ضائقا يحتقن وجهى .. أتردد بناظرى إلى سماح "أتمنى
لو ألكمها بكلتا راحتى غيظا " .. تلك التى نفذ صبرى من
عنادها الشديد .. فرمقتها محتاجا ..

- والله أنا معارف معنى لإصرارك إنك تسافرى معنا في
الليل ده ! ..

وحاول فتحى أن يهدأ من رواعى ..
- ريح نفسك شوية وإهدى .. خلاص الموضوع إنتهى ..
جت معانا واللى كان كان ..

وبينما كنا وقوف لاهين في جدالنا هذا .. كان ألمونيا وبركات
يترقبانا من بعيد متخفيان خلف أحد الجدران .. دون أن ندرى
بها .. " هذان اللذان إستغلا غفلتنا فاقتفيا أثارنا " .. وبينما هما
على تلك الحال قال بركات بادرنا ..

- مش عارف أنا إيه اللي جابنى وراك لحد هنا؟! .. هو مش

قالك إن هيا مراته؟ ..

أرسل ألمونيا ناظره إلى حيث كنا نقف .. قائلًا لبركات الواقف

وراءه متذمرا ..

- بسرعة كدة خالت عليك كدبته؟! .. ده إنت طيب

خالص .. فيه حاجة غريبة بتحصل ولازم أعرفها .. لازم

أعرف إيه اللي بيدور من ورى ضهرى .. مسألتش نفسك

إيه المشوار ده اللي مينفعش غير في آخر الليل .. وليه

مسافرين بالقطار بالذات؟ ..

فدار بركات ليناظره مباشرة محتاجا ..

- يابويا وإننا مالنا وماهم؟ .. هما أحرار يعملوا اللي

يعملوه .. إيه اللي هيضرنا أو يهمنا في كدة ..

فأزاحه ألمونيا عن مرآه وإندره قائلًا ..

- أقف وإنت ساكت .. أنا عارف أنا بعمل إيه ..

وقطع حديثهما صوت القطار القادم يحث الثرى ويذرره أمامه

ذرريا ..

ركبت جماعتنا بإحدى العربات الأمامية .. بينما لحقانا مستقلين
العربة الخلفية مباشرة .. يترصداننا من بعيد ..

.....

في غداة اليوم التالي .. كان الصبح قد تبين لدى عينين .. وكنا
نسير بدورنا في أحد الشوارع العتيقة ببلدة صان الحجر بالشرقية
.. كنا في ساحة السوق الغاصة بالمارة .. والبائعين على الأرصفة
تناثر نداءاتهم وتكاد بضائعهم أن تنتهي الطريق إنتهاها ..
وكان ألمونيا وبركات في إثرنا يتذращ في جموع المارة ولغطهم ..
إنتهى بنا المسير قبيل نهاية الشارع حيث هدأ عجيج المارة وخفت
أقدامهم .. فوجئنا من دهليز بناية قديمة " متداعية .. يخال لك
أنها ستتدहدم فوق رأسك " ذات طوابق أربع ..
في ذات الآن كان ألمونيا أمام البناء يستوقف أحد المارة
مصححا ..

- لو سمحت .. مين اللي ساكن في العمارة دي ؟ .. بتاعت

مين يعني ؟ ..

فأجابه الرجل ..

- ده بيت الشيخ مرسي الدبب .. راجل بركة ..

وإنصرف الرجل .. بينما إنتصب ألمونيا يهمهم بصوت مسموع ..

- شيخ؟! .. شيخ إيه ده! .. أنا مش فاهم حاجة ..

ولوى عنقه صوب بركات ..

- تعالى ندور على قهوة لحد ما يخرجوا .. أنا خرمان نفسي

في شوية شاي ونفس دخان ..

ووطنا على أحد المقاھي المواجهة للعمارۃ .. وقبل أن يستهلا

تعجباتها بادرهما صبی المقهی ..

- تشربوا إيه؟ ..

حدثه ألمونيا مستفهمها ..

- ممكن تعملني معروف؟ ..

فأطلق الصبی سؤالاً يتبع الأمرا ..

- معروف إيه ده؟ ..

أشار ألمونيا بطرف بناه شطر البناء قائلا ..

- كنت عايز أعرف مين اللي إسمه الشيخ مرسي ده؟ ..

شغال في إيه يعني؟ ..

فقطع بركات الحديث " كما تعودنا منه " مناهزاً ألمونيا وصبي

المقهی معا ..

- مرسى إيه دلوقتى ؟ .. هات ياكابتن كوباتين شاي
وحجر شيشة ..
- نظر إلية ألمونيا شذرا .. يحتقن وجهه غيظا ..
- ممكن تهدى .. وتخرس خالص ..
وجه حديثه ثانيا إلى الصبي مستدرجا ..
- قولتلى شغال في إيه ياذوق ؟ ..
فقال الصبي ..
- ده شيخ مبارك .. بيفك الأعمال والأسحار .. حاجات
زى كدة يعني ..
- سهم ألمونيا مندهشا ..
- أعمال ؟! .. أعمال إيه ولاد المجانين دول ؟! ..
-

وفي مضيفة شقة الشيخ مرسى المتهاكلة .. كان ثلاثة جلوس
يناظرونها .. وثمة نقاش دائر على الأفواه .. قلت ساءلا ..

- قولت إيه ياشي خنا ؟ .. هتساعدنا ؟ ..
فنظر الشيخ إلينا قائلا ..

- في حد غيركم يعرف حكاية المقبرة دى ؟ ..

أجبته نافيا ..

- لا.. مفيش غير إحنا التلاتة ..

فأطرق الشيخ للحظة .. ثم قال ..

- تمام .. سيبونى أفكر .. وهرد عليكم بالتليفون بعد أسبوع

من النهاردة .. وربنا يحيب اللي فيه الخير ..

إلا أنى إسترعى التفاته أقول ..

- لو تسمحلى ياشيخنا .. عندى إستفسار بسيط .. سؤال ..

نفسى أسمع إجابته منك ..

فسألنى مستفها ..

- سؤال إيه؟ ..

فقلت أرجحى إيضاحا ..

- نفسى أعرف إيه أصل حكاية منطقة أبوبيللو دى .. أنا

عارف إن مفيش حد يقدر يدينا عنها خبر أكيد غيرك ..

نظرنى الشيخ متوجبا ..

- يعني إنتم جيرانها وجای تسائلنى أنا؟! عجيبة!

فإبتسمت مبهوتا وغمرنى الحياة وأغرقنى الخرج من مقارعته

اللاذعة .. فأردفت ..

- أعذرنا ياشيخ .. دماغنا إتلخبط من كتر ما سمعنا عنها .. حكايات تشبه الأساطير .. بيقولوا إنها كانت زمان مدينة فرعونية عظيمة .. لكن كهنة المعابد عملوا ليها رصد مخيف .. فإلخسفت بيها الأرض .. ومن ساعتها كل ما تبني قرية على أطلالها يصيبيها الرصد المخيف ده .. تبلعها الأرض في جوفها .. كإنما ما إتبنتش أصلا .. وكثير بقا من الخرافات دى بيقولوها الناس وبيعتقدوا فيها .. عشان كدة نفسى أعرف سرها .. ومفيش غيرك عنده خبرها ومحبرها ..

إلتمعت عينا الشيخ تيقظا .. ثم نظر نحوى في هدوء .. يترقبنى ويتمعن أساريري وكأنما يستقرئ ما يدور بخلدى .. ثم قال بتؤدة ..

- الأرض دى فيها سر متصان .. فيها حقائق مذهلة لو إتكشف الستار عنها هتغير كتير حوالين إعتقداتنا عن تاريخ الفراعنة .. واللى شاف اللي جواها غير اللي مر عليها مرور الكرام ..

أعارنى ذات الإلتئام بعينى .. فسألت أحملق جاحظا ..

- وهو فيه حد دخل جواها .. وخرج سالم ؟ ..

فقال الشيخ بصوت خفيض .. وكأنها ينطق خواطره بصوت
ممسموع ..

- فيه .. بس دول قليلين لحد الندرة .. ومين ده أصلا اللي
عنده القدرة الروحانية لخوض غمارها .. جواها قوة لا
يمكن حد يتصورها .. فوق الوصف .. وإختيار أجدادنا
ليها مكانش هباء أو عبث .. جواها حاجات رهيبة ليها
علاقة بالفلك وأبعاده ومدة السفر ليه .. وبمقاسات
الأرض وقوة جاذبيتها ومراكز تقلها وكل ده بيربط منطقة
أبوبيللو دى بباقي الأرض .. وليها كمان علاقة بالملائكة
الأعلى والملائكة الأرضى .. وحاجات من دى كتير
خافية عن الناس لصعوبة فهمنا أو إستيعابنا لأسرارها ..
وكمان مش من السهل إن عقلنا البشري يقبل أو يتصور
إن حضارة الفراعنة " التي تسمع صفوة الناس يغوغون
مرارا بأنها حضارة بكر .. وبدائية " عدت حضارتهم اللي
بيتمختروا وبيتباهوا بإنجازتها هنا وهناك .. لحد مش

ممكن يتخيلوه أو يصدقوه من التقدم العلمي والإعجازى

والروحانى ..

ثم أطرق الشيخ لبرهة .. وند عن صدره تنهيدة عميقية .. قائلًا
في جدية ..

- إنتو عارفين الكارثة الحقيقة فين؟ ..

فقلت متجاوباً ..

- فين؟ ..

- إن معظم الناس لسة غفلانين .. نايمن وبيشخروا ..
غاييين عن الحقيقة .. لسة بيؤمنوا بالخرافة والأساطير ..
وماشيين وراها بأقصى ما في عزمهم .. واللى بيزود الطين
بلة .. إنهم بيرددوها وبيحطوا توابتهم عليها .. إساعات
وأكاذيب وحكايات فارغة ووهنية .. بتزود عقول الناس
ضللة وجهل ..

مع أنه ببحث بسيط هتعرفوا إن كلمة "أبوبيللو" .. و
"الطرانة" (البلدة المقابلة لمنطقة أبوبيللو) .. في الأصل
أسماء فرعونية .. وإن مدفون تحتهاآلاف المقابر .. أو
بمعنى أدق جبانة فرعونية ضخمة .. فيها من الكنوز ما

يفوق الوصف وإستحالة تلاقيها في أى منطقة في العالم ..
ودى حكمة الخالق سبحانه .. إن سر الأرض دى يفضل
خافي عن الناس .. وميتردش عنها غير الأكاذيب
والحكايات الوهمية ..
فإقتطع فتحى الحديث ..

- وهى المقابر دى صحيح عليها رصد من الجن ؟
فأجاب الشيخ فى تحفظ شديد ..
- طبعا ..

قلت مستوضحا ..
- وإزاي بتفكم الرصد ده ؟ ..

تبسم الشيخ إبتسامة رتيبة إلا أنها ذات مغزى ..
- مع إن ده من صميم أسرار مهنتنا .. بس هقولك .. لكل
شيخ طريقته ومنهجه .. والطرق دى بنورثها عن أجدادنا
.. وللرصد أنواع كتير قوتها شديدة .. من ضمنهم رصد
الجن .. وده اللي بتسموه " عبنا " .. لعنة الفراعنة ..
وفك الرصد الموكل بيه لجني .. عملية خطيرة جدا .. ولو
الشيخ اللي بيقوم بالمهمة دى غلط ولو واحد فى المية ..

بـيـجـلـبـ الـكـوـارـثـ عـلـيـهـ وـعـلـىـ سـكـانـ الدـورـ حـوـالـيـنـ منـطـقـةـ
الـقـبـرـ ..

حـمـلـقـتـ إـلـىـ أـسـارـيرـ مـشـدـوـهـاـ ..

- وـإـزـاـيـ دـهـ مـمـكـنـ يـحـصـلـ ؟

قالـ الشـيـخـ تـشـوـبـهـ هـالـةـ مـنـ الـغـمـوـضـ ..

- يـعـنـىـ لـوـ قـرـاـ طـلـاسـمـ الـفـكـ بـطـرـيـقـةـ غـلـطـ .. أوـ إـسـتـعـمـلـ
بـخـوـرـ بـيـنـفـرـ الـجـنـ أوـ يـهـيـجـةـ أوـ يـجـلـبـهـ .. سـاعـتـهـاـ مـنـ الـمـكـنـ
جـداـ الـقـبـرـ يـفـتـحـ بـابـهـ وـيـبـلـعـ كـلـ الـلـيـ وـاقـفـيـنـ .. وـيـتـوـهـوـاـ فـيـ
بـيـرـ ضـلـمـةـ مـفـيـشـ رـجـعـةـ مـنـهـ إـلـىـ أـنـ يـشـاءـ اللـهـ ..

فـإـرـتـعـدـتـ فـرـائـصـنـاـ وـخـالـجـنـاـ شـعـورـ مـخـيفـ جـرـيـرـةـ ذـلـكـ الـحـكـىـ
الـخـرـافـىـ .. بـيـنـمـاـ إـنـكـمـشـتـ سـمـاحـ عـلـىـ مـقـعـدـهـاـ تـجـيلـ نـاظـرـيـهـاـ بـأـرـكـانـ
الـغـرـفـةـ "ـ فـيـ وـجـلـ " .. إـلـاـ أـنـ الشـيـخـ لـمـ يـحـفـلـ بـمـاـ بـدـاـ عـلـيـنـاـ مـنـ
خـوـفـ وـإـسـتـطـرـدـ حـدـيـثـهـ ..

- وـفـيـ أـغـلـبـ الـأـحـيـاـنـ الرـصـدـ دـهـ بـيـصـيـبـ كـلـ الـأـطـفـالـ الـلـيـ فـيـ
الـبـيـوـتـ الـلـيـ حـوـالـيـنـ الـقـبـرـ .. وـيـتـحـولـواـ بـعـدـهـاـ لـمـاعـقـينـ ذـهـنـيـاـ
أـوـ مـتـخـلـفـينـ عـقـلـيـاـ .. مـيـقـدـرـوـشـ يـعـيـشـوـاـ مـنـ غـيـرـ مـسـاـعـدـةـ

أهلهم .. والنماذج من دى كتير فى منطقة أبو بيللو .. أكيد
شوفتوهم أو حتى سمعتوا عنهم ..

إقتصرت الحديث بملحوظة حول لهجة الشيخ لكسر حدة هذا
الحديث الداعى إلى الرهبة .. خاصة عندما شعرت بقدمى سماح
تصطرك رعباً .. وأحسست بحرارة وترق راحتها وهى تقبض
على راحتى .. فأومات لها بلحاظ عينى أطمئنها قائلاً للشيخ ..

- أنا ملاحظ إن حضرتك بتتكلم مصرى كويس ..

إرتسمت علىأسارير الشيخ إبتسامة شجية ..

- بتفكرنى بإيه؟ .. يابنى أنا قطعت من عمرى سبعين
حول .. جيت مصر فى سن التلاتين .. يعني أنا عشت
فيها أكثر من نص عمرى .. أكثر ما عشت فى بلدى "المغرب" ..

نظرت إلى فتحى مغتاظاً وهو يعيد الحديث السالف مستفهاماً ..

- وعلى كده ياشيخنا عندك كتب فيها الطلاسم اللي
بتساعدك في التعامل مع الجن؟ ..

ضحك الشيخ ضحكة هادئة ساخرة .. ثم تحدث بلهجـة حادة
جادـة ..

- كتب؟! .. كتب إيه يابنى !! .. أنا من عشيرة من الشيوخ
المغاربة ورثنا عن أجدادنا مخطوطات عمرها يزيد عن
التلت تلاف سنة .. يعني قبل عهد سليمان النبي ..
المخطوطات دى شديدة الخطورة على اللي يقرأها "
بجهل" .. ليها طريقة وليها نهج تتسرد بيها .. كتبها
قدماء المصريين في ذروة حضارتهم بطريقة غريبة ملغزة ..
فيها طلاسم تخصل أسرار الحياة والموت .. وطلاسم
إستخراج دفائن الأرض وكنوزها .. وتنطوى على حكمة
الأنبياء القدماء .. فيها كمان تجليات العلاقة البرزخية بين
الملوك السماوي والملكون الأرضي .. وحاجات تانية
أكتر من كدة .. عشان كدة هي أخطر مما تخيل ومش أى
حد يصلح يشيلها ويحوزها ..

قطع الشيخ إسترساسه إثر سماعه دوى هاتفه المحمول قال يحادث
من يهاتفه .. " مكررا ما يخبره به " .. وتلك الطريقة كانت
للإسثواثق من صحة المعلومات الواردة إلى مسامعه .. وكتقىس
من طقوس مهنته لإبداء الأهمية والقيمة والقدرة .. " لأمر
يدعوه الكثيرون .. خرافه ودجل " .. وينجلى هذا النحو إذا ما

كان أحدهم حاضرا .. فلا ضيم من تسريب تلك المقدرة إلى وشائجه شيئا فشيئا عبر العبارات المكررة .. والتى تطرق مسامعه .

قال الشيخ ..

- نعم .. وشكلها إيه الكورة دى ؟ ..

طب حطها جنب التليفزيون .. وقولى إيه اللي هيحصل ..

.. بيتفقل الجهاز تلقائيا وبتنور الكورة ..

طب وبالنسبة للراديو ؟ ..

.. بيحصل تشویش للإرسال ..

لقيت حاجة تانية معاها ؟ ..

لا .. ملهاش قيمة .. دى بس مجرد دليلة مكان ..

تمام .. طب إستنى منى مكالمـة .. كمان شوية .. لحد أـما

أتـأكـدـ منـ المـوـضـوـع ..

معـ السـلامـة ..

ثم وجه الشيخ حديثه لنا ..

- بعتذر .. ورايا شغل مهم .. هتصل بيكم بعد أسبوع من

النهاردة ..

وخلينا سبيله منصرفين بأشيلتنا .. وما إن غادرنا الساحة تماما
حتى أجرى الشيخ مكالمة أخرى ..

- ألو .. لقيت الشخص المطلوب اللي بتدوروا عليه .. لازم
نتخلص منه .. عرف أسرار أكثر من اللازم .. مكانش
لازم يعرفها أو يطلع عليها ..

.....

عدنا أدراجنا إلى حيث أتينا .. والأفكار والأحلام تطich بعقولنا
وتتناولح حول تلك الثروة التي سنجنيها من وراء متوج تلك
المقبرة .. كانت مشاطرة الشيخ لنا في الأمر نقطة تحول .. علقنا
عليها ما نربو إليه من طموحات وأمال .. وكان لقاءه بداية تطور
رهيب في حياة كل منا ..

وفي حقيقة الأمر إن ما شغل ألبانا وشاغلها .. وهيمن عليها ..
كان يخايل أذهان الكثيرين من أهالي قرانا .. وخاصة شبابهم ..
فلكلم داعبت كنوز الفراعين وجداهم .. وراوغت خلدتهم ..
ومنتهم بالثراء السريع .. ومنذ أزمان سحقيقة والحكايا تتوارد إلى
الأسماع .. وتجوب القرى من جدار إلى جدار حول هؤلاء الذين
حققوا تلك الثروة الفائقة ببيعة أثار واحدة .. فذاك الذي عشر

على مقبرة أسفل داره في باطن الأرض الطينية أثناء إحلالها وتجديدها .. والأخر الذي وجد تماثيل ذهبية وحجرية موءودة بالثرى بمحض الصدفة وهو يحرث أرضه وغيرهم الكثيرين .. وبات بعضهم يتحايل على الأمر للبحث " قاصدا " عن تلك الكنوز .. فيقوم أحدهم بإستئجار بيوت الأهلل بأجور باهظة جدا للتنقيب أسفلها .. وإن تعثر أمر الحفر " نتيجة تراص الدور وتلচص أهلها وإحتمالية أن ينبو الأمر إلى الشرطة بوشایة أحدهم " .. يقوم المنقبون الأثرياء بإستئجار الأراضي الشاسعة الخاوية .. الخافية بين دروب الفيء الجدبة القفراء بحجة إستغلالها كمحاجر للرماد والزلط والصخور المستخدمة في مواد التشيد والبناء " حتى يتأتى لهم إمكانية الحفر بحرية وأمان تحت دثرة عجيج المعدات الثقيلة كاللوادر وسيارات النقل والمهزات .. و إعطاء منطقية لأصوات وجلة الحفر بوازع أنها تبعات الإعتمال بالمحاجر " ..

ولم يعد الأمر خبيئ على أحد " حتى مخاطر التحرى والنقيب التى نعلمها جمیعا .. بل وعايشها الكثیرین " .. فالحكایا كثیر عن هؤلاء الذين ما إنفكوا أن ينقوبا عن خبایا الأرض .. حتى

تدهمت فوق رؤوسهم أبار الحفر إلى أعماق بعيدة .. أو
أصابتهم " ما نسميه بلعنة الفراعنة " المزعومة قبلة أفواه القبور
.. وربما إختنق صدورهم بنسائم القبر الجرثومية المعتقة منذ
آلاف السنين ..

ومتوج التنقيب والحفري والتحري عن الآثار من قطع نفيسة ..
كان يمایع خفية في الغرف المغلقة وخلف الأبواب الموصلة .. في
دثرة الليالي الظلماء .. ويُجذب من ورائها الحقائب المتفخمة بأوراق
العملة الصعبة .. التي باتت مراد كل متعلق والله يحلم بالقفز إلى
طبقة الأثرياء .. خاصة بعدما باتت الملايين والمليارات هي اللغة
النقدية الجديدة .. على إثر الترويج لها إعلاميا دون مباشرة عبر
المسابقات والبرامج والمقامرات العلنية .. وتم التمهيد والتسهيل
لهذا الأمر من خلال أرقام الهواتف المختصرة والسريعة ..

ولما بات الأمر ذائعا .. كانت كل بيعة أثار يشاع أمرها بين الناس
.. ولا يعرف بالضبط من المروج لها ومن المستفيد .. فيُعرف ذاك
الذى باع وذاك الذى إشتري .. وكم من المال جلب .. وربما
تروج أرقام خرافية وهمية لصنع آلة دعائية تهيج الأمانى وتثير

الرغبة الجامحة أكثر وأكثر .. لتكتسح الأذهان وتخترق دهاليز
السر إلى رحبة العلن ..

وبعضهم تسوقه قلة الخبرة وزهد المزاولة والمارسة ..
لإصطحاب ما جلب من قطع صغيرة .. إلى الخانات وبازارت
بيع التحف بقاهرة المعز .. على أمل أن يجد لها مشترياً هناك ..
فإما أن يبرم إتفاقاً مع أحدهم من المتخفين تحت سدل التجارة
بالتحف المشروعة ليطوى ويبيضن الممارسة الأصلية وهي تجارة
الأثار .. " وتراهם بوفرة في العاصمة " .. وهذا ما يندر حدوثه
.. أو الوقوع كصيد سيف للمحاتلين منهم .. وسواء أرضيت أم
لم ترضي فلن تخرج من الخان أو البazar قبل أن تتنهب نفائسك
خلسة .. ودون دراية منك " حين يسلب ناظريك المارة
والحوانيت والسيارات .. الزحام المستفز " .. إذ يبعث أحدهم
برجاله وراءك ليختلسوا ما حظيت في دثرة المارة والمتراحمين
لتعود إلى بلادك خالى الوفاض صفر اليدين .. خائباً " تحمل
خفى حنين " ..

وبمرور الوقت وتداول الأيام .. عرف جيداً " من هم موكلين
ومنوطين بإخراج تلك الكنوز الأثرية إلى خارج القطر " السبيل

إلى تهجيرها .. اذ قاموا بإبتداع الأفانين والخيال لتسويير تهريبها في خفية .. بتوطين القطع على سبيل المثال داخل تحف وأنتيكات مصريخ محلياً ودولياً بتداوها .. أو لنرى مثلاً جماعات البدو يغمرن التهائيل داخل شاحنات المواد البترولية .. حتى لا تشتمها كلاب الشرطة منها بلغت درجة تدريبيهم على تحري المحرمات وسفور سترها .. وتخرج تلك الشاحنات بتصاريف رسمية من مؤسسات تحمل سمت المناطق الحرة دولياً .. ولحكم الأمر تنشب على جدران الشاحنات شعارات وشيبات لشركات عالمية ذائعة الصيت .. "للتمويه" .. وحتى لا يفكر أحدهم في تتبع ورصد تلك الآثار بإستخدام إحدى الأليات والتقنيات الحديثة المطورة والمعبدة للكشف عن الكنوز" والتي لم تسلم من التحايل عليها وتضليلها ببيانات كاذبة "استخدمت أليات مضادة للتشويش على أنظمة الكشف والضبط .. وبذاك أصبحت القطع الأثرية في منأى عن أعين المترصدین والمراقبین والمتابعين "البشرية منها والألية "

ولقد ساهمت مساعدة بعض من الضباط المرتشين عديمي الضمير وقليلي الزمة .. وأصحاب المصالح في عبور تلكم

النفاس بأمان .. ولا ضيم أن تجد أحدا من القيادات العليا هو القائم بهذه المهمة .. بتنويه أو توجيه أو حتى مجرد مكالمة هاتفية .. وذاع الصيت أنها أن شهور يونيور ويوليو وأغسطس من كل عام هي الشهور المخصصة والمتفق عليها ضمنيا ومسبقا .. والتي بإمكانها إرجال من الشرطة وكبار المسؤولين للقيام بالمهام المنوطين بها في عمليات التسريب والتهريب ..

كانت قرانا في وقت ما تموج بالأقاويل والحكايا .. منها ما هو حقيقي وأكثرها ما لا يعدو كونه حديث المجالس والأسوق .. عن طقوس جلب هذه الدفائن النفيضة .. وممارسات تهريبيها .. ولكلم يخلو المجلس وتختلي الأعين بالأمانى إذا ما برزت حكايا كنوز الفراعين على أديم الحديث ..

هجر الكثيرين أعمالهم وتقاعسو راضخين وساروا مغيّبين .. يقتفيون أثار القبور وعلاقتها .. ولكلم أنفقـت الأموال الطائلة والثروات التليدة في سبيل فتح إحداها أو المتاجرة بالقطع الصخرية خرافية الثمن .. بعدما باتت حلم الأثرياء كما كانت حلمـا للفقراء المعدمين .. مما أفسح المجال للمحتالين والمخادعين والناهـيين للعب بعقول الواهـيين وأفـئدتهم .. وخاصة الوصـولـيين

منهم .. والإستيلاء على أموالهم ومحاصاتهم والتخفى إلى حيث لا رجعة .. وكثيراً ما روجت القطع المقلدة بحرفية وكفاءة فائقة .. والقبور الوهمية المؤسسة تأسيساً بارعاً على أنها أصلية .. فضاعت في سبيلها مقدرات الأهالى ومواردهم ..

تلك الحال عايتها بنفسى .. ووَقعتُ أَسِيرًا تَحْتَ زِيغَهَا وَبِرِيقِهَا .. جريرة الفاقة والعود وزهد الحيلة .. وكانت حالتى لا تقل وطأة عن حاهم .. فذات الحكايا مكررة .. المزيد من النصائح والوفرة من العقبات .. بيد أن شيئاً منها لا يطفئ نار القلوب وعطشها لذاك البريق اللالاء .. بصيص الأمل الذى ما لبث أن انفجر و إنقد و لمع كوضح النهار فى غياب الأذف وضيق الحال .. فلا رجعة ولا إستفادة إلا بكارثة .. " حتىما سيؤول إليها حالك .. كنتيجة منطقية خطوك المغمور " .. إلا ما ندر من ورثوا حظاً وافرا .. وفسحة من المقادير الجذرية ..

إلتقينا للمرة الثانية .. أنا وفتحى وسماح .. ومازالت مريجنا قلقا
بشأن المقبرة الثانية .. لما علمت ما بها من كنوز لا حصر لها ..
كان داخلى صراعا حامى الوطيس تدور رحاه حول سرعة
إقتناص تلك الفرصة " التي لن توافقك أبدا مرة ثانية " .. قبل
أن تند إليها الأيدي لتنزعها على حين غفلة منى .. وكان توترى
هذا باعثا لقلقلة سكينتى وسكنينة من هم ماضين معى في ذات
الدرب .. أو بمعنى أدق من أقحمتهم عنوة في هذا الأمر .. فقد
أجبرهم حبهم لى وخوفهم علّى على إحاطتى وعدم تخليه سببلى
وأنا أفتحم غمار تلك المخاطر وحيدا ..

حدثتهم بالمخاوف التي تحتاج جأشى وتموج به ..
وتتوسوس لى ليل نهار ..

- مش لازم نستنى أكثر من كدة .. مفيش وقت .. لازم
نتحرك بسرعة ..
فواجهنى فتحى يوارى ضيقه ..
- وإننا بإيدنا إيه نعمله ؟ ..

أومأت .. " بإصبعاي السبابه والوسطي " .. في إصرار حيث
عنيد قاصداً تنحية سماح عن الأمر ..

- هنروح أنا وإنت بكرة لحد البيت اللي فوق المقبرة ..

ونكلم صاحب البيت في الموضوع من غير ما حد يحس

بينا أو يشوفنا .. هنعرفه بإن الشيخ مرسي هييجيله خلال

يومين .. بخصوص مقبرة تانية .. من غير ما ندله أو

نعرفه على بابها نهائيا .. ويarityت نقوم بالمشوار ده النهاردة

.. هيكون أحسن وأسرع ..

فصاح فتحى وسماح في صوت واحد ..

- النهاردة؟! ..

وناهضتنى سماح قبل أن أردف مقالتى ..

- ولية الإستعجال؟ .. ليه مانستناش رد الشيخ؟

فواجهتها بكلامها بكمال جسدي قائلًا ..

- لو إستينا مكالمة الشيخ ده مش هيكلمنا ليوم الدين ..

فنظرًا إلى مساحتى في دهشة .. وإبتدرتنى سماح ..

- نعم !! .. قصدك إيه؟ ..

وأردها فتحى مستنكرًا ..

- يعني إيه الكلام ده ؟ ! ..

فأثرت إهتمامها ..

- أيوه .. زى ما بقولكم كده .. إنتو ملحظتوش إنه مخدش

رقم تليفون أى حد فينا ؟ ..

رد فتحى مصدقاً لحديثى ..

- تصدق صح .. إزاي مخدتش بالى ؟ ..

فنظرت إليه ثاقباً .. مستهجنًا غفلته وتناومه ..

- لأ ياباشا .. لازم تركز أكثر من كدة .. النوع ده من

العمليات " الخطرة " عايزة الصاحى والمفتح .. لأنها

متستحملش الغلط ولو واحد في الألف .. عقلى بيقولى أنه

ممكن حكاية المقبرة دي تنتهى وإحنا هنا غفلاتين ..

نایمين في العسل .. ومش هنعرف عنها حاجة مهمها

حاولنا .. إلا إذا إتحركتنا بسرعة .. ساعتها مش هيقدر

الشيخ يتافق مع صاحب البيت من ورا ضهرنا .. خلينا

نمسمك خيوط الحكاية من أولها عشان يبقى كل شيء

تحت السيطرة ..

فسألنى فتحى .. يسبطئنى ..

- طب وإيه المانع إننا نستنى لبكرة؟ .. علشان حتى نعرف هنديب الموضوع إزاي .. ونفكـر له في حبكة وتصـريف محـكم .. فـ نقطـت مـحتـدا ..
- بـكرـرـها للـمرة الـثـانية .. زـى ما العـملـيات دـى ما تستـحملـش الغـلط .. بـرضـه ما تستـحملـش التـباطـى والـغـفلـة أو التـأـجـيل .. لـازـم تـحرـك دـلوـقـتـى .. وكـعادـتها سـيـاح .. باـغـتـتنا بـعـنـادـها العـبـشـى ..
- أنا مـعاـكـوا خطـوة بـخطـوة .. فـاـضـ كـيلـى .. فـرـدـدت عـلـيـها منـفـعلا ..

- إنتى بتعملنى كل دة علشان تضمنى إنى هتجوزك .. أقسام
بالله العظيم هتجوزك .. مش لازم يعني تلزقنى فيا كده
خطوة بخطوة .. خلى عندك ثقة فيا وبنفسك شوية ..
حملقت في وجهى .. ونظرنى فتحى مستنكرًا فجاجتى وغضبتى
.. فشعرت حينها بأن مقالتى كانت صادمة .. فلم تكن بمحيطها
الصائب .. فحاولت أن أدى جملتى ..

- أعمل إيه في دماغك الحجر دى ؟! .. مش هيحصل اللي بتقوليه أبدا .. المشوار ده مليان خاطر .. ده مش زى مشوار الشيخ .. البيت حواليه غفر مسلحين ثم إنه فى منطقة مهجورة مافيهاش صريح ابن يومين .. لما نرجع هنقولك على كل اللي حصل ..
- إلا أن مقالتى لم تزح عن خلدها ما لفظت .. إذ طفت تنظرنى مقهورة "ترقرق عينها" .. قائلة ..
- ومين قالك إنى هموت لو متجوزتنى .. أنا بس مش هاين عليا العشرة القديمة .. أنا أصلاً زهدت فيك .. وفاض بيا من غشوميتك ولسانك اللي ما بيطلشى إهانة .. بكفاية بقا .. كفياك تحرج يا .. وكل أما تشوفنى تكسر بخاطرى قدام أصحابك وتحسسى إنك مجبور عليا تهزهز قلبى .. فإنديعت إليها أضمها إلى صدرى .. فتأبت وصدتني .. وتحجرت عينها تنظر إلى فتحى "الذى إغترق منا حرجاً وحياة" .. إلى أن تراخت يداها حسرة وكمنا ..
- حبيبتي .. والله العظيم ما أقصد .. أنا خلقى ضاق ومبقتش عارف أنا بقول إيه .. سامحينى .. مش هسامح

نفسى لو ما سا محظيتش .. أنا حاسس إنى أنا بغرق
وبضيع كل الناس اللي حواليا ..
فقط بصوت أخن أجش ..

- مفيش مشكلة .. متحملش نفسك فوق طاقتها .. أنا
حاسة باللى جواك ..

بيد أنها إستأنفت نطاحها ل وعنادها الأحمق ومعاذيرها الواهية
- بس برضه مش سايبياك تخاطر بحياتك لوحبك .. من غير
ما أكون جنبك ..

فخلفتها ضائقا و " أعطيتها ظهرى " .. بينما حدثها فتحى محاولا
إفراخ روعها ..

- متخافيش .. أنا معاه خطوة بخطوة .. وبعدين في الحقيقة
وجودك معانا ملوش لازمة ولا فايدة .. هتعطلينا ..
هناخد بالنا منك ولا من الخطر اللي مستيننا هناك ؟ ..

حملقت بوجهى .. وكأنى أغمد سكينا تلما بفؤادها .. فلم أنتبه
لذلك .. " ومن الهم ما يضحك .. أزت الطين بلة حين أردفت
مجودا " ..

- أه والله .. كلامك صحيح .. حبيتى .. مش صح لبنت
إنها تروح مشاوير زى دى .. وبعدين إعمل حسابك كل
اللى باقى من ترتيبات ومشاوير بخصوص الموضوع ده
ملكيش مكان فيها .. إحنا مش بنلعب .. غلطة واحدة
ممكن تضيع الكل .. دى أمور خطيرة جدا ..

أحسست أننا تكاتفنا عليها لنصغر من شأنها ومنزلتها .. وأن
تحاذلى قد جعل رفيقى يحترؤ عليها ويقارعها .. فشعرت بالهوان
.. وإلتمعت عينيها .. تكظم دموعا تأبى إلا أن تطفر .. وحدتها
رغبة مأسورة للإنتصار لذاتها فركب لها شيطان الغباء .. فردت
بحزم عنيد .. "عبثا" .. يتلعم منطقها قهرا ..

- هيا كلمة واحدة .. همشى وراكو لو أصرىتم تسيبونى ..
أشفقت عليها .. فحاولت ترخيية إحتقانها .. وترحيب أفق
صبرى .. فنطقت أهمس بصوت رخيم .. ماطا حروفى وكلماتى
- ماشى كلامك .. في الحالة دى .. معلش يا صاحبى
هتروح المشوار ده لوحدك .. زى ما إنت شايف عنيدة
ومش قادر أقنعها .. لو راحت هتبوا ظ كل ترتيباتنا ..

وأطلقت إليها إبتسامة مداعبة وكأنى أسترضى طفل صغير ..
بينما أجبنى فتحى " على الجانب الآخر " دهشا مستهجنا منطق
فيهى ..

- لوحدى !! .. إنت واحد بالك من اللي إنت بتقوله ؟ ! ..
أكيد لأ .. مش هروح عمرى لوحدى .. ثم إنى معرفش
مكان البيت ..

فأومأت إليه " خلسة " بلحاظ عينى " يتشنج جفني الأسفل
مراوغًا .. أحاول عبنا إرضاءها .. خافيا ما إنطوت عليه نفسي
من نية إبقاءها مغافلا ..

- متخافش .. الحكاية بسيطة .. وبعدين أنا هو صفتلك
مكانه بالظبط ..

فطن فتحى لنى فلم يزد .. بينما إقتربت من سماح أحادثها
بجدية .. حتى لا تنفصح تدابيرنا ..

- شوفتى .. أدينى سمعت كلامك ومش هروح .. طمنى
قلبك بقا ..

ثم نظرت إلى فتحى لأحكاً تمويه حديثى .. فأعطيته تبيانا واقعيا
للمسير على مسامعها " وذاك أنه ولفرط حذاقتى أعطيتها وصفا

دقيقاً لموقع البيت في السابق .. وأنا الأكثر تخوفاً أن تتلبسها نوبة الغباء فتتبعنا .. ولا يصعب على قريحتك بالطبع أن تعرف من الأغبي .. حقاً كما تقول .. أنا"

ثم خللت سبيله ليذهب .. بينما مكثت لبرهة معها .. ثم خرجت أتبue إلى أن لحقت به .. فأفهمته أن يتقدمني الخطو إلى موقع الأحداث .. كنت أعلم جيداً كم هي حاذقة .. واسعة الأفق .. لذا إنتويت اللحاق به ريشماً أطمئن أنها لا تترصد خطاناً فلربما لم تنطلي عليها خديعتي

.....

في تلك الأثناء كان ألمونيا وبركات في مكتب الضابط مدوح .. يؤتيانه بمعلومات هامة .. مفادها أن الشخص المقصود .. والذى قتل الضابط بحثاً عنه .. هو أنا بعينى .. كانت كل القرائن والأدلة تحوم حولى .. وخاصة بعد زيارتى للشيخ مرسي مؤخراً .. والذى بدوره قد أجرى إتصالاً هاتفياً بالضابط فيما سبق يعلمه بأمرى .. فتجمعت الشواهد كلها حولى بما لا يدع محطاً للشك والريبة ..

لم يتباطئ الضابط إذ إصطحب قوة متأهبة بكامل عتادها ..
وتحرك من ساحة مركز الشرطة رأسا إلى البلدة قاصداً إيقاعي ..
قبل أن يفدي خبر بهذه التحركات الخفية ..

.....

كنت آنها قد شارت أسفل الكوبرى العلوى .. ومكثت بالمقهى
لما يناظر النصف ساعة .. أترقب الطريق خلفى .. فتأكدت بأن
سماح لم تقتفي أثري .. أما فتحى فهازى عند أول الكوبرى وتحت
مرأى منى .. إلا أنه لم يرنى .. وبمجرد أن رأيته يستقل سيارة
أجرة .. هرعت مسرعا لأناهضه لتحرك سويا .. بيد أن السيارة
كانت قد غادرت مسرعة كالسهم المارق ..

لوّحت لسيارة أخرى أحاول اللحاق به .. ولكن حدث مالم
أحسب له حسابا .. فما إن إرتقى صندوق السيارة الخلفى ..
وببدأت في الإقلاع رويدا حتى بوغت بسيارة الشرطة تبت طريقها
إثر إشارة من ألمونيا "راكب في صندوقها المغطى كلص خائب
" .. أو ما بها صوبى .. فنزل منها إثنان من العساكر وإنقادانى
بأمر من الضابط "في مقدمة السيارة .. كضابط على شريعة
العصر .. يتخير مصادره ويعرف جيداً بمن يستعين" .. وأوّلت

تحت تصرفهم عنوة .. وسجاني في غمرة إستفهامي وإندهاشى
من علة الإمساك بي على هذا النحو ..

.....

فيها لا يدنو إلى ثلاثة أربع الساعة .. كان فتحى على مبعدة من
المنزل المقصود .. يتناول النظر خلفه متربقا يتظاهر قدومى ما بين
الفينة والأخرى .. بيد أن الفضول دعاه للترجل مقتربا من
ساحة المنزل .. عبر ماشيا خلال مدق صغير لا يعدو عرضه
زهاء الثلاثة أمتار ..

ظل سائرا إلى أن ناهز نهاية المدق .. وهناك رمق ثمة منزل ريفيا
وحيدا بين كومات الرمال المتحجرة الصفراء .. تحوطهأشجار
الجزورين وأدغال هزيلة من النخيل الصحراوى ..

كان قد إنطوى أن يبقى متخفيا بين التلال الخفيفة ريشاً الحق به
.. إلا أنه رأى مشهداً إسترعى إلتفاته عندما تحرك دائرا حول
أحدها .. ثمة ثلاثة من السيارات الخاصة وسيارة نقل صغيرة
تحوط المنزل .. إرتاب في الأمر .. وأصابه شيء من الجزع .. شعر
أن أموراً ما تدور هناك دون علمهما .. مما دفعه للتقدم دءوبا
.. تخته رغبة جامحة كاسحة ليستطيع ما يحدث ..

إقترب من محيط المنزل على مسافة قصيرة .. ثم ترجل مخترقا
السياح الخفيض بهدوء بمحاذاة الأشجار في آخر الممر المطل على
ساحة المنزل .. وعند موطن ما .. صدم بمرآى لم يتکنهه أو
يتوقعه .. إذ لمح الشيخ مرسى بصحبة إثنين من الرجال يحطون
على مقاعد متالية خرزانية أمام المنزل .. " بحيث كانت
ظهورهم إليه .. فلم يتکشف إليهم " .. وثمة خفيران مسلحان
يتتصبان في قبالتهم رأسا عند مدخل الساحة يترقبان الطريق ..

تحفى فتحى مسرعا فى خلسة خاطفة خلف جذع متذاقام لشجرة
كافور عتيقة تنسلل فروعها حتى قاربت الأرض بأشجار زهيدة
.. فوارته تماما عن الأنظار .. ورأى على الجانب الخفى البعيد ..
الخبيئ من المنزل عجاج أتربة يتصاعد كالدخان .. وتکهن أن
ثمة أصوات حفر بفوسوكواريك وأدوات أخرى تأتيه إلى عقر
مسامعه .. أرجأ ينظر ويرقب مغتاظا .. يردد في نفسه ..

- الله يخرب بيتكم .. إظاهر مصطفى كان عنده حق ..
معقوله تكون الدبكة دى كلها بيدوروا على باب المقبرة
الثانية؟! ..

حاول أن يتأكّد من صدق حدسه .. فترجل في هدوء فاتر رتيب
دائراً حول المنزل ليرى بأم عينه رهط من الرجال متقابلين
يزيلون التراب عن بقعة محددة من الأرض ..

.....

في تلك الأونة .. كان ألمونيا كعادته فياليومين السالفين يتلخص
منتصتاً في جوار بيت سماح .. وما إن رآها تجلس في وجوم كثيف
 أمام الباب تتبع قفزات إبنته اللاهية بين الأطفال .. شاردة
 تحاول أن تجلّ شفافيات المجهول البعيد .. حتى إقترب منها
 مباغتاً ومتطفلاً بسماحة وسفور ..

- ده إيه القاعدة الفقرانة دي ؟ .. هو حبيب القلب إتأخر

ولا إيه ؟ ..

فإنتصبت واقفة في تذمر ونفور ..

- جاتك نيلة .. إنت عايزة إيه مني ؟ ..

فقال لها متبحجا ..

- أنا جيت بس أقولك إن حبيب القلب ممسوك في القسم ..

مستنيكي على نار تزوريه ..

نظرت إليه مشدوهة ..

- القسم؟!! ..

فإستردى بجاحته وفطاطنه ..

- أية .. في ضيافة رئيس الباحث بيشرب شاي بحلب ..
وإنصرف من أمامها يمتلئ فيه بضحكه هوسيه سافرة ..

.....

كنت آنها في غرفة مكتب رئيس الباحث الذي طفق يحدثنى
بصوت فج ونبرة تنم عن عجرفة متشفية ..

- إنت بقا اللي مدوخنا وراك؟! ..
حاولت ند إتهام سينطلق به فيه ..

- أنا معمليش حاجـ ..

فبتر عبارتى قبل أن أتها ..

- هسس ..

وأوْمأَى ببنانه يأمرنى بالسكتوت إثر سماع رنين هاتفه المحمول ..
الذى رفعه على أذنه رادا نداءه ..

- ألو ..

تمام سعادتك .. قبضت عليه من شوية ..
زى ما حضرتك ت Shawf .. أنا فى الطريق ..

وأغلق هاتفه .. وإلتقط مفاتيح كانت تفترش سطح مكتبه
متعاجلا .. ثم خرج في سرعة ملحوقة .. وأوصى بباب الغرفة
.. جاءنى صوته من الخارج يأمر أحد العساكر ..

- إوعى يغيب عن عنيك .. خد بالك منه لحد ما أرجع ..
- تمام سعادتك ..

ثم فتح العسكري باب الغرفة على إثره .. ورمقنى بنظرة متحركة
تستوثر مكوثى .. ثم أغلقه .. بينما بقيت متتصبا أمام مكتب
الضابط .. وتراءى لي مشهده من النافذة قبالتى وهو يغادر ساحة
القسم مستقلأ سيارته ..

.....

أما عن فتحى فقد أفتضح أمره .. وتنبه الخفراء لوجوده ..
"يتلخص ويسترق السمع" .. فأمسكا به يجرانه أمام الجلوس
وهو يناهضهم بشدة .. وما إن رآه الشيخ مرسى حتى إنفض
ناfra من مقعده يهتف ..

- لقيتوا الوادده فىن ؟ ..

فنطق أحد الخفيرين ..

- لقيناه بيحوم حوالين البيت ..

ظل فتحى يقاوم قيادهم وإحكام إمساكهم حتى تمكن من إفلات قبضتها متنزعاً بندقية أحدهما .. وأشهرها يهدى الحضور جيئاً .. ولسوء طالعه ما كاد يفعل حتى باعثه وناهزه الشیخ مرسى بطلاقة نارية من مسدسه الخاص .. الخاف تحت معطفه .. فإستقرت في صدره إلى قلبه رأساً .. فهو صریعاً وسط برکة من الدماء ..

ذهل الجميع وران صمت مخيف مروع على ساحتهم .. وكان صاحب البيت أكثرهم ذعراً ووجلاً إذ إنفض بدوره من مقعده منظرحاً على الأرض إثر سماعه دوى الطلقة الجھوري يتردد صداه في جنبات الخواء الجدب ..

أحس الجميع تطيراً كثيناً لما تخلله تلك البقعة في كل مرة من قتلى ودماء ..

وتوقف العمال بدورهم عن الحفر .. وإنصبوا واجمین تقلب أعينهم .. لم يكسر حدة هذا الصمت المطبق الثقيل سوى صوت عجلات سيارة متازفة .. وقد إحتاج العجاج الترابي حولها .. نظر الجميع مشدوهين ..

كانت سيارة الضابط ممدودة .. وقف في الجوار إلى إحدى السيارات .. بينما هبط الضابط منها مذعوراً بمشهد تلك الجثة الملقة على الأرض .. غارقة في ثجيج الدماء .. فصاح هائجاً ..

- إيه ده؟ ..

فأجابه الشيخ مستوضحاً ..

- ده واحد من التلاتة اللي جولى البيت .. لقاء الغفير بيحوم

حولين البيت ..

فرجع الضابط بصوت مضغٍ ..

- الله يخرب بيتك .. إنت ما بفهمش .. هنعمل إيه في

الداهية دي؟

وترجل الضابط صوب سيارته .. طارقاً مقدمتها براحتيه في عنف شديد يختنق وجهه .. وما هي إلا هنيهة .. إبتلع شهيق عميق "ضجراً" ثم أدار وجهه شطر الخفراء .. وصرخ فيهم مهتاجاً ..

- شيلوا الحنة دي .. حاولوا تداروها لحد ما نشوفلها لها

تصريفة ..

فاقتصر الشيخ ..

- إرموها في مية الرياح .. ورا الهيش ..

ظلا الخفيران واقفين في وجوم ينظران إلى الضابط .. إلى أن
باغتهم صائحا .. مريجا بالغضب ..

- إيه .. مسمعتوش ؟ ! ..

فركض أحد الخفراء وجلب جوالا من الخيش .. وإقتربا من
الجثة ليدخلها في جوفه ..

شارفت الساعة الثامنة مساءا ..

تلبسنى الخوف والقلق .. إذ مازلت فى غرفة الضابط أنتظر ..
طاويا .. أفترش الملاط وألتحف سقفها .. مر ما يعدو الساعتين
وأنا في ذات هىئتي .. أصابنى ملل رتيب مريح ببرية غير مفهومة
.. وكانت الأفكار السيئة قد تزاحت وتصارعت في رأسي وفي
أرجاء نفسي الوحشة المقرفة .. المتطرفة .. أصابتنى بالقنوط
والضجر ..

دفعنى قلقى دفعا حثيثا صوب الباب أسترق السمع .. كانت
الأجواء وراء الباب شديدة المدوء وكأننى في بناء خربة ..
ترجلت بحرص شطر النافذة لعلى أرى شيئا يشعرنى بأنى
مازلت على قيد الحياة .. كانت الأجواء بالخارج أيضا خامدة .. لم
ألح إلا عسكري واحد في نوبة حراسته بالقرب من كشك صغير
تعلوه قبة مقعية ..

كررت إلى حيث كنت .. وثمة أفكارا تراودنى بأن تلك الفرصة
لن تتكرر .. وحالجتني نية مهتزة للهروب ..

ظللت متربداً لبرهة أتتني فشل محاولتي .. إلى أن إستجمعت قواي "أقول لنفسي كفاك جبنا" .. وإستوثقت من صدق قراري .. فوطنت العزم على التنفيذ "أحث خطاي خوفاً ما قد يناهزني إذا ما إنتظرت لمزيد من الوقت" .. وكمغامر شغوف أذكيت حماسى قبل أن يغض بريقه ..

إقتربت بهدوء تارة أخرى صوب النافذة .. وحاولت التركيز مستعماً ما سأفعله .. فتحركت في تأنٍ وروية وسحبت الضلفة الجرارة متريثاً .. أستجديها ألا تحدث صوتاً يسترعى إنتفاث العسكرية بالأسفل .. إلا أنها تحدثتني في عناد وأحدثت صفيرًا خافتًا بيد أنه لم يتتبه له .. فحمدت الله حسن صنيعه معى ..

ولكن ولسوء طالعى .. قبل نهاية الجرار صدر صوت صفير وأزيز مدو جامح أسمع القاصى والدانى .. فقد كانت الضلفة مغبرة بالأترية التي سقط بعض حباتها فأحدث الإحتكاك بها ذاك الدوى الملفت .. مما أصابنى برهبة خلخلت ركبتي ..

رفع العسكري "الواطن بالأسفل" هامته مستطلاً على إثر سقوط بعض السفاف على هندامه .. تحرك للأمام عدة خطوات ناظراً صوب النافذة .. فتراجع مسرعاً في خلسة .. أعض على

نواجذى من خيبة رجائى فى المحاولة الأولى التى أبىت وتنعنت أن
تم بسلام .. فذهبت سدى ..

ما إن تبين للعسكرى أن النافذة لغرفة رئيس المباحث .. فقد
القدرة على إبداء إستياء أو تحذير .. توقف فقط لبرهة يزيل ما
علق ببراته منأتربة ثم عاد أدراجه فى خنوع "يلتقى صياحه ويجر
جبنه" ..

شعرت أنها اللحظة المناسبة .. فتحاملت على رواعى وأخذتني
حماسة وليدة اللحظة فوثبت وثبة واحدة من الشرفة .. هاويا على
كاهل العسكرى .. فأمتعته ضربة عتية بقبضة يدى مدفوعة بقوة
السقوط من شاهق .. فسقط وإختل توازنه .. إنزعـت سلاحه
الميرى .. ورشقتـه على أم رأسه حتى تهدـل جسده وخـار عقلـه
غائـبا عن الوعـى ..

وداهمنى الخطر تارة أخرى إذ أنى لم أر هؤلاء المتتصبين عند
الدھليز الآخر البعـيد للقسم .. والذين بدورهم تنبـهـوا لما حدـث
.. فـهـبـوا من برـانـسـهـم مـتـأـجـلـينـ عـلـىـ يـسـتـفـزـونـ هـمـهـمـ لـقـتـالـىـ ..
لم يكن أمامـى فـسـحةـ منـ الـوقـتـ .. هـرـعـتـ إـلـىـ حـيـثـ تـسـتـقـرـ إـحـدىـ
سيـارـاتـ الشـرـطـةـ وـفـتـحـتـ بـاـبـهاـ بـعـنـفـ لـاـكـماـ سـائـقـهاـ بـقـوـةـ .. وـقـدـ

كان على وشك الخروج منها إثر سماعه للجلبة مما ساعدني على
إحكام ضربتي وحوكها .. إنزععه إلى خارج السيارة دافعاً إياها
بقدمي ليسقط طريحاً .. وركبت في محطة ..

إنقتدت السيارة مارقاً .. تأتيني الطلقات من كل إتجاه بيد أن
حركتي الرجزاجية أفلستنى من تصويباتهم .. إنطلقت أزمع ترك
السيارة حينما أشعر أنى بت فى مأمن من قبضاتهم .. تغرقنى
سيولاً من التوقعات السيئة ..

دلفت مسماً الطريق الإقليمي الخارج من المدينة .. كنت أقود
بسرعة جنونية .. كدت أن أصطدم عدة مرات .. لذا لم يتمكن
أحدهم من اللحاق بي .

.....

حينها .. كانت سماح قد إستقلت سيارةأجرة وإتجهت إلى المدينة
قادصة مركز الشرطة .. إثر ما سمعته من المونيا عن أمر
إحتجازى بالقسم ..

وبينما كانت قد شارت منتصف الطريق .. وأثناء وجودها
بالمقعد الخلفى للسائق مباشرة .. لمحتنى من النافذة على الطريق
المعاكس .. أقود سيارة شرطة وأخترق الطريق كرم حسمى ..

فتراجحت النار بصدرها .. فطفقت تناديني بصوت جهوري ..
بكل ما أويت من قوة .. إلا أن صوتها لم يصلني .. أسكرنى
تازفى وضيق فسحتى .. فظللت ماضيا في طريقي دون إكتراث ..
صاحت في سائق السيارة التي تستقلها .. فإستوقفته .. وهبطت
لاهثة مكروبة .. وعبرت الطريق متلهفة إلى الجهة الأخرى ..
شاهدتني على مبعدة منها وأنا أوقف سيارة الشرطة إلى جانب
الطريق .. وألوح إلى سيارة أخرى .. فصاحت تناديني بأعلى
صوتها .. إلا أن صوتها كان بعيداً للغاية .. مريجاً بفحيم
السيارات المارقة ..

توقفت سماح لبرهه تنتظر مقدم سيارة أخرى في هذا الإتجاه ..
والتوتر والرهبة ينهشان جأسها .. خاصة عندما وجدتني قد
ركبت مغادرا .. وما إن ظهرت إحداها إستقلتها .. تحاول
اللتحاق بي .. وفؤادها يختلج في نشيج عصبي .. إلا أنى كنت قد
خيّبتك في منأى عن مرآها ودثرني عجيج الطريق الغاص
بالسيارات وإبتلعني الظلام .. فتدفق نهر من القنوط يجتاحها ..
تتوالى في ذهنها كل الذكريات المأساوية التي مرت بها .. ويبدو
أن القدر ما زال يطوى لها المزيد ..

طفقت ماضيا إلى أن هبط عند كوبرى السمك " العابر للرياح الناصرى " .. وعلى يسار الكوبرى من الناحية الجنوبية ركبت سيارة أخرى .. وإندفعت تخترق زحام الطريق إلى أن إنتهى بي المقام عند تخوم منطقة أبو بيللو الأثرية .. وتلك كانت آخر نقطة يمكن أن تخوض السيارة خلاها .. لما يحف المسافة الباقية من مخاطر وعثرات ..

كان الظلام وكأنه بحر أسود ثقيل .. يدثر الخواء الشاسع الممتد بوشاح حalk أجاج .. جاثم في رسوخ يخلع قلوب أشجع الرجال .. مضيت أحمسس المدق الوعر المؤدى إلى المنزل .. كان يناظرنى مباشرة من بعيد .. مضاء وكأنه جذوة من نار .. أو بقعة وهاجة في هذا الليل البهيم .. إلا أن الدلجة جعلت منها حالة من نور مصفر شاحب ومريرض ..

ظللت متراجلا بحذر .. وما إن شارت سياج المنزل عند مقدمته حتى ذهلنى ذات المشهد الذى راع فتحى من قبل .. بوغت بمرآى السيارات تحف المنزل وتحوطه .. وكانت الصدمة الأكبر عندما رأيت سيارة الضابط ممدوح بينهم .. فإعتملت في نفسي الريبة والتوجس .. أتكهن حقائق لا أصدقها ..

سرت ملتفا حول المنزل .. لأقف في ذات المكان الذي إنتصب
فيه صديقى مراقبا قبلى .. ورأيت مشهدا لن أنساه طيلة ما عشت
.. وجدت الخفيرين يدخلان جثة لشخص ما في أحد أجولة
الخیش .. في البداية لم أميزها .. إلى أن إنجل أمامي وجهها تحت
وضح المصابيح .. وجه فتحى .. كانت الجثة له .. شاهدت بأم
عينى الدماء وهى تنسلل من نسيج الخیش ..

وقفت في مكانى متحجرًا .. مشدوها بهول ما أرى .. فاغر فاهى
.. أذكر أننى ولعدة دقائق لم أكن أصدق ما أرى .. فلربما كنت
أحلم .. أو ضربنى كابوسا مزعجا .. أسأل نفسى مرارا .. لهذا
هو فتحى حقا ؟ .. ويأتينى الجواب من أعماق أعماقى أنه هو ..
كدت أن أصم من صلصلة القدر فوق رأسى .. شعرت وكأن
قبضة عتية تقبض فؤادى تقاد أن توقف إختلاجه .. لقد فقدت
للتتو أعز أصدقاء ..

كان شعور رهيب بالذنب ينشب مخالفه في صدرى لينهشه .. لما
فعلته به جريمة دفعى له دفعا ليطوى هذا المسير المشؤوم ..
أتساءل ترى كيف قتلوه ؟ .. وأحسست حينها أنى أنا من قتله

عامداً متعمداً .. وضربني الكمد .. تتوالى في ذاكرتى كل أيامى
معه .. أراها بتفاصيلها ..

حاولت أن أغالب على ترحى الذى يعتصر قلبي إعتصاراً ..
وتابعت ما يحدث مشدوهاً مرغماً .. علىٰ أستطيع إنتشال جثته
الغرقى بين أيديهم الآثمة .. لأكرمه فى مثواه الأخير ..
رأيت الخفيرين يحملانه ويسيران به بإتجاه الرياح الناصري ..
وحدثت نفسى مرعوباً ..

- هتعلموا إيه الله يحرقكوا؟ .. يارب يكون اللي في بالى غلط
سرت وراءهما حريصاً متأنياً .. أدعوه ربى أن أكون مخطئاً في ظننى
.. فلن أتحمل أن أرى جثته تلقى أمام ناظرى في مجرى الرياح ..
إقتفيت أثارهم حثيثاً .. بيد أن سيارة قادمة أو قفتني قسراً ..
كانت وثيرة تقدمها أحزمة من الضوء الوهاج منبعثة من
مصالحها الضخام .. كانت تطل مباشرة في مواجهتى .. لذا لم
أسطع التحرك قيد أنملة ..

تحفيت خلسة .. إلى أن إستقرت على مقربة من السيارات وهبط
منها رجل .. وبدى أنه السائق .. ليفتح الباب الخلفي .. فإنجلـى
رجل يبدو من هندامه الشراء واليسـر ..

وذهلت وأصابنى ذعر شديد .. إذ كان الرجل اللواء طارق بحيرى .. وكنت أعرف جيدا .. رأيته عدة مرات بمركز الشرطة .. إنتصبت زهيد الحيلة .. أحملق .. يبدو أن القدر يطوى في طياته مالاً أعلم .. والأحداث تخفي الكثير مما يستبين تباعا ..

وقفت أفكرا مليا .. ما هي العلاقة التي قد تجمع كل هؤلاء في تلك الساحة ؟ .. حتى آنها لم أكن قد كونت فكرة واحدة محددة عن كنة ما يحدث .. وكان عقلى بات عصيا .. لا يصدق تورط هؤلاء في تلك التجارة المشبوهة

تجاسرت على هواجسى وريبى .. وإستفقت إلى صديقى المذبح وهو يساق إلى قدر مجهول .. ترجلت بهدوء أفقراً أثار الخفرين اللذين كانوا قد غادرا الساحة بالفعل وإنخفيا عن أنظارى ..

سرت دعوباً أتحرى محطات أقدامهم .. أنهب الأرض نهبا .. على أمل إنتراع جثة صديقى من أيدي هؤلاء السفاحين .. ولكن الوقت قد فات .. " من جملة ما عهدتوه من حظى العاشر " .. لقد تمكنو من عبور الطريق المحازى للمجرى المائى .. صبوا عليه جام إنقاهم بعدما أطقوها شعلته .. كدت أموت قهرا ..

وتتفجر من حلقى صرخة لوعة وحرقة .. وأنا أراهم يلقون
بجثته المثقلة بحجر عتى إلى عمق الرياح الناصري
تصلت لبرهه متحجرأ بأعين ساخطة عاجزة .. زجاجية وكأنها
لقتيل فقد حياته غدرا .. وأنا أراهم عائدين يتشاران وقد أنهوا
الأمر .. هكذا بكل بساطة ..

تحاملت على فزعى وروعى ودموعى التى طفرت رغمها عنى
فأغرت مسحتى .. وكررت متقهرا قبل أن يروننى .. "أركض
متعرضا .. أتقدمها صوب المنزل" .. وهناك وجدت المكان خاويا
 تماما إلا من سائق اللواء طارق المنشغل بالسيارة هناك بعيدا ..
فقد هبط الجميع إلى داخل القبر ..

رمقت الخفيرين خلفى وهمما يتقدمان نحوى شيئا فشيئا .. فما كان
منى إلا أن إستطاعت فوهة القبر .. وتسلىت هابطا عبر الدرج
الحجرى .. دون أن أفكرا .. لم أر أحدهم .. لم أسمع إلا همممة
تردد بعيدا في جوف الظلمة ..

.....

كانت سماح قد توجهت رأسا إلى حيث منطقة أبو بيللو .. على
إثر ما تذكرته من وصفى لفتحى " وما وصفته لها سابقا " ..

ويبدو أنه كان خطأى من جملة ما أخطأت .. ما كان يتوجب أن
تعرف موقع المكان ..

ظلت سائرة على غير هدى .. حتى أضاعها الطريق المقطوع
ونبهها .. ضلت عن الوصف لا تعرف يمناها من يسراها .. لقد
إبتلعت الرمال الجدباء بأكواها وتلاها المتناثرة بعشوائية علام
الطريق وملامحه .. ودثر الظلام كل ما يمكن تمييزه في تلك البقعة
ذات المديول المتداخل والمترافق عبثيا ..

حاولت أن تجد معلما يهدىها .. إلا أنها لم تكن ترى سوى مجرى
الرياح الناصرى على يسارها .. شريطا مائيا متدا فى عناد بلا بداية
وبلا نهاية .. ظلت ماضية هي الأخرى فى عناد مواز بمحاذاته إلى
أن لاحت كوكبة من أشجار التخليل بارزة عند جسر المجرى ..
فاقتربت منها .. وجلست عند صخرة صغيرة تنتظر ظهورى أو
مقدم سيارة من هنا أو هناك ..

كان الهدوء قاتم ومخيف .. والحيرة تقلبها .. الأصوات تأتىها
متمازجة خافتة وبعيدة .. ما بين فحيح ورنين ورفرفة وصداح
وطرق .. كلما أتتها صوت إلتفت صوبه فلا تجد إلا سرابا ناطقا
صامتا ..

بدا وَكَانَ مَكَانٌ مَا عَلَى مُبَعْدَةِ تَعْتَمِلُ بِهِ الْحَرْكَةُ وَالْحَيَاةُ .. بِيَدِ أَنْهَا
لَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تَحْدُدَ لِهِ إِتْجَاهٍ .. بَدَتْ كَالْسَّائِرَ فِي نَفْقَ مَدِيدٍ مَظْلُمٍ ..
تَأْتِي الأَصْوَاتُ تَبَاعًا مِنْ نَهَايَتِهِ .. كُلُّمَا سَارَتْ خَطْوَةً .. تَوَاتَرَ
الصَّوْتُ .. يَبْعَدُ تَارِةً وَيَقْرَبُ تَارِةً .. يَعْلُو تَارِةً وَيَخْفَتُ تَارِةً
أُخْرَى .. حَتَّى تَشَعَّبَ النَّفْقُ إِلَى أَنْفَاقٍ وَطَرَائِقٍ مُتَعَدِّدَةٍ .. لَا
تَعْرُفُ بِأَيِّهَا تَمْضِي .. وَأَيِّهَا تَخْلِي .. وَكُلُّمَا مِنْ الْوَقْتِ تَزْدَادُ حَالَتِهَا
سَوءًا وَضِيَاعًا .. حَتَّى بَاتَتْ يِرْثَى لَهَا ..

.....

أَمَا فِي جَوْفِ الْمَقْبَرَةِ .. لَمْ يَكُنْ حَالِي يُخْتَلِفُ كَثِيرًا عَنْ حَالِهَا .. فَقَدْ
كُنْتُ أَسِيرًا مَغْمُورًا بِالْسُّوَادِ الْفَاحِمِ وَالظَّلَامِ الدَّامِسِ .. وَعَلَى
عَكْسِ حَالِهَا فِينَا كَانَتْ هِيَ تَحَاوُلُ الظَّهُورِ وَالتَّكْشِفِ لِأَى عَابِرٍ
يُلْتَقِطُهَا مِنْ غِيَابِهَا .. كَنْتُ أَحَاوُلُ قَدْرَ جَهْدِي التَّخْفِي حَتَّى لَا
يُفَتَّضِحَ أَمْرِي .. سَرَتْ أَتْلَاصِصُ وَأَسْتَرْقُ السَّمْعِ .. أَرْهَفْهُ ..
كُلُّمَا سَرَتْ خَطْوَةً كَانَتِ الْجَلْبَةُ تَقْرَبُ شَيْئًا فَشَيْئًا .. وَوَضَعَ
مَصَابِيحَهُمْ يَتَوَهَّجُ وَيَسْتَبِينُ صَدَاهُ عَلَى الْجَدْرَانِ تَبَاعًا .. إِلَى أَنْ
إِنْجَلَتْ لِي أَشْبَاحُهُمُ الْسُّودَاءُ الْمَرْسُومَةُ بِظَلَالِ وَمُحِيطَاتِ صَفَرَاءٍ
.. إِتَضَحَتْ أَمَامِي مَعَالِمُ الْمَكَانِ .. لَمْ تَكُنْ الْمَقْبَرَةُ الْأُولَى مَا يَعْنِي

أنى قد أكملت الدرج الحجرى إلى عمق القبر الثانى " دون قصد
" فقد أعمتنى الظلمة عن دلائل الطريق إلا أنى إتبعت حدى
وحواسى فناهزتهم

كان الشيخ والضابط مدوح واللواء طارق وصاحب المنزل
والعاملان أمام مرأى مباشرة .. يغتررهم صمت رتيب مطبق ..
لا تسمع إلا طرقات أقدامهم وخفيف أثوابهم إثر إحتكاكها
بالجدران .. إستغرقوا هنيئة في هذا الهدوء الجاثم إلى أن دار
حديث إستهله الشيخ مرسى ..

- بسم الله ماشاء الله .. ده إيه الخير ده كله !! ..

وقفوا لبرهة مشدوهين يقلبون القطع والتماثيل .. بينما كان
الشيخ يحمل جهازا صغيرا .. فائق التطور .. يكشف عن
الفراغات خلف الجدران المصمتة .. طفق يمرره بأديم كل جدار
يشارفه .. بحثا عن أية حجرات أو قاعات خافية خلفه .. وذلك
عن طريق تسليط نوعا من الأشعة الخارقة تعبر الكتل الضماء
وتكشف عن الفراغات البينية فتعطى تبيانا بها ..

وعلى حين غرة .. إنبعث من الجهاز صوت رنين متذبذب "أشبه بإشارات موريس أو تلك الأصوات الإشارية المعبرة عن نبضات القلب" .. حينها إنبسست أسارير الشيخ مبشر اللواء طارق ..

- أبشر يا حضرة اللوا .. لقينا فراغ تانى لمقبرة تالتة .. وده

معناه إن المقبرة متشعبة ..

فتعجب اللواء متسائلا ..

- وده معناه إيه؟ .. ليه أهمية يعني؟ ..

فقال الشيخ مستوضحاً الأمر ..

- أهمية عظيمة .. القبور المتشعبة كانت بتتبني زمان لأعاظم

الفراعين .. وطالما بدأنا بقبر كهنوتي .. يبقى لسة قدامنا

القبر الملكي .. وعلى قد ما لقينا من كنوز في المقبرة الأولى

والثانية دى .. فالقبر الأخير للفرعون بتعدى كنوزه

أضعاف مضاعفة

حاول اللواء التأكد مما سمع ..

- إنت متأكد من الكلام ده؟ ..

فأجاب الشيخ بنوع من الإسهاب ..

- ياباشا الموضوع كبير ونادرًا لما يحصل حاجة زى دى ..
طول عمرى وأنا شغال فى التنقيب .. ملقيش قبر
متشعب مليان زى ده غير مرتبين .. ودى المرة الثالثة ..
ومن سنين طويلة وأنا بدور ورا تاريخ القبور المتشعبة ..
عرفت إن ليها نظام ترتيبى معين .. متدرج .. بيبدأ بقبور
الكهنة وبعدين كبار حاشية الفرعون وخاصة .. وبيتهى
بالقبر الأكبر الخاص بالفرعون نفسه .. وكل قبر له باب
يفتح من القبر اللي قبليه .. إلا القبر الفرعونى له باب
مستقل مبيفتحش إلا مرة واحدة بس عند دفن الفرعون
.. وبيتفعل بعديها على عمق بعيد فى مأمن من اللصوص
والحرامية .. وده على عكس القبور اللي فوقيه اللي بتتفتح
أكتر من مرة .. كل ما يجوا يدفنوا كاهن أو واحد من
حاشية المعبد أو القصر الفرعونى .. عشان كدة خلو
لمقبرة الفرعون باب مستقل يفتح من برة القبور الثانية
الملحقة .. وبيبقى فيه من الكنوز مالا يخص ولا يمكن
تصوره .. تاخد العين والعقل ..

ومابتحصلش الظاهرة دى " إنه يبقى فيه قبر متشعب
بيضم قبور كهنوتى وفرعونى " إلا لما يكون قصر
الفرعون على وفاق مع المعبد الكهنوتى .. وده نادر
الحدث في التاريخ الفرعونى ..

ضاق اللواء بهذا الإسترسال الذى إعتبره عبثياً وعديم الجدوى ..
.. فقال مقاطعاً ..

- سيبك من الرغى والكلام الفارغ ده .. فين نلاقي الفتحة
المستقلة بتاعت المقبرة الملكية دى ؟ ..
فنظر إليه الشيخ في رزانة متأنياً ..

- لسة هندور عليها ..
حينها أصدر اللواء أوامر ..

- خلاص .. إنمى أمر المقبرة دى الأول .. خلى رجالتك
يرفعوا كل اللي فيها .. وبعدين نبقى نشوف الحكاية دى
فنظر الشيخ إلى العاملين قائلاً ..

- فضوا القبر خالص .. إرفعوا كل اللي تقدروا ترفعوه
بالإيد .. كبير كان أو صغير ..
ثم وجه حديثه إلى اللواء والحضور ..

- إتفضل سيادتك نقعد برة لحد ما يخلصوا نقل .. وسع
للباشا يابنى ..

وما إن سمعت أصوات أقدامهم تتقدّهر .. حتى عدت أدراجى
أتخبط في الجدران يمنة ويسرة .. ولو لا جلبتهم وعلو أصواتهم
لإنفصح سترى .. شعرت أن أمري على وشك التكشف .. فأنا
أجهل طريق العودة .. فما كان مني إلا أن إلتقطت عتلة حديدية
كانت باقية من معدات العمل .. وكنت قد تعثرت بها أثناء
سيري خلفهم .. "تحسبا لأى خطر إذا ما ساءت الأحوال" ..
خرجت أمامهم في هدوء وحرص .. متخفيا في البقاع المظلمة
والظليله حتى لا أتكشف تحت أصوات مصابيحهم الفاضحة ..
شارفت الدرج الحجري .. وقبل أن أصل إلى نهايته .. سمعت
أصوات الخفريين يتناوبان الحراك بالخارج "حول فوهه القبر"
.. أرجأت لبرهة مشلول التفكير والحركة إلى أن وطنـت العزم ..
طللت برأسى وإرتقيت بحرص شديد على الدرج الحجرى ..
أتوخى الخذر .. وحسن طالعى أن كان أحد الخفريين منهمـكا "
تراه متـعثرا في إشعـال سيـجارة إذ كانت الهـبوب شـديدة" ..
فإقتـنـصـتـ الفـرـصـةـ وـوـبـتـ إـلـيـهـ بـضـرـبةـ قـوـيـةـ نـافـذـةـ "ـ تـوـجـعـ أـغـلـظـ

الرؤوس " على أم دماغه .. فشجتها وأفقدته توازنه .. فإنزعت بندقيته .. بيد أنى لم أتمكن من صفع الخفيير الثانى .. فما كان منى إلا أن أسقط سلاحه بضررية من مؤخرة البندقية فى يدى .. وأبعدته عنوة عن باب القبر .. وأركعته ورفيقه يلتصقان بالأرض ..

طفقت أشهر سلاحى صوب الفوهه المظلمة فاغرة الفاه " على إثر دنو الأصوات الصاعدة وتضاصخها " .. وما هى إلا هنيهة حتى إرتقى اللواء برأسه ثم جسده ليفجأ بالمشهد فصاح ..

- إيه ده ؟ ! ..

فلحق به الضابط مسرعا إثر سماعه صوت جزعه ودهشته .. إذ أحس أن غدرا ما يحيق بهم .. فإرتقى شاهرا مسدسه .. وما إن لمح شبحى الواقف مهددا حتى أطلق عيارا ناريا مرق بجانب رأسى يفصلهما زهاء عدة سنتيمرات .. فتراجع متآزفا .. متقهقرًا أتخبط في رجل .. حتى تعثر كاحل إحدى قدمائى عند حافة صخرة معبدة من الجرانيت الصلد .. كانت متدرثة في الهيش المتكافئ ..

ولا أعلم لم كررت بذاكرتى في تلك اللحظة بالذات إلى ما سمعته من فيه الشيخ مرسى أثناء وجودنا في عمق القبر ..

- .. "القبر الفرعونى له باب مستقل" ..

" خاجلنى ظن أكيد أن الباب المنشود هو ذاته تلك الصخرة الجرانيتية المعبدة .. الخبيثة عن الأنظار .. وكانت أسبابي وجيهة .. باديرها أن تلك البقعة بعينها بقعة بكر .. لم تفض بكارتها بفأس أو معدة ألية .. علاوة على أنه لا يقطن ساحة أبو بيللو وأجوارها سوى عربان البدو .. وذاك الرجل صاحب المنزل من العرق الفلاحى .. مما يعني أنه حديث العهد بتلك المنطقة .. لم يعبد بها أرضا ولم يزرعها ..

وبالتبعية فإن هذا التكتل من الهيش ليس وليد عام أو إثنان وإنما أعوام .. بالإضافة أن نباتات الهيش والنجليل وما شابه لا تزرع بيد بشرية فهى نباتات طفيلية .. تنمو ربانيا .. أينما وجدت البيئة المناسبة من ماء وأرض .. وربما أرض فقط .. أو نباتات تسلب خيرها .. كما أن لبعضها أشواك حادة كالإبر .. تقصى أى معتد عليها .. وهذا ما رأيته بأم عينى في ذات البقعة العذراء .. تكتل

بالغ الكثافة من الهيش المتوجل القديم ذو الإبر الحادة يدثر حجرا

معبدا .. يبدو كغطاء بئر أو قبر ..

كما أنه المعلوم عن مقابر منطقة أبو بيللو أن بعضها يتوطن طافيا

قبيل سطح الأرض .. ورغم العوامل البيئية والرمال المائجة بها

ليل نهار إلا أنها لم تتأثر .. فلم توارى أو توئد تحت طبقاتها ..

تنجل أغطيتها مرارا .. وكأن شيئاً ما يبيت ساهرا عليها فيمنع

تدثرها في طيات الكثبان .. وتلك كانت إحدى عجائب تلك

"المنطقة الغرائية التي إفتقرت التفسير والتأويل .."

وقدت هاويا على ظهرى إثر تعثرى .. متألماً بأنياب الهيش التى

رشقت أنحاء جسدى .. ومتاثرة بحافة الصخرة الصلدة التى

لوّحتنى .. تحاملت على أوجاعى وتحايلت عليها .. خيفة أن

ينفلت قياد السلاح بيدى .. أطبقت أصابعى بقوة وعنف على

زناد الألة .. "متخبطاً ترتعش أصابعى" .. فإنبعثت منها

الطلقات النارية فياضة بعشوائية .. دون قصد ودون إرادة منى

وكانـت الكارثـة التـى لم أحـتـذر لـهـا .. سـكـنـت إـحـدى الطـلـقـاتـ فى

رأس اللواء طارق فأردته صريعا .. وأخرى إخترقـت ذراعـ

الضابـطـ مدـوحـ .. فأصـبـتـ بـرـعـبـ وهـلـعـ شـدـيدـ .. وأـفـقـدـنـىـ ذـعـرىـ

تماسکی وصوابی .. فإنفلت قياد السلاح من يدى منظرها إلى
جوارى على الأرض .. بينما ذهل الحضور .. أسكرتهم الكارثة ..
ظللت متصلباً جاحظ العينين .. لعدة لحظات .. ترتجف قدمائى
من فرط التعثر والإرباك .. وتعلق ناظرى متواتراً .. أرمق
الصخرة تحت قدمائى تارة .. وإلى الوقوف الذاهلين تارة أخرى
وما هي إلا لحظات .. حتى إستفاقت من غيبتها .. إلتقطت
سلاحى قبل أن يناهضنى أحدهم وأشهرته قبالتهم مهدداً .. "إذ
تكدسى باقى الرجال فى ذات البقعة .. من سائقين وعمال
وحراس .. إثر سماع أصوات الطلقات الناريه .. وكأنى قطعة
سكر إلتف حولها نمل الصيف الشره" ..

كان الضابط حينها منظرها يتالم بشدة .. قابضاً براحته ذراعه
الأيسر المصاب .. وما إن فطن وألم بها حدث .. تساند بذراعه
الأيمن يرمق جثة اللواء طارق .. هنيهة .. وإنفجرت من حلقه
صرخة .. هائجاً في وجهى ..

- ياخبول .. إنت عارف إنت عملت إيه ؟ ..

لم ألق بالاً لحديشه .. فلن يجرى أكثر مما جرى .. ولن أذبح في
عزيز أكثر من صديقى المسفوك دمه بصناعة أيديهم ..

لاحظت أنه الأعين قد شدحت وإسترعى إلتفات الوقف
أصوات جلبة العمال الصاعدين من عمق القبر .. "الذين يبدو
أنه لم تبلغهم أصوات الطلقات .. منعتها وأضاعتتها الجدران
بالغة السمك من المرور إلى مسامعهم" .. وإستحوذ مشهد
الصندوق المحمول من الأسفل .. الحاوي للقطع الذهبية .. على
أنظارهم ..

ما إن إشرئب العامل بصندوقه إلى السطح حتى اعتمل حراكا
خفيفا بين تلافيفهم .. إلا أنى ناهضت نزعاتهم ورغباتهم
بسلاхи صارخا ..

- هيا طلقة واحدة هخرم بيها راس اللي يتحرك ..
متفكروش حتى .. وبعد عن الفتحة إنت وهو ..
وأومأت إلى العامل بأن يكمل صعوده .. وأن يضع الصندوق
أرضا ..

- حطه هنا .. وهات الشنطة دي وفضي كل اللي في
الصندوق فيها .. يالله بسرعة ..

فإنصاع العامل وجلا .. وطفق يخرج القطع بحرص ويودعها
الحقيقة المقصودة .. " ويزيغ عينك أنها جمیعا قطع ذهبية " .. بدا
أنها أنفس وأغلى ما في المقبرة ..

وما إن أنهى العامل عمله .. قلت محدرا
- أقف على جنب وحط إيديك ورا راسك .. متتحرکش ..
أنا بحذر مرة واحدة والثانية بموتک ..

وفي أقل من دقيقة .. صعد العامل الثاني بصندوقه ..
فأشرت إليه بأن يفرغ صندوقه بذات الحقيقة .. وقام بالعمل
حتى فرغ الصندوق تماما .. فأمرته أن يغلق باب القبر .. " فلا
أعرف من ذاك الطارق الذي يطوى نية الغدر وقد يباغتنى نافرا
من الأسفل ، ربما كان شخص أو أى شيء آخر تغيب عنى كنته "
كان على المرآى القريب حبلا من الليف .. ضمن أدوات الحفر
المتناثرة .. أو مأت إلى العامل الثاني بإلتقاطه .. وأركعت الباقين
قسرا وأمرتهم بأن يضع كل منهم راحتيه متقاتعتين وراء ظهره
.. بينما أشرت إلى العامل بتوثيقهم جمیعا بذات الحبل .. ما إن
إنتهى العامل حتى أطلقته عيارا ناريا وطن في قدمه اليمنى فسقط

منظرها .. ثم تحركت نحوه حذراً أو ثقى بنفسى .. وتأكدت من
أحكام وثاقهم جميعا ..

كنت قد أزمت المغادرة .. بيد أنه لم يكن بإستطاعتي ذلك دونها
أن أتأكد من عدم قدرة أحدهم على ملاحقنى .. كما كانت
تحدونى الرغبة للثأر لصديقى .. إلا أنى أحكمت السيطرة على
تأثيرى .. فتعالىت على أوجاع جائشى وناره أنتوى الإنقام فى
وقت آخر وفي ظروف أخرى .. فما شغل لبى آنها سوى الهرب
من تلك الساحة الخطرة بما حوت .. قبل أن تدور الدوائر وأجد
نفسى فريسة سيحة بين براثن تلك الزمرة الغادرة .. وما وراءهم
من مافيا أخطبوطية فاسدة ومفسدة ..

إلتقطت الحقيقة .. وقد كانت ثقيلة للغاية .. فتقاويمت أرفعها على
ظهرى .. وطفقت أطلق سيل من الأعيرة النارية على نحو عابث
عشوائى .. صوب كل إتجاه .. أرشق الظلمة التى قد تطوى
خطراً ما يترصدنى متربقاً ولا تراه عينى .. ثم هتفت أرعد مهدداً
الأسرى ..

- هصفى كل اللي يحاول يتحرك شبر واحد .. حذاري ..

ثم إنطلقت إلى سيارة اللواء الوثيرة .. " ولا أخفيك خبرا فقد
وقع إختياري عليها بالتحديد .. فقوتها تخطف العين وتتوقع
نفسك لأرجحة مقودها والإنتشاء بأنظمتها .. علاوة على أنها
من بين السيارات المترادفة الأصلح للهرب الخاطف السريع ..
تلك العفية ذات الدفع الرباعي مما يعطيها عزما ينسف كومات
الرمال تحت عجلاتها نسفا .. فتخترق عباب الفيفاء دونها تعاشر ..
وكانك تخلق بطايرة "

إستدرت بالسيارة مارقا .. محدثا عجيجا ترابيا كثيفا .. وإندفعت
كرمح سمهرى مغادرًا المكان ..

وبعد برهات مديدة .. كان الضابط وصحبته قد تمكنوا من تحرير
وثاقهم بعد عناء شديد ومحاولات جمة .. إجتاحت الضابط فورة
من الغضب العارم الكاسح .. طفق على إثرها يثبت صارخا من
فرط شعوره بالذل والفشل اللذان كسرا أنفه .. فصاح تنفجر
شرابينه ..

- أه يابن ميتين الكلب .. ياصايع ..
ثم ثار هائجا في سحنة الشيخ المصدورمة ..

- خليةم يقفلوا الفتحة كويس .. ويرجعوا كل حاجة
مكانتها ..

وأشار إلى أحد الخفيريـن بأن يحمل جثة اللواء .. وقال دون تريلـث
أو تفكـير ..

- إخلص من الجثة دى حالا .. إرمـيها فى الـرياح ..
وصـاح سافـرا ..

- غورـوا فى داهـية من هـنا بـسرعة ..

وتحـرك رأسـا صـوب سيـارته .. يمسـك بـذراعـه المصـاب والـدماء
تتسـاقط وتنـثال غـزيرة .. تـشرـب الرـمال حـمرـتها القـاتمة .. أدارـ
السيـارة بـعنـف " متـلهـفا كـالمـكتـوى بالـنـار " .. وـسـار منـدفعـا يـحاـولـ
الـلـحـاق بـى .. إـلا أـنـى كـنـت قدـ تـقدـمـته بـمـسـافـة كـافـية لـضـمانـ
هـروـبـى آـمـنا .. وإـختـفـائـى عنـ مـرـماـه ..

"١١"

بينما كنت أمسك الطريق بسيارة اللواء بأقصى سرعة .. وتحت
أصواتها القوية .. وحزمها الكاشفة .. خيل لي بأنى قد رأيت
سماحجالسة عند صخرة على جسر الرياح .. بدا ما رأيته وكأنه
طيفا .. من فرط ما جرى لي في تلك الساعات الزهيدة .. إلا أنه
توجب على التأكد بنفسى " ولو أنك في مثل ظرف العسر فلن
تعول على شيئا على الصدف حتى القدرى منها " ..

أوقفت السيارة بعنف .. حتى كادت أن تنقلب على جانبها
الأيمن .. أحدث إحتكاك العجلات بالطريق الجبلى الصلد دويا
صارخا مريبا .. وأخلف وراءه هياجا شديدا غامرا من الغبار ..
تقهقرت لمسافة قصيرة حتى كنت أمام الصخرة مباشرة ..
فبوغت بأنها سماح بالفعل .. وأن ما رأيته لم يكن وهما أو طيفا ..
كانت تشب كالجنونة تلوح لتلك السيارة التي مررت بجانبها ولم
تلتفت لنداءاتها .. صحت بها مرتكبا ..

- إركبى .. إيه اللي جابك هنا ؟ ..

فردت تنظرنى فى لهفة ..

- ألمونيا قالى إن الظابط قبض عليك .. إيه اللي حصل ؟ ..

إِحْتَقَنَ وَجْهِي غَيْظَا وَتَغَرَّ الدَّمُ فِي عَرْوَقِي ..

- أَلْمَوْنِيَا؟! .. أَلْلَاهُ .. حَسَابَهُ تَقْلِي مَعَايَا قَوْيِ .. نَهَايَتِهِ عَلَى ..

إِيْدِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ ..

سَأَلْتُنِي تَسْتَوْضِعُ الْأَمْرَ ..

- إِيْهُ اللَّهُ حَصْلَ؟! .. وَفِينَ فَتْحَى؟! ..

فَتَغْيِيرَتْ مَلَامِحِي وَتَقْلِصَتْ أَسَارِيرِي فِي أَسَى ..

- فَتْحَى مَاتْ .. إِنْقَتَلَ ..

صَدَمْتْ سَمَاحَ إِثْرَ سَمَاعِهَا الْخَبَرَ الْمَرْوِعَ .. شَدَهْتْ وَفَغَرْتْ فَاهَا ..

وَأَخَذَ حَاجِبِهَا شَكْلَ هَلَالِينَ شَدِيدِي التَّقوْسَ .. وَإِنْفَرَجَتْ

عَيْنِيهَا عَلَى وَشَكَ أَنْ تَمْزَقَ مَحِيطَهَا .. كَادَتْ أَنْ تَفْقَدَ صَوَابِهَا

إِرْتِيَاعًا ..

- يَا مَصِيبَتِي! .. قَتَلُوا فَتْحَى؟!! .. قَتَلُوهُ إِزَايَ؟ .. وَإِنْتَ

كَنْتَ فِينَ؟ ..

وَدُونَ إِرَادَةِ مِنْهَا أَطْلَقْتَ صَرْخَةً مَفْزِعَةً .. وَطَفَقْتَ تَولُولَ

وَتَنْدَبَ .. وَتَلَطَّمَ وَجْهَهَا تَارَةً .. وَتَضَرَّبَ بِرَاحِتِيهَا عَلَى صَدَرِهَا

تَارَةً أُخْرَى .. يَتَعَاظِمُ نَحِيبِهَا شَيْئاً فَشَيْئاً .. قَلْتَ فِي مَرَارَةٍ ..

- دبحوه الأندال بسکينة تلمة .. شوفتهم بعينی بيرموه في
الرياح ..

نظرت إلىّ تطفر عينها الدموع مدرارة حارة ..
- إزاي تسيبهم يعملا كده في صاحب عمرك ؟ ! .. يامهوی ..
.. يامهوی ..

صرخت فيها أن تكف عنها تفعل .. فسكتت لتوها .. إلتقمت
صراخها وكتمته في جوفها .. بينما ظلت الدموع تنهر من عينيها
بغزاره .. وأساريرها تنقبض وتبسط صدمة وروعا ..
لم يكن لدى متسع من الوقت لأفكفف دموعها .. فمضيت
بالسيارة مخترقا سدل الظلام .. دون أن تنبولي كلمة .. وما هي
إلا دقائق من السير الجنوبي .. حتى أوقفت السيارة على الجانب
الأيسر من المجرى المائي .. عند حافة كوبرى السمك العابر ..
هبطت أحمل الحقيقة الثقيلة .. وأسحب سماح من يدها .. وأحدث
سيرها المتهدج المنكسر أن يسرع الخطى .. ترجلنا نبتعد شيئا ما
عن السيارة حتى ناهزنا الضفة الأخرى من المجرى " جسرنا
الكوبرى الصغير " .. عبرنا الطريق ذو الحارتين .. وسرنا إلى
الجانب من مستودع للجبوب ذو سطح مكشوف ثم إندسست

متحفيا في ظلمة دغل من الدوم .. بينما أطلقت سماح إلى
الرصيف الرملى للطريق تلوح لإحدى سيارات الأجرة القادمة
.. والمتوجهة صوب البلدة القديمة ..

.....

أوقف الضابط سيارته بعدما قطع شوطا ليس بالمدید زهاء
الكيلو متر من ساحة أبو بيللو وصولا إلى كوبرى السمك ..
عندما لمح سيارة اللواء طارق راسية على جانب الطريق في حالة
رثة ..

اقرب من السيارة ليجدها خاوية تماما .. وأبوابها منفرجة بهيئة
ملفتة .. " داعية للدهش .. وكأنى عمدت ألا ينتشى بها أحد
بعدى " .. كظم غيظه وأطرق للحظات بيد أنه ما لبث أن صرخ
غاضبا ينهش الكمد صدره ..

- آآآآآآه .. يابن الكلب .. يابن الكلب ..

ثم هرع إلى سيارته وأدارها مهتاجا .. يتحرانى على الطريق
المتجهة للبلدة ..

.....

آنها كنت قد أوقفت سيارة الأجرة عند تخوم البلدة القديمة ..
على رأس أحد مداخلها الرئيسية .. وأنزلت سماح أدفعها
بفجاجة ..

- روحى .. ومتخرجيش من البيت خالص .. ولو حد
سائلك قولى معروفوش ..
فهتفت بصوت ملئ بالدموع ..

- طب إنت رايح فين ؟ ..

لم آبه بحيرتها وترحها .. وحدثتها متازفا ..
- بعدين .. بعدين .. روحى بسرعة ..

هبطت من السيارة عنوة .. تدفع في لففة شديدة .. بينما إنطلقت
السيارة مسرعة تمسك الطريق المتوجه شطر بلدة الطرانة جنوبا ..
" على الجسر الشرقي للترعة الوسطية " .. سرت لا أعرف إلى
أين ستقودنى قدمائى .. ولكنى سرت ..

وما هي إلا هنيهة .. حتى بدأ شبح السيارة القاتم الغارب بعيدا
في التزمر والتلاشى والزوال .. حتى إختفت تماما عن أنظارها ..
بينما ظلت تنادينى في لففة ولوعة دون محيب ..

طفقت السيارة تخترق الطريق تنتهي البلدة إثر الأخرى ..
تتدافعنى الأحزان والأتراح .. دون هدى .. لم أكن أدرى إلى أين
سيتهى بى المسير ..

كان الليل قد شارف إنتصافه .. حينها توقفت بى السيارة قرب
بلدة المناسى .. هبطت عند أحد المداخل الفرعية المؤدية إلى
الزراعات " المتعامدة مع الطريق الأسفلتى " .. وإنتصبت عن
ناصية المدق المشجر أرمق السيارة وهى تغيب إلى عمقه البعيد إلى
أن إبتلעה الظلام ووارتها فروع الأشجار المتوجلة المنسدلة ..
إستدرت أقرب الطريق العمومى يمنة ويسرة .. كان خاويا عن
آخره .. كعاده الطريق الزراعى المتوجه إلى القاهرة فى مثل هذا
الوقت .. إذ ينعدم الحراك .. فلا رجل ولا مطايا ولا مركبات ..
ترجلت على قدمائى مذعنا بعدما إنتهى بى المطاف هنا .. كنت
غارقا في بحر من الحيرة والقنوط .. فلا بادرة تشعرنى بالأمل ..
وتزيد دلجة الليل من وحشة قلبي وقبضته .. والطريق بدوره
باعثا للإرهاب والرعب .. حيث تبرز على جانبي أشجار
الليمون المتوجلة الشائخة في رحاب مزارعها الفسيحة .. وعلى

الجانب الآخر القريب من الطريق .. ضفة الترعة العريضة
المترامية أمامي يمنة ويسرة بمحاذاة الطريق ..

كانت الأجواء خامدة .. وثمة هبوب باردة تتدفق إلى وجهى ..
أتسمع صدح الطيور الليلية الحائمة على سطح المجرى وفي
أحضان ضفافه .. يقارعها نقيق الضفادع وصرير الجنادب ..
كنت أتمعن خلفى من تارة لأخرى يخايلنى أن شيئاً ما يتبعنى في
هذا الليل الأسود الغريب .. يصلنى صوت حراكه .. حفيه
من جوف الأحراش بجانبى .. ورقع وأزير أقدامه على الطريق
الصلد ..

كان مشهد الأشجار المتوجلة يخيفنى .. تنبعت منه ظلمة مقبضة
.. أرى سراباً لأشعاع فسفورية تظهر وتختفى في العمق .. مما
راعنى وجعل شعور بالرهبة يتسلل إلى نفسي رويداً رويداً ..

عبرت الطريق مبتعداً عن تلك الأجواء .. وجلست عند حافة
الجسر أحضرن حقيبتي الملائى .. وثمة صراع أجاج ونار متاججة
داخلى .. حديثاً صامتاً يطن في جنباتى .. في عمقى .. "رباه .. ما
كل هذا الذى حدث؟ .. أكانت حياتى تنتقص نيرا حتى أحمل
على عاتقى ذنب قتيل" تلطخت يداى بدماءه" .. أوواه .. لو عاد

بى الزمان ؟ .. ما كنت طويت ذاك المسير العسير المروع .. إلى
أين سأذهب الأن ؟ .. ضاقت الدنيا برحابتها أمام عيناي ..
وأعينهم مازالت تترbus بى .. وبرانشهم مشحوذة لإنتهاشى .."
إنتفضت بغتة إثر سماع عواء سيارة شرطة مارة .. فاجأتنى يخترق
هدوء الطريق وصمتة .. وكأنها بربت من جوف الأرض ..
وثبتت إلى جرف الضفة متخفيا عند درك المنحدر الرملى خلفى ..
وما لبثت أن ظهرت بجسدى مرة أخرى عقب مرورها ..
أحدث نفسى في ضيق ..

- الله يلعنكم .. هو إنتم بتيجيوا ع السيرة ؟ ! .. داهية
تشيلكم من على وش الأرض ..

ثم صعدت إلى الطريق .. يؤلمنى إختلاج صدرى المتسارع وبضمته
المتأجل .. أند زفيرا مكروبا وأسحب شهيقا مبتورا متقطعا ..
تحتاجنى رياح الحيرة والشتات والخوف .. لم أجد بدا سوى أن
ألوّح إلى سيارة قادمة .. فال الوقوف يجعلنى صيدا سيغا .. بينما
حركتى تدثرنى وتوارينى بعيدا عن مراميهم ..
قدمت سيارة نقل ثقيل .. وتوقفت على مبعدة .. فهرعت إليها
وركبت .. فلربما كان أحدهم مازال يتبعنى .. ظللت طوال

الطريق ساهمًا شاردا .. لا تنبو لى كلمة .. رغم أنه ثمة حرب دائرة برأسى المكتظ بالأفكار والمواجس .. ظل السائق يرمقنى ما بين الفينة والأخرى محاولا بدء حديث معى .. إلا أنه لم ينل ما يرنو إليه .. إلى أن أصابه يأس من محاولة إنطاق لسانى .. فشاطنى الصمت طوال المسير .. وللمرة الثانية أسير على غير هدى .. كان الطريق يدفعنى مكروبا .. كنت قد وطنت العزم أن أبقى بالسيارة إلى نهاية رحلتها .. بيد أن تتالى زحام للسيارات عند نقطة ما أو قفنا قسرا .. إذ يتراءى كمين شرطى متنتقل على مبعدة منا .. يستفزنى المشهد من محطة .. فهتفت في السائق ..

- أوقف .. أنا هنزل هنا ..

ونزلت تحت مرأى السائق الذى إزداد تعجبه ودهشته من مسلكى هذا .. كان بينى وبين الكمين ما يقارب الخمسين مترا .. حاولت الإبعاد قد إمكانى .. فكررت متقدحه للخلف .. وبينما أنا سائر تحضنى الدلجة والهدوء آتاني صوت زحف قطار على الضفة المقابلة من المجرى المائى .. حاملا معه مخرجا لخيرتى فى التنقل من سيارة لأخرى .. المقرن بإحتمال إصطدامى بكمين أو لجنة شرطية من آن لأخر ..

كان القطار هو الحل الوحيد .. الوسيلة المثلى للتنقل في هذا
الظلام الدامس .. مثل حالي .. وجدت الفكرة هو في نفسي
وراقت لي .. إلا أنه في حقيقة الأمر لم يكن لدى فسحة من
الإختيارات أو قل شغلت رأسي بما حملت فوق طاقتها .. فإنطفأ
نورها بعواصف نفسى المتخبطة .. وتجمدت أفكارها الملهمة ..
وما طفا منها على أديم سليقتي لم يعد يؤتى جدواه ..
وقفت أرمق القطار الهاجع هناك بعيدا على المرسى الآخر ..
يطلق بوقه الخرافي .. أنتوى في قرارة نفسى أن أستقل القطار
الذى يليه .. ولكن كيف السبيل لعبور المجرى في ذاك الوقت
المتأخر .. كنت لا أرى على مرمى البصر يمينا أو يسارا أية كبار
أو جسور ..

إلا أنى قد تذكرت أنه من عادة الصيادين المحليين على طول
المجرى أن يوثقوا قواربهم في الأشجار النامية على الضفاف .."
حتى لا يتنهها التيار الجارى ".. كما جرت العادة أيضا أن
يودعوا تلك القوارب في الجهات المقابلة لمداخل القرى والبلدان
"ليسهل العثور عليها"

كنت على مبعدة غير بعيدة من إحدى القرى .. فترجلت بمحاذة المجرى إلى أن شارفت تخوم مدخلها الرئيسي .. طفقت أخرى عن قارب بالقرب إلى أن عثرت على أحدها موثق بشجرة عتيقة وارفة في الجوار إلى زاوية ومزيرة مياه .. كانت الساحة خاوية تماماً والهدوء يرتع بها من أقصاها إلى أدناها .. ليس إلا رجلاً يغط في نوم عميق .. يبغض غائباً على مصطبة بجوار مدخل الزاوية .. بدا من هيئته الرثة أنه شحاذ متجلو .. فلم أغيره إلتفاتاً إذ لا خوف يرتجي منه .. إقتربت من الشجرة وحررت وثاق القارب ..

هبطت بحرص على جرف منحدر الضفة .. وألقيت الحبل إلى جوف القارب ووثبت إلى سطحه بخفة أخرى عن المجاديف .. وقد كانت مثبتة بجوانبه .. فأمسكت بها وأحكمت قبضتي .. ومضيت أدفع القارب دفعاً حثيثاً حريصاً ..

إخترق القارب أديم المياه الهدئة عديمة الأمواج .. يمزقها بليونة .. ظللت ماضياً إلى أن قطعت الشطر الأول من عرض المجرى المائي في هدوء ويسر .. إلا أنني أحسست عند تخوم الشطر الثاني

بأن القارب لا يتحرك قيد أنملة منها جدفت .. بل يتأرجح
ويتمايل بعنف دائرا حول نفسه .. كاد التيار أن يدفعه في إتجاهه ..
شعرت بألم الرطوبة ينخر في عظامي ويوقد نارا موجعة في
مفاصل .. " وكأن حمى الروماتيزم ضخت حممها فمزقت
أربطتها " .. أوقفت ذراعى المتهدلان عن التجديف لأريحهما ..
تلتاع أو واصلى وألواحى بتباریح الجسد المنھک .. وسقطت إلى
قاع القارب ألتھ حول نفسى .. أشحذ الدفع من عمقي
المحموم .. ينراح البرد القارس عن أديمی ببطئ .. ثقيلا ..
ومو جعا ..

أرجأت أنظر إلى عمق المجرى .. كان الظلام المتكاثف في الأفق البعيد أشبه بفوهة القبر المظلم .. وما راعنى أن كانت كل أعمدة الإنارة مطفأة على طول الضفتين .. ليس إلا بقعا ضوئية متناشرة هزيلة لدور متراحمية مبعثرة بين الزراعات الخفيفة .. أراها بعيدة جدا لا يكاد ضوءها يصل لزهاء بضعة أمتار فلم تزل صفحات المياه حظا منها .. ومهمها حدق النظر لا أرى إلا وشاحا غطيسا يخيم على أديم المجرى .. أصابتنى قشعريرة فقللت كل جزء في

إهابي من محظه .. حتى شعرت وكأنه يصدر طقطقة تسمع ..
يتعدد صداتها فتنزع جوفى من مستقره مما أغرقنى بالجزع والنفور
تذكرت حكايا الأهالى عن المسحور .. ذاك المارد الذى يخرج من
حشا المياه يبحث فى رعونة عن حىٰ ليغرقه .. ويسبحه إلى
الأعماق .. الحال لي أن أطيافا شفيفة تهجع وتترافق على سطح
المياه .. شعرت أن ذاك المسحور سيباغتني متتوحشا يخترق نسيج
المجرى ليزهق روحى .. وكلما أمعنت النظر مدققا .. إتسعت
حدقتا عينى .. إنخرطت وغضبت أكثر وإستشعرت وكأن
خيالات هذا الوحش تصاعد كالدخان الأبيض .. لينجل من
شفافيات المجهول ووشائجه إلى صفحة الرؤية الباردة ..
كاد فرط التحديق أن يخطف بصرى ليحيلىنى كليلا .. ولا أعرف
على وجه التحديد ما الذى يدفعنى لأن أجحظ عيناي على هذه
الشكلة .. وكأنها أنتزع إنتزاعا لهذا الهول الذى يدخل الروع إلى
جأشى .. أحنيت رأسى هاربا .. ليفيئ لم بصرى بعد شرود ..
وأطربت ناظرا إلى قاع القارب مغيّبا عينى عن تلك الخيالات

المخيفة المرعبة

وبينما أنا على حالي تلك .. تذكرت فتحى .. كثيرا ما كان يحاكيني عن ذاك الكائن الخراف المهيب .. مؤمنا بوجوده .. فتحى .. صديق عمرى الذى لم أبكى موته حتى الأن .. ذاك الخليل الذى أضعته إلى الأبد وبصنيعة يدى .. وفي تحول عجيب .. تبدل الخوف资料 from within the body into sadness and despair .. ليتجادلان في عمقي .. بيد أن الغلبة كانت لثانيهما في حضرة سيرة صديقى المنكود .. بزغت من عيني عبرتان هزيلتان .. وما كادت حتى إغروقت وكأن بئر ماء قد انفجر للتو في جوفها .. تحركت شفتاي متمتمة بأنين مخضل بالدموع .. وفقدت السيطرة على حواسى وإغتررتني نوبة نشيج أليم متصل .. أكتم صيحة تأبى إلا أن تبعث مدوية مجوجحة من جوفي رغم عنى .. إلا أن الأصوات تضاحمت وتعاظمت في عملى .. وتأججت نار البين وقبض قلبي وجع الفراق .. فإنثال أنين نهنهتى يتعدد عبر الأثير على صفحة المياه .. إلتياع تعرقله الدموع .. ونشيج متهدج بلظى الوداع الأخير الأليم ..

لم أدع تلك الحال تطول .. إنلتعدت شهيقا طويلا باردا وأطلقت زفيرا حارا بمدد حشايا المحترق وجعا .. أحياول أن أملم أرجائى

التي إنفرط عقدها كمدا .. تجسرت على جزءى أكفكف رووى
.. مسحت مقلتاي بطرف سترى أغالب فيضهما المدرار ..
كان الوقت يمر سريعا للغاية .. تماست فأمسكت بالمجادفين ..
وطفقت أناوهما بعشوانية متواترة .. أتعثر في إرتعاشات جأش
حزين .. شارفت الضفة المناظرة .. فوطنت بالقارب عند محطة ما
.. وخليت سبيله متخففا إلا من حقيقتى رقيقة رحلتى .. قمت
بتوثيق القارب في حزمة من أعوداد البوص المتوجلة على الضفة ..
ثم صعدت الجرف بحرص إلى أن ناهزت أعلى ..
كانت محطة القطار قريبة .. زهاء العشرون مترا .. سرت متراجلا
شطر بادئ رصيف المحطة .. وفي أقل من دقيقة زمن .. كنت
أجلس على أريكة في منتصف الرصيف .. كان الصقيع يضرب
جنباتى .. أنتظر قطار أتششك في مقدمه تلك الساعة ..
مرت على جلستى ما يعدو الثلاثة أربع الساعات .. أغتمر في البرد
القارس متحملا لسعاته القاسية قسرا .. شعرت وأن وجعا مؤلما
في كتفى الأيمن .. تهدل بها حمل من مثاقيل .. فقد كانت الحقيقة
البطينة بخبايا الأرض ونفائسها فتية بها تحوى .. برهة وإرتفع
دوى إنذار المحطة أذونا بمقدم قطار من بعيد .. لم أكن أعرف

وجهته على وجه التحديد بيد أنه لا فارق عندي إلى أى شطر سيمضي .. ما أهمنى حينها .. فقط أن أستقل قطار ولو كان مسافرا للقمر ..

ما هي إلا دقائق زهيدة حتى أشرف القطار .. لاهثا بلا غبار .. على رصيف المحطة يزفر هبوبا ساخنة تستشرى كالدخان خترقة الأجواء الباردة ..

ركبت في أحد العربات الوسطية .. وسار القطار متهدجاً أستقله في عكس وجهتى صوب كفر داود القديمة البلدة التي هجعت منها هارباً لم أفك في عوائق الخوض من ذات الجهة .. كنت مدفوعاً بعشوانية .. أينما دفعنى الطريق .. سرت ..

زيادة في الحيطة .. جلست قابعاً خلف باب إحدى العربات متذرعاً بدفة المعطف .. أوارى وجهى بوشاح رأس طويل .. كان القطار خاوياً عن آخره إلا من شرازم متاثرة على المقاعد ما بين نائم وساكت .. وكانت الأجواء خامدة إلا من دقات القطار العتية وإرتعاشاته على القضايان .. ولغط لرجلين يتحدثان مريجاً بالجلبة الصاحبة .. كا صوتهم ملغزاً تائهاً تتطلعه الإصطدامات والإحتكاكات الحديدية العنيفة المدوية للعربة ..

مرت برهة .. أرسلت بناظرى من نافذة العربية .. كانت تراءى
لى البنيات الواطنة على جانبي شريط القطار .. كانت بعض
شرفات الأدوار بالعمائر مفتوحة .. تبعت منها الأضواء ..
طفت بمخيالى أستشعر ألفة كل مجلس خلفها .. أرى إنعكاسات
أجهزة التلفاز على حوائط الغرف كان يصلنى بعض هممها ..
إشتعل قلبي لهفة لهنية راحة .. أتوق شوقا لأستلقى على فراش
مهاد .. وتهزهز فؤادى للحظة قرب بين أبي وأخى الصغير ..
كنت متعبا للغاية .. شعرت بوخذنا قارصا وموجا يستشرى في
جسدى ولفحات هواء شديد البرودة جلبها باب العربية الخرب
.. ما جعل الألم يزداد شيئا فشيئا .. وبذا لى أنى أخطأت الجلسة
.. فما كان منى إلا أن غادرت مقعدي متراجلا إلى منتصف العربية
.. فاغتمرت في دفع النوافذ الموصدة والأنفاس المجاورة ..
إنجلى صوت الرجلين المتحدين .. وكانا من الفلاحين
المعهودين في تلك المناطق .. فبت أميز ما يقولان .. وفي حقيقة
الأمر كان حدثهما داعيا للإلتفات ..

- بالظبط .. زى ما بقولك كدة .. لما الحكومة مسكت خليفة العربى وكشفت عليه ع الكومبيوتر .. طلع محكوم عليه غيابى يجى فى أكثر من تلاتين قضية ..
- إيه ؟ ! .. تلاتين قضية !! ..
- واللى يضحك فى الموضوع .. إن الظابط بتاع شبين " من كتر ما الغفر طلع عين أبوهم فى التدوير عليه " .. أمر كل غفىير يضر به بالبلعة على دماغه
- هو كدة .. راجل من ضهر راجل ..
- إستنى بس .. رغم إنه كان فى إيديهم وتحت سيطرتهم .. فى الآخر هرب منهم إبن الجزمة .. هربه كبير قبائل بني سلامه وحطه تحت حمايته .. ما هو يبقى عمه شقيقه ..
- معقوله دى ؟! ..
- والله زى بقولك كده .. منجدوش من إيديهم غير عمه .. الشیخ قویا ..
- معقوله جبروت العربان يوصل للحد ده ؟ ! .. يتحدوا .. الحكومة ؟ ! ..

- فوق من نومتك .. إنت مش عايش معانا ولا إيه ؟ ! ..

العربان عايش في حمايتهم سوابق كتير .. خارجين عن القانون .. اللي قاتل اللي سارق اللي ملوش متوى .. اللي وراه ضحايا مايتعدوش .. ومحدش يقدر يقرب منهم أو يمسهم إلا بإذن مخصوص من كيبرهم ..

- وطى صوتك .. الحيطان ليها ودان .. وإنست دغف كدة بتطرش الكلام على عبله ..

إذ لمح الرجل تنبئي وإلتفاتي لحديثهم .. فقال ..

- هنقول إيه ؟ .. ماشى .. عملت إيه في زرعة الفاصوليا السنة دة ؟ ..

وإنفجرت ضحكاتهم ساخرة من حذاقتهم البلياء ..
أما أنا .. فكنت قد فطنت حديثهما .. وعرفت ما يتوجب فعله ..
فهجرت مقعدي أتحرك صوب الباب أزمع أن أخطو خطوة ما
قد تنقضني من ورطتي .. وتنسلنى من شتات الطريق .. فمكثت
أنتظر وقوف القطار عند محطة بنى سلامه ..

مضى زهاء النصف ساعة .. وطالعتنى لافتة المحطة المنشودة ..
إنتظرت حتى توقف القطار تماما .. ثم نزلت مغادرا العربة ..

سرت مترجلا على الرصيف .. أتلفت حولي .. لا أعرف من أين
أبدأ المسير .. أبحث عن مار يدلنى إلى طريقى ووجهتى المبتغاه ..
إلى أن لمحت بناية الإداريين والفنين بالمحطة .. فتقدمت إليها ..
أسأل أحدهم .. كيف المسير إلى بدو بنى سلامة ..

وهناك على الجانب الآخر البعيد .. كان ألمونيا طريحا على الأرض في ساحة القسم .. وبالتحديد في غرفة رئيس المباحث .. تنسال الدماء من فيه وأنفه .. بينما كان الضابط مدوح هائجا تجتاحه موجة غضب عارم .. طفق يركله في بطنه كمن يركل خرقه باليه .. ونبرة حديثه المستاء تتعدد في جنبات الغرفة ..

- إنت عارف يا بغل .. نتيجة إهمالك ده إيه ؟ ..

فقال ألمونيا متعرضا ..

- ياباشا أنا قصرت في إيه .. ما أنا جبته لسيادتك لحد المركز فأشار له الضابط بإصبعه ضائقا ..

- إخرس .. مش عايز أسمع صوتك خالص .. أنا عايز فعل مش عارف هعمل إيه في المصيبة دي ؟

قال ألمونيا متهدلا ..

- ياباشا سيادتك، أبو العارفين .. معروف أولها من آخرها .. في النهاية هتحفظ القضية زيها زى غيرها ..
فصاح الضابط محتقنا ..

- مش قولتك مش عايز أسمع صوتك ؟ .. حط لسانك
جوه بقك وإخرس ولا عايزنى أقطعهولك خالص .. هيا
غلطتى أنا من الأول .. أنا اللي مشغل معايا شوية بهایم ..
خلاص .. اللي حصل حصل .. بس المهم دلوقتى أنا لازم
أعرف إبن "الش .." ده مستخبي فين ..
فأذعن ألمونيا خاضعا ..

- قولي سيادتك بتفكر في إيه .. وأنا رهن إشارتك ..
أشاح الضابط محذرا ..

- غور من وشى دلوقتى .. ومتغبشن عن عينى وقت أما
أعوزك ألاقيك .. مش لازم صياعة اليومين دول ..
فاهمنى ولا أفهمك بطريقتى ؟ ..
فأجاب ألمونيا وجلا ..

- فاهم ياباشا .. فاهم ..
كان الضابط قد إستولى عليه نفاذ الصبر ..

- يالله إنشكح من وشى .. مش طايق أشوف سحتك ..
خرج ألمونيا وأغلق الباب وراءه .. بينما طفق الضابط في حيرته
وكمله يحدث ذاته ..

- يا أنا يا إنت يا بن الفلاحة .. والأيام بینا ..

.....

في الغداة والشمس قد وضحت لذى عينين .. كنت أسيء في
مدق وعر بين تلال رملية خفيفية .. في الناحية الغربية من
المجرى المائي .. حيث لا تختلف تصارييس الأرض هنا عن
ساحة أبو بيللو .. مضيت أتحرى عن قبيلة الشيخ قويا .. كان
الخواء يمتد أمامى .. أرض قاحلة جرداء .. مرتفات وكثبان
رمليّة تفترش الفيء من أقصاها لأدنها .. تنتشر بها الهوام
وأوكار الوروش ..

برزت طبغرافية المكان العشوائية أمامى توارى أى معلم لمظاهر
الحياة .. أو قل تفقده .. فلا ساكت ولا ناطق .. لا يسمع سوى
صدى دبدبة قطار السابعة على المدى البعيد .. إخترق أحد
الطرقات غير الممهدة تحوطنى تلال الرمال وطفقت سائرا عبر
المدق المنحدر لأعلى أمامى .. وكأنى عند سفح جبل عريض ..
كلما سرت لمسافة أظن أنى قد شارت قمة المنحدر إلا أن الطريق
يمتد أمامى يقابل السماء عند الأفق البعيد ..

أمضيت في مسيري هذا ما يعدو الساعة من الزمن .. وبذا لى أن
هذا الطريق كثير العثرات لا يجوبه إنسان مترجلا .. إلا أن ثمة
أثار منطبعة لعجلات سيارات كانت بادية تبرز وتغطس في أديم
الرمال تحتى ..

كانت الشمس فوقى تعلو رويدا رويدا إلى كبد السماء أذونا
باقتراب الضحى .. وبدأت الحرارة تكشر عن أنياها الحامية ..
وتأنى اللفحات الساخنة من كل إتجاه .. والحقيقة الثقيلة قد
أصابتني بـ جهاد شديد حتى أنى لم أعد قادرًا على إحكام حملها ..
فطفقت تتأرجح على عاتقى .. وقعقة القطع الذهبية تتردد
وتتصاعد من جوفها ..

جلست على كومة من الرمال متعبا .. ينخر المزال في كل أرجائى
.. كانت الهبوب المغبرة بالتراب الناعم تضرب جسدى وتعبر
الفضاءات حولى تصدر فحيحا مختلطًا بصفير صحراؤى .. وبعنته
.. جاءنى صوت موتور دائر من بعيد .. كان الصوت يقترب
شيئا فشيئا عبر المدق الوعر .. ما يعني أنه ليس لماكينة ثابتة .. بدا
وكأنه هدير لمركبة قادمة إلا أنى لم أميز كنهها أهى سيارة أم آلة
آخرى

ظهر القادم من بعيد .. وإتضح أنها مركبة مكشوفة ذات ثلاث عجلات .. "تروسيكل" .. هجعت من محطى أرفع حقيتي .. لم أنظر إقراها فطفقت ألوح لها من بعيد "ملهوفا كالمخبول" .. رغم علمي بأنه لا منافذ أو طرقات فرعية منبقة من المدق الرئيسي يعني أنها لا حالة ستمر أمامي .. إلا أن شدة إجهادي وشوقى للإستلقاء والراحة ولو لدقيقة واحدة دفعنى أن أسترعى إلتفات قائدها قبل أن يمرق أمامي دون أن يتتبه لي .. ما هي سوى هنيهة .. حتى توقفت المركبة قبالتى مباشرة فحدثت قائدها ملهوفا .. أستند براحتى على حافة صندوقها الخلفى ..

- لو سمحت .. إزاي أوصل لقبيلة الشيخ قوي؟ ..
يبدو أن السائق قد أشفق لما بدا بهيئتى من حال مزرية .. فقبل أن يوصلنى دون إبداء أية إستفهام .. رغم أن المركبة كانت محملة عن آخرها بالخشائش والبرسيم بعرض إطعام البهائم .. ركبت في صعوبة ومضينا إلى حال سبيلنا

وبعد قرابة النصف ساعة كنت قد شارفت ساحة القبيلة .. ولم تكن قبيلة بالمعنى الحرفي .. فلا ثمة خيام أو ما شابه .. وإنما

كانت عبارة منازل طينية بسيطة تتموقع وسط تلال الفيفاء
الشاسعة النائية .. البعيدة عن مرامى الأ بصار .. ومستقرات
الإنس ..

أنزلنى السائق ولم يلتفت إلى سؤالى عن محطة نزل الشيخ قويما
تحديدا .. فسرت أجوب حوارى القرية الصغيرة .. أستدل من
المارة تباعا عن المنزل .. إلى أن صحبنى أحدهم إليه ..

كان المنزل يحط عند الحد الجنوبي من القرية .. بناءة فسيحة
مشيدة من الطوب الطيني للبن .. كحال باقى البيوت .. تحوطها
الأدغال الكثيفة من النخيل .. وثمة سياج حديدى دائر مدید
يحيط بحظيرة للماشية .. ورأيت قناه مياه ضيقة .. " مروى " ..
بطول القرية من الجانب الشرقي تنتهي عند بحيرة إصطناعية
للمياه العذبة .. يبدو أن الأهالى قد حفرواها لتأمين إحتياجاتهم
من الماء .. تستمد مياهها من مصدر مجهول بدا وأنه المجرى
المائى للترعة الوسطية .. ولا يعرف بالضبط كيف تمكن هؤلاء
من إيصال المياه العذبة عبر تلك المسافة الشاسعة بين المجرى
والقرية ..

وفي خلفية المنزل تمتد خطوطاً متوازية من الصوب الزراعية ..
وما أثار إندهاشى هذا الكم الهائل من الكلاب الضخمة العفيفَة
التي أتت في إستقبالي والمتشرة حول المنزل بغزاره ..

تقدمت حثيثاً يعرقلنى الخوف من سوء الإستقبال وتدفعنى
الرغبة في الخلاص من تلك الورطة التي أسقطت نفسى في
شراكها .. كان صدى نباح الكلاب يضخم من هولة الخوف
داخلى .. شعرت بفؤادى يختل جا عنيفاً يكاد أن يمزق
بعضه البعض ..

ظللت على حالتى تلك .. أتقدم تتخطى قدمائى إلى أن خرج
أحدهم من إحدى الصوب إثر سماع صوت النباح المدوى .. وما
إن أقترب منى حتى حدثته .. تتعثر الكلمات على منطقى ..

- سلام عليكم .. كنت عايز أقابل الشيخ قويَا ..
أدادر الرجل ظهره لى مناديا ..

- حمدان .. ياحمدان .. ضيف يريد الشيخ إقويا ..
طالعنا من باب مضيفة المنزل .. رجل في طور الثلاثين ..
في رعان شبابه .. أساريره صارمة حاد الملامح .. متوجهم الطلة ..
ترجل إلينا في خطوات رزينة مفتولة ..

أو ما إلى الرجل الذي كان في مستقبالي بالإنصراف .. ثم إقترب
مني قائلا ..

- ياهلا .. إنفضل في الديوان .. الحان ألفى خبر للشيخ ..
ولجت غرفة الضيوف مطرقا .. وكانت غرفة فسيحة .. شديدة
البراح .. وكباقي البيوت كانت مسقوفة بعروق الخشب
والألواح .. يتوسطها موقدا للفحم .. "وثمة جزع شجرة
جزورين جاس قصير مندس في جمره المطفأ" .. ومفروشة
بحصير من أعواد السمار .. وثمة مشاعل زيتية كبيرة ناشبة على
الحائط .. تتجاوز جنبا إلى جنب مع المصابيح الكهربائية ..
ورأيت على صفحة أحد الجدران شيئاً ما راعني نسبيا .. فقد
لمحت ورنة كبيرة تفوق المتر طولا .. محطة ومثبتة .. وثمة
حيوانان آخران محظتان أسفلها .. أغلب الظن أنها لثعلب وجرو
ذئب جبلي .. إندھشت لمدى وله وتعلق تلك القبائل بإقتناص
الحيوانات الغير مألوفة .. المحطة .. بل ووضعها في ساحات
الضيافة .. وعلى مرأى من ضيافتهم .. وما علمته فيها بعد أن هذا
السلوك إنما هو ضرب من الزهو والافتخار ..

وفي الجوار ثمة وسادات وثيرة موزعة على الجوانب الأربع
للغرفة .. جلست على إحداها .. واضعا الحقيبة الثقيلة على
جانبي الأيسر إلى الداخل بحيث يصبح باب الغرفة على الجانب
الأخر .. ومكثت أنتظر ..

في غضون الربع ساعة .. ولج من الباب عجوزاً أشيب إلا أنه بدا
كامل الصحة عتيما .. تنجلى عليه علائم القوة رغم قدم سنه ..
كان قصير القامة عريض المنكبين .. ذو تفاصيل غليظة ولوح
حديدي .. وراحتين منتفختين بإستطالة وخشونة تبدو قبضتها
بارحة الفتوة .. جاءنى حافى القدمين .. ضخم الجثة حتى بت
بجواره هزيلاً معظمها .. كان يرتدى جلباماً أبيضاً طویلاً ذو لمعة
ملحوظة .. يعلو ظهرها عباءة بنية وثمة شال بدوى بسيط فوق
رأسه غير مهندم .. رحب بى على طريقته ..

- ياهلاً ياهلاً .. مرحى بضيف ماتوقعنا زيارته ..

إنتصبت قائما .. مندهشاً من ذاك النحو في إستقبال الضيوف
والترحيب بهم .. أجبت تحيته أشعر شيئاً من الوجل ..

- أهلاً بك .. ياعمى الشيخ ..

دعانى للجلوس .. بينما جلس هو على مبعدة قريبة .. يفصل بيننا
محظ وسادتين متعامدتين .. بدأته الحديث ..

- يا عم الشيخ .. أكـ.....

ولم أكمل جملتى إذ ناهضنى ولم يعطنى مجالا للحديث .. هاتفا
لأهل الدار ..

- واجب الضيف ياولد ..

ثم نظرنى قائلا ..

- هسا تاخد واجبك الأول .. بعدين تسولف باللى فى
حلقك ..

وبعد دقائق زهيدة .. تقدمت فتاة على مقربة من الناحية الخارجية
للباب .. تحمل صينية عليها طعام بدوى وثير .. كانت هويدا إبنة
الشيخ قويـا .. فتاة متوسطة الجمال .. في طور العشرين .. ذات
ملامح بدوية رهيبة .. وإعاقة بسيطة في قدمها اليسرى .. لذا
كانت تتوكأ على عصابة صغيرة .. بيد أنها قدمت هذه المرة دون
عصاـتها ..

كانت تتحامل في سيرها على قدمها اليمنى .. تغالب إعاقتها ..
و قبل أن تلجم من الباب ناهضها أخوها الأكبر بسنوات زهيدة ..
حمدان .. وأخذ منها الصينية ساخطا .. مستنكرا سلوكها ..

- ياحيف عليك ويش تسوى ؟ .. وينك رايحة ؟ .. لفيني
هاذى و ما أريد ألح خيالك هان ..

ثم أشرف علينا حمدان واصعا الصينية على منضدة خفيفة
بإسطالة أشبه بـ "الطلبية" .. ودعاني الشيخ لتناول الطعام ..
كنت أكل وحيدا .. ولم أنبس بيت كلمة طوال جلسة طعامى ..
كما لم ينطق أحدهم .. ليس سوى نظرات حمدان المتلخصة .. إذ
طقق يرمقني متناوباً مما أصابنى بتوتر شديد .. ألوك الطعام
بصعوبة بالغة لينزلق إلى جوفى دون أن أمضغه أو أتذوق له طعماً
.. غمرنى العرق البارد .. وراغنى أن فى أسارير الرجل ثمة
إمتقاعاً .. بينما بقى الشيخ قوياً يتلاعب بلحيته البيضاء .. ينظر
الأرض تارة وإلى البراح خارج الباب تارة أخرى ..

لم أستطع المكوث على تلك الحال طويلاً .. فقد أجهدتني
وأغرقتني خجلاً وحرجاً .. تقهرت إلى مسندى أَحمد الله ..

- الحمد لله .. يدوم خيرك ياعم الشيخ ..

نظر الشيخ إلى حمدان ..

- إرفع الرزاد يا حمدان .. وهات الشاي ..

رفع حمدان الصينية .. وما كاد يخرج من باب الغرفة حتى بوغت
بهويدا على مقربة تحمل صينية الشاي .. أخذها مغتاظا ..
يتوعدها بحساب عسير .. ووضعها أمامنا .. وضاعفني الشيخ ..

- إتفضل يا وليدي ..

أخذت كوبا ورشفت رشفة واحدة ثم أرجأت قليلا .. حينها
حاولت أن أبدى أمري ..

- ياشيخ .. في البداية أنا معاية أمانة غالية قوى .. وقادص
الأمان والحماية عندك ..

فقال لي الشيخ .. يطمأننى ويربط جأشى .. ومداعبنا ..

- أمان يا وليدي .. ماتخاف ما عندنا سارقين ولا قطاع
طريق ..

نظرت إليه حرجاً أود أن أضيف كلمة يتفسد بها حلقي ..
فإابتدرني قبل أن ألفظ ..

- ولا حكومة .. إطمئن ..

رمقته واجما دهشا .. كيف يقرأ أفكارى بهذه السرعة واليسر
وكان لبى كتاب مفتوح أمامه .. لم يكتثر بردة فعل إنتصب
واقفا ولحق به حمدان في وقفة واحدة وكأنهما على إتفاق مسبق ..
قائلا ..

- إلفى أمانتك لحمدان .. بحل لا تضيع ..
ووجه حديثة لحمدان ..

- ياوليدي .. خذ أمانه الضيف إودعها في أوضتى .. بعدين
ريه جمال قريتنا ..

في الحقيقة .. وإلى ذلك الوقت لم أكن أعي أو أستوعب شيئاً ما
يحدث .. وإنعملت بداخلى رغبة في الإختفاء حتى لو إبتلعتنى
الأرض .. ولكن لا مناص .. لا مفر من المقدور .. أعطيت
الحقيقة لحمدان .. ووقفت إحتراماً للشيخ وهو يخلص سبيلنا ..

.....

متصف النهار .. وثمة إتفاف حميم حول " طبلية " صغيرة
بصاله منزلى المتواضع بمنطقة التجارة .. يجتمع حولها إبنة سماح
وعلى الجانب الآخر أخي الصغير .. تتوسطهم سماح تناوب
إطعامهما .. واحداً تلو الآخر .. وبالقرب في زاوية الصالة يتوطن

أبى القعيد تناظره منضدة صغيرة تعلوها صينية تضم طعامه
المشار إليه من الطبيب ..

أنهيا الطفلان طعامهما وقاما مباشرة يهرولان رأسا إلى الساحة
 أمام المنزل .. يلهوان .. وفي ذات الآن كان والدى ممسكا بقماشة
 منزليه يمسح بها يديه بعدما أنهى هو الآخر طعامه .. إنتهت
 سماح من حمل الأطباق وتنظيف " الطبلية " ثم إقتربت من
 والدى لتحمل المنضدة المنصوبة أمامه تحده ..

- هنيا ..

فنظر إليها مبتسم إبتسامة سجية ..

- إنتى يابنتى محططيش ولا لقمة في بقك ..
نظرت إليه مقتربا .. وقبلت رأسه ..
- خيرك سابق ودائم يا عمي ..

حملت سماح الصينية وأفرغتها ثم أودعتها المطبخ .. ثم خرجت
لتتحى المنضدة جانبا .. كان ظهرها لأبى حينما أطرق للحظة ثم
طالعها بسؤاله المتكرر في تلك الأيام ..

- لسة مصرة برضه متقوليليش مصطفى راح فين ؟

شخصت سماح تنظر إلى الحائط يائسة خزيانة إلا أنها إصطنعت
إبتسامة مستعارة وإستدارت تقول في خجل وإنكسار ملحوظ ..

- مش قولتك إنه سافر يشتغل؟ ..

نظر إليها ثاقبا وકأنه يستقرئ ما يدور بعمقها ..

- عيب يابنتي تصبحى على راجل عجوز زبى .. أنا مش
مصدقك .. إنتى بتتكلدى ..

تلعثمت وتعثر منطقها فهى لا تجيد الإصطناع والتمثيل ..
وأطرقت للحظات لا تجد ما تجib به ويستكت وساوس رأسه ..
لم تتحمل نظرات الإتهام البازغة من عينيه كطلقات الرصاص ..
فإنسلت من أمامه منسحة في هدوء مختلس .. وأدارت وجهها
تتحرك متناثلة صوب الباب تنادى إبنتها .. هرعت الطفلة إلى
جوارها .. بينما أدخلت أخي الصغير .. وطفقت تهندم وشاح
رأسها .. إستعدادا لرحيل قسرى .. وحدثت والدى في تسارع
مكروب ..

- أنا ماشية ياعمى .. هعدى عليكم بكرة ..

وتسللت هاربة من نظراته إلى خارج المنزل .. عابر الشارع
القصير ..

سارت سماح حائرة حزينة .. لا تعرف ما حاق بي .. ولا تدرى
بأى حديث تريح وتسكت إستفهامات أبي المستمرة وسائل
هواجسه وريته وتكتئنه .. كانت كلماته توجعها .. تعاقبها على
وزر لم تقرفه .. جلادا لا يمل ولا يكل يرشقها ويوصمها ليل
نهار .. كانت كالأخumi يدفع إلى طريق يجهله ويراد منه أن يحسن
الخطو ويصيّب المخط وأن يتخطى عثرات لا يراها .. كانت حالة
مربكة وموجة .. ولا تدرى مناصا منها ..

إستفاقت سماح على صوت إبنتها التي توقفت بفتحة باكية .. فقد
كلت من السير متراجلة لمسافة كانت فوق طاقتها .. نظرت سماح
حوالها كالتأهة لتجد أنها قطعت شوطاً مديداً حتى ناهزت
كوبرى السمك .. فإنحننت تمسح عيني ووجنتي إبنتها ثم حملتها
.. وإستأنفت مسيرها عبرت إلى الناحية المعاشرة من الطريق
لتلوّح لإحدى السيارات المتوجهة صوب البلدة .. إلا أنها وأثناء
إجتيازها فاصل الطريقين لمح حشداً مهيباً من الناس عند
ضفة الرياح الشرقية على بعد زهاء الثلاثون متراً من الكوبرى ..
إنقبض فؤادها بعنف .. وتكتئن أمر ما أصابها بالريبة والوجل
.. بينها وبين الهاوية أشبار ..

إقتربت من سياج الكوبرى الحديدى تمعن النظر .. إلا أن الجمع الغفير المتكدس بعشوائية هناك بعيدا عن الضفة أفقدها القدرة على التمييز .. فما كان منها إلا أن سألت أحد المارة المهرولين إلى ساحة الأحداث عن كنه الأمر .. فأخبرها بأنهم إنتشلوا للتو جثة غريق .. أنزلت إبنته بثقل حتى كادت أن تسقط من بين ذراعيها ..

هرعت سماح إلى حيث التجمع البشرى تسحب إبنته لاهثة .. إندست بين الناس حاولت التسلل إلى العمق .. مركز الإحتشاد .. إلا أن التزاحم المتازف منعها وحجبها .. لم تستطع الوصول إلى حيث تستلقى الجثة .. وقفت شاردة مريحة .. تتسمى همهمتهم وململتهم وأيديهم التى تصطفق أسفافا .. وترقب رؤوسهم المحنية فى ترح وأسى ووجوههم المفعمة روع وجزع .. إلى أن نبا إلى مسامعها كلمات أحدهم بأن الجثة كانت داخل جوال من الخيش مثقلة بصخرة ضخمة عتية .. علقت بشباك أحد صيادى الرياح .. صعقت لا تصدق حدسها والفزع الذى يساور قلبها إلا أن صوتا مدويا إخترق الحشد لسيدة تهrol

صوب الجثة صارخة متحبة .. وكانت الصدمة بعينها .. إنها هي
.. أم فتحى ..

تأكد لها حدتها .. وفزعها صدق قلبها .. كانت الجثة المتسللة
لفتحى !! ..

إندفعت السيدة إلى جثة إبنتها الراقدة على الضفاف بيد أن أحد
العساكر حال بينها وبينه مادا ذراعيه يحجزها .. فدفعته بقوة
قلبها المكلوم فهو منطرا على ظهره .. تساند قائمًا ليمسك بها
ثائرا إلا أن أمين الشرطة أشار له بطرف بناته أن يخل سبيلها وألا
يحول بينها وبينه ..

إنكبت السيدة على جثمانه المهترء .. فت تكون متصرخ وت بكى أيامه
التي ثرثرتها رياح فقد والوداع الأليم .. والنهاية المأساوية ..
وإنتابتها فورة صرع ونشيجة حار أليم .. فراح تحشو الرمال على
رأسها وتنزق جيوها .. وتضرب صدرها براحتيها ضربات
موجعة .. تتحسس جلده الذي صار مجرد لحم مكشوف
وأعصاب عارية .. إجتاح قلبها إعصار خيف ينزف قهرا وكمدا
تسحقه سيول الهم مدمدمة كاسحة .. تتسلل إليه بنظراتها أن
يتكلم .. أن ينطق .. تستجدى الحياة أن تنبئ في شعلته التي

أطفاؤها الغرق ذبيحا .. والناس وقوف الأسى أسيان على
صفحات وجوههم .. يرژح الوجوم والترح العميق على
صدورهم ..

تحجرت سماح في محطها تحتضن إبنتها .. تغدق عينها بدموع
حرارة صامتة .. لا حركة إلا شهيق وزفير هادئين في موات ..
تحمل في صدرها مرارة دفينة وأنين خافت مكتوم .. لم تجرؤ على
الإقتراب منها ومواساتها في مصابها .. إستاحت وغمراها الخذى
فهى الوحيدة الأعرف بكنة ذبح عزيز قلبها وفلذة كبدتها ..
راعها صراح السيدة ونحيبها وأدخل في سريرتها توقعات سيئة
لحببها الغائب .. يخال لها أنها ستراه في ذات المصير .. إنزووت
معادرة ساحة النواح والجمهرة التي مازالت تستقطب وتجلب
الهارعين .. من كل حدب ينسلون .. سارت سماح متهدجة إلى
أن خبت الأصوات شيئاً فشيئاً .. إلا أن دموعها لم تخبو .. ظلت
مدرارة مدرارة حتى وارت عينيها فلم تعد تبصر أمامها ..
فوقفت متثاقلة .. إنكبت على رصيف الكوبرى ترمق شمس
الأصيل الغاربة .. رأتها عينها الغارقتان دموعاً هلامية .. تذوب
حمرتها فتنثال .. وكأنها هي الأخرى تأفل باكية ..

كان الضابط ممدوح في مكتبه .. يغمره السخط والإستياء لما قرأه في الجريدة .. وكانت العبارات اللاذعة الواصمة مرئية بوضوح وجلاء .. بخط عريض .. "إهمال ضابط شرطة يؤدى إلى مقتل رئيسه في العمل" .. وثمة صورة له واضحة المعالم في الجوار من الخبر ..

كاد الضابط أن يموت غيظاً وحسراً .. فأمراً جلل يتظره لا محالة .. وتحركات خافية تعتمل من وراء ظهره .. ولا ريب أنه سيفقد وظيفته عما قريب ..

تسمع طرقات الباب ..
- إدخل ..

يدخل ألمونيا يستحى وجلاً ..
- تحت أمرك يا باشا ..

أزاح الضابط الجريدة من ناظريه ساخطاً .. محدثاً ألمونيا بنبرة سخرية ..

- إيه؟ ، هو سعادتك مابتجيش إلا لما أبعتلك اللي يجييك؟ ..
تسمر ألمونيا في مخطه .. وقال متشرعاً .. متلعنها ..

- هو فيه حاجة حصلت ياباشا؟ ..
فناهضه الضابط مهددا..
- أنا لازم أرميك في الحجز عشان تبقى تحت عنيا على طول ..
.. شغلك مبقاش عاجبني .. وشكلى هستغنى عنك ..
قريب .. شكلك هتوحشنى ياًملونيا ..
إقترب أملونيا عدة خطوات في حذر يقول ..
- ياباشا وأنا قصرت في إيه بس .. ده أنا حتى جاي
لسعادتك بفكرة كويصة .. هتخلى الواد ده يجي ويركع
تحت رجليك ويسلم نفسه .. أستاذن سعادتك أقوها ..
صاحب الضابط فيه ضائقا ..
- إخلاص وبطل رغى ..
فإقترب أملونيا أكثر حتى أصبح على مقربة يناظر الضابط مباشرة
- ياباشا مصطفى ليه أب عجوز ومشلول .. لو سعادتك
قبضت عليه ده هييجبره يجي يسلم نفسه ورجلية فوق
رقبته ..
- إنتصب الضابط مستديرا إلى حيث النافذة .. يحدق في عمق
الأفق قائلا ..

- ملوش عيال؟ ..
فأجاب ألمونيا بالنفي ..
 - ملوش غير آخر صغير سعادتك ..
أطرق الضابط للحظة ثم ند عن صدره دخان سيجارته الكثيف
قائلا ..
 - تمام.. نجيب الإثنين .. ونشوف غلاؤتهم عنده ..
تحرك ألمونيا يناظر الجهة الجانبية لوجه الضابط في وجل وتوجس
- وفيه مراته كمان ياباشا ..
فنظر إليه الضابط وقد إنبسسته أساريره .. ثم جلس على مقعده
ينفتح دخانه الغليل قائلا ..
 - وفيه أحلى من كدة .. روح مع الأمين على في البوكس ..
وهاتولي الحالة دول ..
رشق ألمونيا الضابط بنظرة خبث ولؤم مبتسمـا ..
- إنت تؤمر ياباشا ..
-

مررت على بقاءى فى قرية الشيخ قويـا ليلة واحدة .. ولا جديـد قد
حدث .. أو بمعنى أدق لم أعرف إلى أى الضيـاف قد رسـيت ..

كان الشيخ قد أعارنى غرفة الكنب الملحقة بالمنزل لأنام بها وقد
كانت مخصصة لمبيت الضيوف ..

كنت مازلت منطرا .. رمقت شرفة الغرفة .. أحاول إفادة
عينى وذهنى .. ثم إستقمت جالسا أبحث عن حذائى الخافى
أسفل الكتبة .. وفي غمرة إنشغالى .. إنفتح باب الغرفة بغتة ..
كانت هويدا .. ويبدو أنها كانت تترقبنى تتظر إستيقاظى .. وما
إن أحست بالحراك يعتمل بالداخل حتى ولجت تحدىنى مباشرة
دون خجل أو إستحياء ..

- إنت صحيت ؟ .. وكاد إى بالله إنك كنت جعان نوم ..
باغتنى مشهدها وصوتها إلا أنى سريعا ما أجبت ..

- إنتى بنت الشيخ قويما .. صح كدة ؟ ..
إعتلت محياتها إبتسامة غضبة .. وأجبت ..

- نعم .. ت يريد ألفيك فطورك هان .. ولا في البراح قدام
الدار ..

رددت في نبرة إعجاب محاكيها لهجتها البدوية ..
- في البراح قدام الدار ..

توردت وجنتيها .. وإبتسامة خفيفة دون صوت ..
بترتها حياءاً وخجلاً إذ وارت ثغرها الواضح براحتيها .. خففة
أن يلمحها أحدهم قائلة ..

- إفضل برة .. لحد ما أحضر لك فطورك ..

ثم خلت سبلي مغادرة .. بينما أرجأت أنظر إليها متعجبًا من جسارتها .. ثم طفت أتحرك أمرن جسدي وكأنى أمارس تمارين صباحية .. أحابول تحرير تكدس عضلاتى من أثر سكونها أثناء النوم .. ثم توقفت للحظة أرمق الباب حيث غادرت هويدا أتأمل طباعها وإقدامها الغير لائقين بفتاة بدوية .. حبيسة الدار والفيفاء .. وما لا يتناسب مع طبائع وعادات تلك البيئات المغلقة والتى لا تتيح حرية الإنطلاق والتحرر للرجال لا للنساء .. إلا أنه في حقيقة الأمر أن هويدا كانت تعامل على سجيتها وفطرتها الطفولية البريئة براءة الثلج دون إضمار نيات أو تدبيرات أو قصد إيصال رسالة ما .. كما أنها ترى في الضيافان المتممين للأعراق الأخرى ما دون العرق البدوى نافذة للتحرر والخروج من ذاك المجتمع البدوى المنغلق ذاك الحلم الذى كثيراً ما راودها وشغل ليها .. إذ أنها لم تخرج من القرية سوى مرتان طوال نيف

خرجت من الغرفة .. كان المشهد في الخارج مبهرا و خاصة من تلك الجهة .. تراءى أمام ناظري المجرى المائي الضيق " المروي " .. وثمة رهط من خرفان الماشية ونعا جها .. وبالقرب تنتصب سقيفة ظليلة من البوص وفروع الشجر الغليظة يحوطها شجر النخيل .. وأشجار الكافور وارفة الفروع .. ولا يختلف المشهد كثيرا عما اعتدته في أجواء الريف .. إلا أن الطبيعة الصحراوية الصماء أضفت عليها مزيدا من الجمال والرونق إذ أبرزت الملامح والسمات فإستبان بهائها

تلفت حولي فوجدت مصطبة عريضة في الجوار من المدخل
ملائقة بجدار الواجهة .. مفروشة بحصير السمار .. جلست
أنظر إلى الزراعات الصحراوية بالقرب تطوقها تلال الرمال
زهيدة الإرتفاع ..

كان الأهالي جيئة وذهابا يرمونني بنظرات دهش متعجبة .. مما
إسترعى إلتفاتي .. إذ بدا لي أن العشيرة هنا كل يعرف بعضه
البعض .. ويسهل تمييز أى غريب بينهم .. كما أن الزى الحضرى
الذى كنت أرتديه بدا كبقعة لون شاردة كسرت إنسجام اللوحة
البدوية الجميلة ..

أرجأت أتأمل ساهمما إلى أن قطع خلوتى نباح كلب كان يناظرنى
مباشرة أمام المصطبة .. وما زاد توترى أن كشر عن أنيابه مقتربا
.. يتذهب للهجوم .. لم أدر بحالى وأنا أنادى ..

- هويدا .. هويدا ..

خرجت تحمل صينية عليها الإفطار .. أشاحت بيدها إلى الكلب
الرذيل .. إلا أنه لم يتحرك قيد أنملة .. فوضعت الصينية
بجوارى وإنقطت حبرا .. وأبعدته عنوة ، وحدثنى مبتسمة ..

- دى أول مرة أسمع فيها إسمى بالحلوة دى .. أقصد
بلهجة غير لهجتنا ..
- نظرت إليها على إستحياء .. وأطرقت للحظة ثم رفعت هامتي ..
- من إمتي وإنتم ساكنین في الأرض دى ؟ ..
أجابتنى تتوقد عيناهما حماساً وحيوية ..
- أنا ما أدرى متى جينا لهان .. بس أوعى عليها حين ما
شافت عيني الدنيا .. كل اللي أعرفه إن الأرض هاذى
عاش فيها أجدادنا .. وأجداد أجدادنا .. ورثناها جيل
بعد جيل ..
- لمحت الزروع تشرب من عمق الأرض الجدباء فقلت عجبًا ..
- أنا مستغرب إزاي يكبر الزرع ده في حشا الصحرا
والموت ؟ ..
- وتعدمت أن أباريها حديثها الطلى فأشرت إلى وجهها ..
- وإزاي الجمال ده يندفن هنا ؟ ..
- إحمر وجهها خجلا .. فتلعثمت وترققت الكلمات على منطقها
.. فأطرقت للحظة ثم نظرت قائلة ..
- وكاد لازم أخذ حذري في الحكى معاك .. مانك سهل ..

أصابني الحرج فإبتدرتها ..

- ما قصدتشر اللي في بالك .. أنا بس كنت بعمر عن إعجابي ..

بطلتكم البدوية السمححة ..

فنظرتني بضرب من الدلال الحبيبي قائلة ..

- هسا بتكررها ؟ .. حالك هان كل فطورك .. وبدى

تخليك في حالك وما تشغل بالك بي ..

وعلى حين غرة .. جاءنا صوت أبيها آتيا من خلف البيت ..

ينادى على أحد العمال ..

- يامراجع .. يامراجع ..

فهرعت هويدا إلى داخل البيت خلسة .. وما كادت تختفي حتى

ظهر الشيخ قويا من خلف دغل النخيل وبصحته حمان ..

وقف الشيخ يحادث العامل ..

- طل على الناحية الغربية من الأرض .. أنظر المى يرويها ..

وقفت إحتراما إثر تقدم الشيخ نحوى .. مهلا ..

- مرحي بضيفنا ..

بينما رمقنى حمان بنظرة ريبة قائلا ..

- إزاي خرجت من الأوضة ؟ ..

وطفق يتربّى منافذ البيت وأبوابه .. وكأنه يبحث صراحة عن
هويدا .. كان هذا باديأ بجلاء .. بينما قال الشيخ بنبرة حبيبة
متسمحة ..

- ما عليك شر يا وليد .. كيف حال ليلتكم؟ ..
وأخذ بساعدى وجلسنا معا .. قلت في دماسة ..

- الحمد لله .. ده أنا كنت تعان قوى ..
فنظرني الشيخ يحدثنى في رزانة ..

- إسمع يا وليد .. بحل تقدر تعيش بيننا لزوم تحترم عاداتنا
وتقاليدنا .. ودوم إتذكر سولفتى هاذى .. ما بدئ أكتر
حكييّى هاذ تانى ..

نظرت إليه ساهما ..
- أعيش؟ !! ..

ثم تداركته .. قبل أن يبدأ في جملة أخرى ..
- لا دى مجرد فترة بسيطة .. هقعدها بينكم بعدين هاروح
لحال سبيلي .. بس مش عارف إمتى بالظبط .. إدعيلى
ياشيخنا ربنا يسهلها لي ..

فقال الشيخ مشفقا بصوت مرصوف منمق ..

- على هونك يا ولیدى .. ما في خبر يتخفى على .. جاتنى
سولفتك من المقبرة الأولى حين إنهزامك من الضابط
مدوح ..

حملقت مندهشا .. فاغرا فاهى ..

- وعرفت إزاي كل الحاجات دى ؟ ..
فبادرنى قائلا ..

- لا تناطحنى الحكى وإنصت .. شغلتك كبيرة الحين إنت
مطلوب من أكثر من جهة .. عندهم المال والمناصب
والقوة .. بالعون ماتقدر عليهم لا ألف مثلك .. وما
يحميك بعد ربنا غيرنا .. نحنا الجهة الوحيدة الواقفة
قبالهم هان .. هاذى أراضيا .. ونحنا الأدرى بمحايتها
وحماية سكانها .. حتى اللاجئين ليها وقادسيين الأمان
عندنا .. وخلل هاذ مايجوز يخفى علينا شى من اللي دائرة
هناك .. حوالينا ..

ثم قام الشيخ من خلسته وأعطانى ظهره .. مترجملا .. قائلا فى
ترو وهدوء بنبرة حادة جدا ..

- إنت بنظر الحكومة .. ذابح .. وعليك من الشهود كتير ..
وبصريح العبارة .. الضابط مدوح قام باللازم وضيق
الخناق حوالين رقبتك .. ونحنا ما بنحميك بحل إنك
قاتل .. لا .. نحنا عارفين كل شيء عنك من قبل لتلفي
أراضيا .. بلدك وهلك .. واللى ما بتتخيل إنا ندرية عنك
.. وهتصدق لو حكيتك إنا كنا متوكدين إنك هتقصد
أرضنا .. ماهى الحكومة كدة تخلق من الرجال مجرم
وتجرى تدور عليه .. ما يلاقى الأمان غير هان .. وهان
من النشامي مثلك كتير .. داقو خبزنا وملحنا .. وصانوا
الجميل .. وصاروا قوتنا وعتادنا في كل أرض لافوها ..
نحنا ياوليدي إتو سمنا فيك الخير والشهامة .. بالعون
نشمى وقلبك ميت ، راجل بحق ، نحنا بنقدر الرجال ..

أطربت ناظرا إلى الأرض في ترح وقلت قاطعا ..

- بس أنا مش عارف هعمل إيه بالظبط ..

فرد الشيخ موضحا بصوت رخيم ..

- ياوليدي .. الشغلة مش إنك ذبحث .. الشغلة الحقيقة
إنك حاولت تخلق لنفسك طريق بين ناس هما اللي

بيحددوا مين معاهم ومين عليهم .. الحكاية ما هي مثل ما
إنت إنت ناضرها أو متخييلها .. ها دول مافيا من رجال
الداخلية .. عيونهم في كل مكان .. وعيونهم لحقاك من
وقت ما إنهزمت في المرة الأولى .. ها الحان متمسكين
بالقبض عليك .. وهاذ لسبعين .. أو لهم إنك خطفت من
بين أنيابهم اللي ظانينه ورث اللي خلفوهم .. والثانى إنه في
عرفهم ما يجوز يبقى في ملعبهم لاعب ما بيخضع
لأوامرهم وتوصياتهم .. تراها مقدسة ..

فنظرت إليه متعجبا من هذا الإقحام ..

- وإيه علاقة رجال الداخلية بمهربين الأثار؟ ..

فقطب الشيخ حاجبيه قائلًا ..

- هاذول في هاذول .. الإيد اللي بتحرك الضابط مدوح
واللواء طارق وغيرهم كثير .. هي آخر إسم ممكن يتخييله
عقلك إنه متورط في هاذى التجارة المشبوهة ..

شردت بذهني حائرًا مندهشا ..

- وإزاي عرفت ياعم الشيخ كل الحاجات دي؟ ..

نظر الشيخ إلى البراح أمام البيت ..

- الأثار اللي في كل المناطق هاذى .. مدفونة بأرضينا .. لا تنضر النور إلا بتصرنا وتحت عيننا .. وما في حدًا عنده المقدرة إنه يوقف قصادنا ولا يناظحنا فيها .. وهاذ عهد بينا وبين رجال الداخلية .. لكن هسا خانوا العهد حين نقبوا في أراضينا بدون علمنا .. "تحت البيت هاك بأرض أبوبيللو" .. وكنوز الأرضي هان خلاص .. إحرمت عليهم فواجهته أتساءل ..

- وهو إنتم عندكم القوة والعتاد عشان تقفووا قصادهم ؟ .. إبتسם الشيخ من فرط سذاجتي وجهل المطبق ..
- إيش بتظن ياوليدي ؟ .. نحنا مجرد قبيلة أو قبيلتين ؟ ..
تبقى مخطى .. نحنا في كل بقعة بأرض مصر .. ونحنا العرق العربي الوحيد اللي للحين محتفظ بأعرافه وتقاليده العصبية القبلية .. وهاذ سر قوتنا ..

ثم نظر الشيخ إلى الأفق البعيد وأشار بيده ضاما سبابته والوسطى من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب قائلا ..

- عصبتنا في الأردن وفلسطين وسوريا والعراق والخليج العربي .. وليبيا وتونس والجزائر وغيرهم كثير.. مشارقها ومغاربها .. نحنا على إتصال دائم وتعاون مستمر .. قادرين على خلق أقوى جيش في العالم .. وعلى إثر جملته "أقوى جيش في العالم" .. إمتنعت شفتاي برفقي .. ودار في ذهني بغتة ما يحدث في فلسطين على يد المغتصب الصهيوني .. وخنوع وتخاذل القوى العربية .. إلا أن الفكرة كانت كومضة مالبثت أن أطفيتها رياح المoom .. فبادرته أقول ..

- كل اللي بتمناه ياعم الشيخ إنى أبيع التمايل الذهب اللي معايا .. ونصيبك محفوظ ..

فند الشيخ ضحكة وحيدة النبرة ثم أدار ظهره لي قائلا ..

- يا وليدى كل الأرض هاذى اللي تحت رجليك .. بمدى الشوف .. طافية على بحر من كنوز الفراعنة ..

وتلفت الشيخ بغتة إلى حيث يتقدم حمدان قائلا ..

- أطعمت الحلال يا حمدان؟ ..

- عونك ياشيخ .. كل الحلال أكلت ..

فرمقته في عجب ..

- والله أنا مستغرب لأمركم .. إيه لازمة التعب والشقى ده
.. وإنتم قادرین تعيشوها أسياد على رقاب العباد من
ورى الثروة الضخمة دى ..

فواجهنى الشيخ ضاحكا ..

- الشباب دوم مستعجل .. الحياة يا ولیدى بدون تعب تبقى
ماسخة ومايعرف .. عديمة المعنى وما لها قيمة .. " لا طعم
للحلوى فى فم تعود على مذاق العسل " .. حل ننصر
جمال الدنيا هاذى وتنتمى بيه لزوم قبلها تشوف وشها
الثانى .. ربنا جبل الليل جل يكون للضوء معنى .. هيك
ماشية .. حلو ومر .. جمال وقبح .. ليل ونهار .. أبيض
وأسود .. خير وشر .. وهادى سنة الحياة ..

تقىد حمدان إلينا .. يوجه حدیثه لى ..

- ما شبعت من رفقة عمك الشيخ ؟ .. إرخصلى يابوى ..
بدى ضيفنا في جولة بالسيارة ..

فنظر الشيخ شطري ..

- قوم يا ولیدى .. وريح بالك ما عليك شر ..

فقمت مستأذنا .. وركبنا السيارة التى مضت تتحرك .. حتى
غابت .. إبتلعتها البيوت والرمال ..

.....

ليلة مقمرة .. كنت أجلس وحيدا .. أفترش المصطبة أمام الدار
.. إذ فوجئت بهويدا تخرج من الدهلizi الواسع .. تحمل صينية
الشاي .. وتعجبت أنى لا أراها إلا وهى تเคลل ذراعيها بالطعام
أو الشاي ..

إبتسمت بمرآها إبتسامة خافتة .. ونظرتها وهى تضع ما تحمل
على المصطبة ثم جلست على مسافة مني تحدثنى
- ما ليك إخوات بنات؟ ..

تعجبت من إستفهامها .. إلا أن السؤال أثار فى جائشى الكثير من
المشاهد .. والمشاعر الشجية .. وفتح الأبواب المواربة على
مصرعها .. أسندت رأسى إلى الحائط .. شارداً أسرح في
ذكريات الأيام الخوالى ..

قطع سرحتى القصيرة .. صوت قادم لفتاة ..
- هويدا .. يا هويدا ..

قدمت إلينا الفتاة تجرى إلا أنها توافت بعنة عندما رأتني

إقتربت من هويدا .. تهمهم بعبارات مطلسمة ثم جلست إلى
جوارها تتخفى خلف وشاحا البدوى المزرകش .. وطفقت
تلکزها في جانبها .. تستعلم عن كنهى .. فبادرتها هويدا قائلة ..

- زين إنك جيتى .. بجل تقعدى معانا .. هاذ مصطفى
ضيف أبوى ورفيق أخوى حمدان ..

إلا أن الفتاة لم تكف عن فعلها .. ظلت تهمهم وتتمتم وتلکز
بيدها .. نظرت إلى هويدا مستوضحا ..
- هيا قرييتك ؟ ..

فأجابتنى تعلوها إبتسامة خجل ..
- نعم .. هاذى صالحة بنيت عمى .. وخطيبة حمدان أخوى

أطربت للحظة ثم قلت لهويدا ..

- هي قرييتكوا دى مفيهاش قهاوى ..

نظرا الفتاتان إلى بعضهما البعض .. مبتسمتين .. وفي صوت
واحد هتفتا مدهوشتين ..

- قهاوى ؟ ! ..

فطالعنى هويدا ..

- القهاوى فى القرية القديمة .. هاك .. على الجهة الثانية من
الرياح .. أما هان .. ما فى وقت لقعدات القهاوى ..
الرجال بيستغلوا طول النهار وبيلفوا ع النوم ..
فقلت حائرا متملما ..

- ولما حد فيكم بيزهق .. بيعمل إيه ؟ .. ولا كمان مفيش
وقت للزهق ..

فذهبت إبتسامتها المعتادة وحدشتني جادة ..

- ما بعرف .. لكن هسا لما بزهق .. أروح أقعد هاك عند
شط البحيرة .. الجو هاك حلو وبيه ضلة وهو .. والمنظر
جميل عند دغل النخل وشجر الكافور .. وفراخ السمان
والبط طاييفين بوش المي .. شى يريح النفس .. وكاد
يضيع الزهق ..

نظرت بعيداً أرمق البحيرة وضوء القمر يتلألأ على أديمها .. ثم
أطرقت مرة أخرى صامتا .. فلا ثمة ما أقوله في تلك الجلسة
المملة الرتيبة .. فبادرتني هويدا ..

- شو .. هييك مليت من مجلسنا بسرعة ؟ ! ..
إغترمنى الخرج ..

- لأن الموضع مش كدة .. أنا بس دماغي مشغولة
ومهموم شوية .. وهمى ده حرم عليا أقعد مستريح البال
نظرتني متعجبة ..

- مهموم؟!! ..

وطأطأت هامتها لبرهة .. ثم رفعتها تقول في إبتسام ..

- وإيش تسوى باللى ينسيك هاذ الهموم هيک؟ ..
نظرت إليها أتعجب جسارتها .. بينما لكت لكت هى جارتها بخفة
تقول ..

- ما بدك تعرف سولفة الذيب والثلاث نعجات والجمل
اللى طلع النخلة؟ ..

وطفقت تخرج من حكاية لتدخل إلى الأخرى تشاطرها صالحة
الحكى .. حتى أصبحتني بالفعل .. إلا أن ضحكتي لم يكن على
حكاياهم .. فقد كانت مملة وقديمة للغاية .. وإنما على سجيتهما
الطفولية التي تصغر عمرهما بأعوام .. وعلى عقولها العذراء ..
البكر .. التي لم تدنسها أحقاد أو تدابير ..

ظللت جلستنا لما يعدو من الساعة والنصف .. تمنينا خلاها من
إنطاق لسانى وإسعاد سريرتى .. تجاذبنا فيها أطراف الحديث

الطلى .. تخلله ضحكات بلا أصوات إلى أن أطربت لبرهة ثم
قلت ..

- تصدقوا ؟ .. قريتكو دى من أجمل وأنقى الأماكن اللي
شوفتها لحد دلوقتى .. عاملة زى اللؤلؤة الغالية اللي
مدفونة في وسط الطمى والطين .. بس في الآخر هتفضل
لؤلؤة جميلة .. شفافة وناعمة ومنورة ..

"١٤"

في صبيحة يوم مشمس .. كنت أجلس كعادتي خاويا .. أفترش المصطبة أمام الدار .. إذ باغتنى أصوات أعيرة نارية كثيفة تطن في جنبات القرية .. قمت متنفضاً أخرى الصوت .. حينها كان حمان قادما على مبعدة يهrol ويحثوا الشري أمامه .. وفي ذات الوقت خرج الشيخ قويا وهو يدا فزعان .. كما نفر أحد العمال من احدى الصوب .. هتف الشيخ في ذعر ..

- إيش جرى يا وليد؟ ..

قال حمان يلهث مكروبا ويلتقط أنفاسه بصعوبة ..

- جماعة حمان وجماعة سلمان رجعوا يتقاتلو من تانى ..

كل واحدة بدها تحط يدها على أرض الوادي الغربي ..

فرد الشيخ قويا حزينا ..

- يا حيف عليهم ..

فقلت وجلا ..

- أرض إيه دى؟ ..

أرجأ الشيخ ينظر إلى أقصى القرية من بعيد ..

- هاذى أرض الحد الغربى للقرية .. إتشارك فيها أجدادهم .. وإتنازع عليها الأحفاد .. وهسا من وقت للثانى يعبوا القرية بصوت الرصاص .. لكن وكاد المرة هاذى القياد فك والعيار فل عن السيطرة .. ما سمعنا أصوات ضرب النار هاذى من قبل .. وإستطرد حمدان ..

- حق يابوى .. الشغلة زادت عن الحد .. وضرب النار بقا للركب ..

أطربت صامتا لبرهة ثم نطقت ..

- وهو مش ممكن ياعم الشيخ تشفو حل للنزاع الداير ده ؟

فقال الشيخ ضائقا ..

- ما يقدر حدا يتدخل الحان .. كفاك الله شر العربان وشر قتالهم .. لزوم يوقفوا ضرب النار الأول ..

زاد دوى الطلقات وأصبح لها صدى مخيفا يتردد من مشرق الفيفاء إلى مغربها .. مما جعل الشيخ يدعوا الوقوف للدخول إلى جوف المنزل .. إتقاءا لخطر الطلقات الطائشة

ظل هذا التقرير بالنيران دائرا لعدة أيام .. إلى أن دعاهما الشيخ
للإجتماع في جلسة عرفية كبرى ..

وفي ظهيرة اليوم المحدد .. إجتمعت العائلتان في مضيفة الشيخ
قويا .. في حضور كبراء العربان بالأأنحاء المجاورة .. ومن البقاع
الأقرب في صلة الدم .. ومن بين الحضور كان رئيس مديرية أمن
الجيزة اللواء محسن .. بزيه الرسمي .. كانت المضيفة عامرة
بالحضور وبوسائل الضيافة اللاقة .. إذ توسط الغرفة موقدا
للفحم ملتهبا بناره الخافتة .. وثمة صوانى المشروبات الساخنة
والباردة أمام المجموعات المتنالية والمقابلة ..

كانت جماعة سالمان على الجهة اليمنى من المجلس إلى ناحية الباب
بينما إتخذت جماعة حمدان الجهة اليسرى .. وكل يحضر بكلباء
وأعزاء قومه .. كنت أقف في جوار الباب من الخارج أرمق
تداعيات الجلسة وإلى جانبي حمدان ويحيطنا الأفراد الباقية من
عوائل وأصحابها الجماعتان ..

ظل الجدال دائرا إلى أن حمى الوطيس وإشتد الحوار .. وكان
الحديث بين الشيخ قويانا والشيخ سالمان .. قال أو لهم ..

- وإيش اللي جرى ياشيخ سالمان ؟ .. ما يجوز تفل وتسبيب
الجلسة بالطريقة هاد ؟ .. شو ، مش عامل إعتبار لحدا ؟!
فقال الشيخ سالمان يستشيط غضبا ..

- هاد اللي بيحصل مهزلة .. شو هاد الحكم ؟ كيف تلزموا
عشيرتنا وحدها بدفع الديمة ؟ .. نحنا فقدنا من عزاز
شبابنا كثير مثل ما فقدوا ..

لمحت وأنا أرمقهم من وراء الباب الشيخ إمباوى جالسا إلى
الجوار من الشيخ قويما .. وكنت أعرفه حق المعرفة .. تابعته
يتحدث موجها مقالته للشيخ سالمان ..

- هاد هو فضل القول .. العدل .. إنتم اللي بدأتم بضرب
النار وجريتم المجزرة دى لساحة القرية .. وهاد آخر
سولفة الجلسة ..

شدھنى بجسارتھ .. فأشرت إليه أحدث حمان ..
- شايف ؟ .. ده الشيخ إمباوى كبير العربان عندنا

ـ فنظرني حمان جادا ..
ـ بدرى .. المضيفة الواسعة هاد بيها كبارات العربان فى
ـ البلاد اللي حوالينا ..

وبينما كنت أرمق اللواء محسن .. أحسست بشيء من الريبة
والخوف فنظرني حمدان في جدية قائلاً يطمئنني ..

- ما تخاف .. إنت هان بأكثر الأماكن أمان .. ما تنسي إنك
بحمايتنا ..

وإسترعى إلتفاتنا صوت اللواء محسن ..

- الأمور متساهمش كل النزاعات دى حاولوا تشويفوا حل
لخلافاتكم الدائمة .. بدل ما تبقو قوة واحدة تقريباً
بتخلصوا على شبابكم بإيديكم .. نزاعات الإستنزاف
دى هتضعفكם .. واللى إحنا مستنينه منكم أكبر من كده
.. إنتوا ضهرنا في المناطق دى .. ونفسى مجيش هنا غير
زاير ..

فقال الشيخ قوياً ..

- معاليك تنور الدنيا بأى وقت .. دوم يشرفنا حضورك
ياباشا ..

وفي جوهر الأمر أن اللواء كان محض ضيف شرف .. لا يعتد
بحديثه .. إلا أن وجوده كان ضرورياً لتمام قوام الجلسة .. ليشهد
بعينه صعوبة مراسهم وقوة شكيتهم وكلمتهم التي لا ترد .. أما

عن الحلول الفعلية فكانت تصدر من رؤوس العربان منهم وهم .. وما كانوا بحاجة لغريب يملئ عليهم ما يتوجب فعله ..

ظللت الجلسة على أشدّها .. تزيد وتنقص في الحضور حتى إقتراب الليل .. لم يغادرها سوى اللواء محسن .. وإنّته بالأحكام التي أتفق عليها وإرتضت الجماعتان بنتائجها .. إلا أن أنفسهم وكعادتها إنطوت على تدبير آخر .. يصعب الإفصاح عنه وإنّا لأصبحت الحرب كاسحة .. كان الشيخ قوياً بفطنته وبصيرته الثاقبة يرى سويداء صدورهم .. ويعلم أنّ الأمر لم ينتهي عند هذا الحد .. ولكنه يوقن أيضاً أنّ الهدنة أمر ضروري من آن لآخر .. حتى لا تتفاقم الأمور فحروب العربان لا تبقى ولا تذر .. ولترسيخ مبدأ الإذعان للصالح العام .. وكان هذه النزاعات تشتد من وقت لآخر .. للتكتل لا للتفرق .. بإعادة إحياء حمية التزاعات القبلية .. وفي ذات الوقت تغليظ وحدة النسيج بينهم وذاك بإجبار الكل على الإنصياع وإحترام الأعراف التي تنجلّى وتظهر من خلال تلك الجلسات العرفية ..

كان سلوكاً غريباً إلا أنه يؤتى ثماره .. رغم ضحاياه من القتلى والمصابين .. فنزعـة واحدة تفتديها ألف نفس .. ودائماً ما يختلق

أحدهم .. "مسار جحا" .. لينشب النزاع ويتهى بإرضاء الأطراف المقتاتلة .. كانت الحياة تسير على هذا النحو لا إراديا .. ولكن المدقق في حياتهم وقواعدهم وأعرافهم سيكتشف أن هذه الظاهرة صحية بالنسبة لأهدافهم .. تقوى شوكتهم ولا تكسرها .. تبرز جبروتهم لرجال الداخلية الذين غالبا ما يشاركون تلك الجلسات برجل منهم ذو منزلة عليا لا يقل عن رتبة لواء كانت أخبار تلك الجلسات ونتائجها سريعا ما تسرب وتنتشر وتجوب الأعراق الأخرى كالفلاحين والصعايدة وسكان الحضر وغيرهم .. فيذاع صيت العربان ويعرف قوة شكيمتهم .. ليخشواهم كل من يحاول التصدي لهم وجبروتهم .. إتقاءا لشر وغاظة براثنهم السمهورية المشحودة دوما ..

ولا يمكن إغفال رصيدهم الأقليمي والدولي النضالي ضد المعتدين والغزاوة والذى أصل عندهم الحمية والعصبية والدفاع عن أعرافهم ومقدراتهم .. وبجولة بسيطة ستتجلى مظاهر هذا النضال وتاريخه .. لنرى حيثياتهم في فلسطين والأردن ولبنان وسوريا والعراق ضد المعتمى الصهيونى والأمرىكى .. والإيطالى في ليبيا والفرنسى في الجزائر والإنجليزى في أكثر من

دولة .. وغيرهم الكثيرين .. كانت ثوراتهم وإنتفاضاتهم
ومقاومتهم الحشية أكبر دليل على أن هذا العرق لا يمل ولا يكل
ولا يرضخ منها أذيع عنه من إشاعات مغرضة هي في الأصل
صنيعة ماسونية وصهيونية ..

.....

في إحدى الليالي وأثناء إفتراضي المصطبة أمام الدار .. إقتربت
صالحة من مجلسى يغرقها الحياة ويغتمرها الحرج .. كانت توارى
 وجهها بوشاحها الصغير .. جلست على مبعدة مني ويدوأن فى
جوفها حديثا تود البوح به إلا أن خجلها الطفولى منعها من
النطق ..

كنت قد تنبهت لحضورها .. وإسترعى إلتفاتى للحظات زهيدة
إختلاسها النظر إلا أنى لم أكن مفينا .. كنت مستغرقا في تفكير
عميق .. وما إن رأيت حالتى تلك حتى آثرت الصمت .. تنتظر
خروج هويدا من جوف الدار ..

لم أجادل نفسي كثيرا عن علالتها .. فقد كان حديثى الداخلى
يتناهى .. أتأمل ما آل إليه حالى وما إنتهيت إليه .. ذاك الحال
الذى ما ينفك أن أتناساه حتى يطوف على أديم ذهنى وخلدى ..

كنت أتساءل حائرا .. إلى أين ستقودني مقاديرى .. وتدكرت
أبى وأخى الصغير وسماح .. شعرت يقيناً بأن خطراً ما لا مناص
قد داهمهم جريرة تورطى .. وبت مريجا .. ترى مالذى قد يكون
قد حدث لهم على وجه التحديد .. كان الألم يعتصرنى ويؤخر
صدرى .. وثمة كابوساً شيطانياً لحوادماً يهاجمنى .. يضربنى
ويسلبني مرائي .. يصورلى مشاهد مفزعة هم ضحاياها .. طاح
لبى لا أتخيل كيف لأبى القعيد أن يتحمل كل تلك النوازل ..
أخشى ما أخشاه أن يكون قد أصيب بمكروه .. وأننا هنا غارق
قسراً لأذنى في أرض ليست بأرضى وبين أناس لا أعرفهم ولا
يعرفوننى ..

طفقت أؤنب نفسي وألومها وأغالى في تعذيبها على إستخراطى
بين هؤلاء دون مبرر .. متناسياً ورطتى ومن هم في رقبتى
.. وس يول لهم تدمددم في عمقي كاسحة بيد أنى لم أجده سوى أن
أرتضى خودى ورضوخى وإن كان على مضض .. فما زلت لا
أعلم مخرجاً سوى الإنصياع لتدابير الشيخ قوياً بالأصلالة عنى ..
دون أن أعرف بماذا يفكر أو كيف سينقذنى من وحلتى ..

نظرت إلى السماء .. يند صدرى عن جوفه تنهيدة ثقيلة .. أنا جى
ربى .. ترى ماذا كتبت لي الأقدار في الأيام القادمة؟ .. تفهنت
نديما .. يضربني الكمد ضربات ساحقة ماحقة .. أنظر رعبا
وخوفا مما يتظرني .. لو كنت أعلم ما ستسوقنى إليه قدماى ما
كنت خطوت .. لقد كان أبي على حق .. لقد أضعت كل فرصى
.. وها أنا ذا أستجدى أية بادرة أمل ..
ملأة جوفي بشهيق عميق ..أتاؤه هما ..

- يا الله ١١١١١١١١١اه ..

وعلى حين غرة .. صرعنى صوت مباغت يصرخ .. كاد
أن يسرخ قلبي ..
- يافاجرة .. يافاجرة ..

كان صوت حمان يتقدم إلينا متازفا .. يثور ثائره .. توجه مباشرة
صوب صاححة التي كنت قد غفلت حضورها .. التي ما إن رأته
وسمعت صراخه حتى إنتصبت لاهثة مفروعة .. فبادرها مسكا
بجدايلها .. ينزعها نزعا .. وطفق يصفعها على وجهها بغلاظة ..
وهي تصرخ وتصيح .. مستنجلة ومستغيرة ..

- والله العظيم ما عملت إشى .. إنت فهمان غلط ياخوى ..
أوااه .. ياماي .. ياماي ..

كان حمان قد إختلط عليه الأمر إلا أن علاته كانت وجيهة نسبيا .. فجلسة صالحة في الجوار مني في ذاك الوقت من الليل كانت موحية بأفكار تنافى أعرافهم .. وبلغ الزبد الربى أن رأها بغير غطاء رأسها .. هائمة في أساريرى .. إلا أنى لم أكن أدرى بما يعتمل في ذهنها لحظتها .. كنت مستغرقا في ترحى وهمى .. إقتربت وحدثته مهدئا ..

- إهدى شوية وهتفهم كل حاجة ، إيه اللي إنت بتعمله ده ؟
لم يكترث بحديishi .. ومضى يسجّبها متغالظا إلى جوف المنزل ..
ينادي والده صارخا ..

- يابوى .. يابوى .. تعال إنضر الفضيحة اللي لفانا بيها ضيفك .. إنتهك حرمة بيتك يابو ووى .. خرجت هويدا ذاهلة مذعورة لما يفعله حمدان ..
- يامصست .. يامصست ..

يبينما استطرد حمدان في صر اخه العايش .. النابع من نفس مريضته

- لزوم أذبها .. هذب الفاجر والفاجرة ..

وأخيرا خرج الشيخ مفينا من النوم .. ساخطا مستاءا .. وما إن رأه حمدان حتى أفلت جدائل صالحة وطرحها على الأرض ..
فإهتاج الشيخ ..

- حمدان .. إيش فيه شو جرالك ؟ .. علامك تصيح ياوليدي ؟ ..

فركلها حمدان ركلة عنيفة .. فاز عا في وجه أبيه ..
- ما ظنني تسيب يابوى .. لقيته مع الفاجرة هاذى قبال الدار ..
.. هو سبب الفضيحة هاد اللي وقعت فوق روستنا ..
رمقنى الشيخ بنظرة مستنكرة .. فتعثرت الكلمات على لسانى ..
- محصلش حاجة ياعم الشيخ .. والله العظيم ما حصل حاجة ..

وقف الجميع صامت للحظات .. لا يسمع سوى عويل صالحة وندب هويدا .. بينما دخل حمدان إلى صحن البيت .. وخرج يشهر بندقيته في وجهى .. فناهضه الشيخ صائحا ..
- حمدان .. هات البنديقة هاذى .. وإنزرم الحان ..
حاول حمدان أن يتفوه .. فصارعه الشيخ ..
- فل عن وجهى .. روح إندر ..

ألقى حمدان البندقية مهتاجاً يردد منصرفاً ..
- قولك أمر يابوى .. طايج في داهية ..
ونطقت هويداً أخيراً ..

- والله العظيم يابوى ما حصل إشى .. صالحة كانت جيالى
مثل ما بتلفى كل ليلة .. وأنا كنت جوه الدار .. مصطفى
ماله ذنب .. كان قاعد بظروفه المضطبة ..
أطرق الشيخ ناظراً إلى .. نظرة مبهمة باهته .. فأردفت أبرئ
ساحتى ..

- أقسم بالله العظيم ياشيخ ما حصل حاجة ..
رفع الشيخ رأسه صائحاً في هويدا وصالحة ..

- هويدا .. إلفى لجوه الدار .. وإننى فلى لمكان ما جيتى ..
وتركتى الشيخ أمام البيت حائراً لما حاكت لى الأقدار .. لم أكن
أعلم هل إستوثق الشيخ من صدق حديثى ونياتى أم أن إتهامات
حمدان التعسفية قد وطنت برأسه وقلبه ..
كنت شديد الإستيء لما أوقعت فيه قسراً .. ولم أحاط لحدوده ..
وطفقت أؤنب نفسي للمرة الثانية أنى قد تخطيت حدودى مع
هويدا وصالحة .. حقاً .. ما كان يجب أن يحدث كل هذا .. ترى

ما الجديد الذى أوحـلت قدمـاـى به ؟ .. كـتـ أـخـشـى ما أـخـشـاهـ آـنـ
يـتـسـلـلـ المـقـتـ والـبغـضـ إـلـىـ سـرـيرـةـ الشـيـخـ وـأـعـلـمـ أـهـ لـنـ يـهـدـأـ ثـائـرـ
حـمـدانـ جـراءـ ماـ حـدـثـ .. فـرـاعـنـىـ أـنـ تـصـبـ عـلـىـ رـأـسـيـ جـامـ
لـعـنـاتـهـاـ وـأـنـ يـكـتـسـحـنـىـ غـضـبـهـاـ وـسـخـطـهـاـ فـىـ أـشـدـ أـوـقـاتـىـ حاجـةـ
لـمـاسـعـدـتـهـاـ .. كـمـاـ أـنـتـىـ لـنـ أـسـتـطـعـ فـىـ الـوقـتـ الـراـهـنـ بـكـلـ ماـ
أـوـتـيـتـ مـنـ حـنـكـةـ وـبـصـيرـةـ تـضـمـيـدـ ذـاكـ الشـرـخـ الـذـىـ أـصـابـ
عـلـاقـتـىـ بـالـشـيـخـ

لـمـ أـمـلـكـ إـلـاـ الجـلدـ وـالـتـائـىـ .. كـرـتـ إـلـىـ غـرـفـتـىـ مـتـشـاقـلاـ .. أـتـهـدـجـ
بـالـخـيـةـ وـالـوـجـلـ وـالـإـنـكـسـارـ .. لـاـ أـدـرـىـ مـاـ قـدـ يـحـاـكـ مـنـ وـرـاءـ
ظـهـرـىـ .. وـلـكـنـ عـلـىـ كـلـ حـالـ كـانـ عـلـىـ أـنـ أـتـحـسـبـ لـأـيـ طـارـئـ قـدـ
يـحـدـثـ .. وـأـنـ أـحـتـاطـ لـطـارـقـ الشـرـ .. فـمـنـذـ دـقـائقـ كـانـتـ سـتـدـهـقـ
رـوـحـىـ .. لـذـاـ وـلـجـتـ إـلـىـ الغـرـفـةـ وـأـوـصـدـتـ بـاـبـهـاـ وـشـرـفـاتـهـاـ جـيدـاـ ..

.....

ظلـ الشـيـخـ لـعـدـةـ أـيـامـ بـعـدـهاـ يـحـادـثـنـىـ قـلـيلـاـ مـتـحـفـظـاـ .. وـلـمـ يـعـدـ
يـضـمـنـاـ مـجـلـسـ كـسـابـقـ عـهـدـهـ مـعـىـ .. فـإـمـاـ أـنـ يـكـونـ خـارـجـ الدـارـ فـىـ
غـرـضـ مـاـ أـوـ فـىـ جـوـفـهـ لـاـ يـبـرـحـهـ وـلـاـ يـشـارـفـ سـاحـتـهـ إـلـاـ نـادـرـاـ وـفـىـ
غـيرـ وـجـودـىـ .. وـرـغـمـ هـذـاـ التـغـيـرـ المـبـاغـتـ .. لـمـ يـتـغـيرـ شـيـءـ فـىـ

حسن ضيافتهم .. كان الطعام يواfinى بإنتظام فى غرفتى .. إلا أن أحدا من العمال هو المنوط بجلبه ..

أما حمدان فلم يكن لسانه يحادثنى البتة .. يخرج ويدخل أمام ناظرى متقدعا .. يطوى في نفسه نية لا يعلمها إلا الله .. ولقد كشفت لي تلك الواقعـة كـم أن عقول تلك الفتـة مغلقة تحركها إعتقدـات عمـاء صـماء .. كما تيقـنت إـستحالـة أن التـهم يومـا ما بـعادـاتـهم وأـعـرـافـهم وأـنـأـتـعـاـيشـمـعـهـا .. تلكـالـتـىـأـغـرـقـتـأـلـبـاـبـهـمـوـأـسـكـتـتـبعـضـاـمـنـمـرـونـةـوـمـرـوـءـةـضـبـائـرـهـمـ..ـفـبـاتـرـدـودـأـفـعـاـلـهـمـحـقـاءـمـزـوـجـةـبـقـلـةـتـبـصـرـفـزـمـنـرـتـعـفـيـهـالـجـهـلـوـالـهـرـاءـ..ـكـانـتـتـلـكـالـأـيـامـمـقـيـتـةـلـلـغاـيـةـ..ـوـشـعـورـمـاـبـالـوـحـدـةـوـالـإـغـرـابـقـدـبـدـأـيـتـسـلـلـإـلـىـنـفـسـىـ..ـلـيـزـيدـمـثـاقـيلـوـيـضـنـيـبـهاـ..ـوـيـخـيـفـنـىـمـنـمـكـرـالـأـيـامـوـغـلـبـتـهـاـ..ـلـمـأـكـنـأـنـقـاعـلـفـتـلـكـالـأـوـنـةـإـلـاـمـعـقـلـلـيـمـنـعـالـعـمـالـوـالـأـهـالـىـ..ـوـبـيـنـأـهـلـالـدارـشـبـهـقـطـيـعـةـتـرـهـقـنـىـ..ـوـتـزـيـدـنـىـإـلـاـمـاـ..ـكـنـتـكـلـمـاـضـاـقـبـىـالـحـالـأـذـهـبـلـأـجـلـسـعـلـىـضـفـةـالـبـحـرـةـالـصـغـيرـةـ..ـعـلـىـمـبـعـدـةـمـنـالـجـهـةـالـشـرـقـيـةـحـيـثـتـطـوـقـهـاـأـشـجـارـالـنـخـيلـوـالـكـافـورـوـالـهـيـشـ..ـعـلـاـوـةـعـلـىـإـطـلـالـةـالـبـيـتـالـمـيـزـةـعـلـيـهـاـ..ـمـاـسـمـحـلـىـبـمـتـابـعـةـمـاـيـدـورـ

هناك .. فلعل أمر ما يخصنى تدور رحاه بينهم ويتوجب مراقبته
وترصدہ ..

كنت أمكث بالساعات هناك .. أنظر إلى أديم المياه الراكدة ..
شاردا .. أحاول أن أفكر وأتذير أمري إذا ما ساءت بي الأحوال
.. حتى أنه في بعض الأيام لا يدخل جوف لقمة واحدة .. إذ أن
الطعام لا ينبغي أن يأتينى في ذاك المكان .. بينما كانت هويدا
تنظرنى من شرفات الدار حزينة يائسة .. وما إن ترى حمدان
قادما حتى تختفى إلى جوف الدار .. وفي بعض الأحيان كانت
سيارة حمدان تمر بمجلسى هذا .. وإذا ما أشرفت بتحيته محاولا
تلطيف هذا الإحتقان .. نظرنى بسخرية وعجرفة دون أن يحفل
بي ..

وفي ظهرة يوم ما .. كنت أجلس تحت ظلال النخيل وأطوق
قدماي بذراعاي .. شاردا وسارحا كعادتى .. رمقت عيناي
هناك بعيدا في الناحية البحريه .. من البيت والبحيرة .. قبالة
بيوت جماعة سالمان .. تجمع من عصبته تحت سقيفة صغيرة ..
يتحادثون .. بينما إقترب أحدهم من الشيخ سالمان .. يشير ببنانه
إلى حيث كنت أجلس .. هامسا إليه بأمر ما .. تعجبت من

أمرهم وما زاد إندهاشى أن إنتصب الشيخ سالمان يرمقنى
ضاحكا بشدة ..

ظننت في بادئ الأمر أنه قد نبا إليه خبر تلك الليلة .. إلا أن الأمر
لم يbedo على هذه الشاكلة .. إذ بعث أحدا من جماعته يأتيني كل
يوم ليراقبنى ويتابعنى عن كثب .. يجلس على مبعدة قريبة منى
ولا يربح مكانه إلا بعد مغادرتى .. أحسست بإرتياط شديد ..
وما زاد الطين بلة أن لاحظ حمدان تربصاتهم تلك .. وتضاحك
عصبة الشيخ سالمان وعلو أصواتهم في كل مرة تمر سيارته
بمجلسهم .. فظن هو الآخر ما ظننته في بادئ الأمر .. مما زاده
شياطا وغليانا تجاهى .. ولو لا وجود الشيخ قويا حائلا بينه
وبينى لزهق روحي دون تردد..

وعندما وجد حمدان أن الأمر قد زاد عن حدة .. قرر أن يعرف
كتنة الحقيقة .. حتى أنته الفرصة .. فيبينا كان داخل إحدى
الصوب يتحرى حركة النباء لبعض زراعاته .. تسمع أحدهم
يحدث رفيق له .. كانا منتسبين بجوار دغل النخيل عند حافة
أرض الصوب .. كنت أرى ذلك بأم عينى ..رأيت ظلال شبحه
وهو يراقبهما من داخل غطاء الصوبة الشفيف .. كما رأيت

الأخران أثناء تهامسها .. إلا أنى لم أعلم على وجه التحديد ما دار بين الرجلين من حديث .. وما راعنى في الأمر وأدخل إلى صدرى الريبة والتوجس أن حمان خرج من الصوبة ينظرنى والإبتسام الساخر والمشفى يملأ أساريره .. بقىت حائرا .. لا أعلم ماذا يحدث .. إلا أن يقيني أن ما يجرى لا يخص ما حدث بيني وبين حمان سالفا .. وإلا لكان غضبه عارما .. لا إيتساما وسخريه ..

كانت حيرتى وشتاتى فى تلك الأيام الخانقة قد وصل إلى حد من الغموض يستحيل وصفه أو تحمله .. حتى أنى كثيرا ما كنت أقرر فى قرارة نفسي أن أذهب إلى حال سبيلي .. ول يحدث ما يحدث .. إلا أن خوفى ووجلى أن تتفاقم الأمور كان يركعنى لأرضى بالوضع الراهن .. وأن أغابله وأنحمله منها كان قاسيا وغامضا .. فلا أحلك من تلك الساعات التى قد أمضيها هاربا مطاردا ..

.....

في غرفة رئيس المباحث .. كان والدى أمام مكتب الضابط على مقعده المتحرك .. وفي الجوار منه سماح .. وتبعد عليهما أثار تعذيب شديد .. إذ كانت ملابسهما مهلهلة وممزقة ذات أهداب

كثيفة .. وتنجلی أجسادهم تغمرها أثار الجروح والسحجات
والكدمات الدموية ..

كانت الأيام السالفة من أصعبها وأقساها عليهما .. قضياها بين
قبضتي الضابط يشفى غليله وحقده فيهما .. ظاناً أن ما يفعله
سيؤتني جدواه .. ويؤتني عنوة إلى ساحتة .. إلا أنني ولتلك
اللحظة لم أكن أعلم بما جرى لهم وهذا من حسن طالعى وإلا
لكان قد حقق ما يربو إليه .. فقط كنت أتكهن ما قد يكون حاقد
بهم دون أن ينبولى خبر أكيد ..
رميهم الضابط يكظم غيظه ..

- مش عارف إيه اللي لازم أعمله معاكم ؟ .. شرذمة من
الحثالة زيكم خلوني عبرة على صفحات الجرائد وهرى
البرامج السخيفه .. خلتوني مسخة بين رجاله الداخلية ..
نظرت إليه سماح في سخرية .. تتألم من وفرة الجروح وتباريحها
بجسدها ووجوها .. بينما رمهه والدى بغضا وحنقا مريجا
بالإعياء وغلظة الضرب والتعذيب مما أبداه كرفات حرب طاغية
طالعهم الضابط بسحنة مقنقة مكتفهرة ..

- بصوا بقا أنا مبزهقش وما بملش .. أنا هنا عشان أغلس
على اللي زيكم .. شغلتى بقا .. فإرحموا نفسكوا وقولولى
هو فين ..

فلم ينس أحد هما بكلمة ..

- متفكروش إن عنادكم ده هينجيه أو ينجيكم .. بالعكس
.. إنتو الخسرانيين طول ما الصايع ده بعيد عن إيدي
وتصرف .. هوريكم النجوم في عز الضهر .. وورونى بقا
الغالى هينفعكم بإيه .. وبرضه بيكم من غيركم هيجي
هيجي .. فياريست متضييعوش وقتى وتوفروا على نفسكم
رحلة عذاب متنوش قدها ..

ظلا صامتين يشرفانه ساخطين متقعين مما جعل الضابط يغتاظ ..
نافذًا صبره ..

- مش هتكلموا؟ .. إنتو الجانيين عليه وعلى نفسكوا ..
ثم كبس زر الاستدعاء .. فدخل أحد العساكر ..

- نزل الحالة دول التخشيبة .. وطبقوا عليهم أزبل دروس
الداخلية ..

أخذهم العسكري .. بينما تنهد الضابط غيظاً وضيقاً .. وأشعل سيجارة .. ينفث دخانها عبر النافذة .. معطياً ظهره للباب يفكر .. مكث لبرهة على حالته تلك ثم ند عن صدره تنهيدة نفاذ صبر .. وقلة حيلة .. وإستدار ضاغطاً زر الإستدعاء تارة أخرى ..

فدخل أحد العساكر

- تمام سيادتك ..

- إبقي خرجهم يابنى آخر اليوم .. مفيش فايدة منهم .. زى
قلتهم ..

.....

وفي نهاية ذاك اليوم وتحت حمرة شمس الأصيل الغاربة .. كانت سماح تدفع والدى بمقعده المتحرك وفي الجوار منها يسير أخي الصغير .. يجذب أطراف ثيابها المهللة .. وحينما إشتدت قبضة الطفل على ثيابها .. نظرت إليه .. فقال ملتاعاً يتضور جوعاً أطيطاً ..

- عايز أكل ياخالتي سماح ..

- تاكل ؟!.. ماشى ياحبيبي ..

أنعمت النظر حوالها فلمحت كشك صغير على الرصيف الآخر .. فتركته بصحبة أبي القعيد في الجوار من الرصيف .. وجسرت الشارع إلى حيث الكشك .. على مبعدة من القسم .. إبّاتاعت ثلاث قرص مسكرة .. ثم عبرت إلى حيث يقفان .. أعطت إحداها لأنّي الصغير .. بينما أمدت الأخرى لأبي .. الذي خمد على مقعده مطرقا .. يرمق الأرض بنظرات جاسية تتحسر أساريره .. هتفت إليه تمد يدها بالقرصة إلا أن الرجل لا يبدى حرفاً .. كان ساكناً لا تختلج فيه جارحة أو عقلة أصبع .. إنخفضت إليه تحاول إفاقته وتنبيهه من شروده .. بيد أن الوقت قد فات .. لقد صرّعه موت الفجاءة كمداً وحسرة .. مكثت تهزّة برجات عنيفة عليها عيناً تنطق فيه ساكناً .. دون جدوٍ .. فإنطلقت من جوفها صرخة مرعبة

- يا لهو !! .. عم محمد .. ياعم محمد رد علينا .. يامصيبيتي .. يالااااهوى ..

كان أبي قد فارق الدنيا قبل أن أودعه .. الوداع الأخير .. داهمته السكتة فبرح الدنيا الزائلة .. مات غريباً دون مودعين .. لم يتم على يديه .. بل مات حضين الشارع والأرصفة .. ذاك الذي

عاش عمره يعطينى ورداً لأسقيه حنظلاً .. مكافحاً ..
كصيام داود .. يحاول أن يبني لنا مستقبلاً لكنى دهدمته فوق
رأسه حتى أزهقت روحه .. فغابت شمس أيامه .. الغيب
الأخير ..

ولا أدرى على من البكاء .. على من أضعته بعنادى وتعنتى ..
وغرورى وحلم الشراء الفاحش السريع .. أم على حالى .. اذ
تركتى مستباح الفؤاد للنوازل وخطوب الأيام .. وكرابيجها
المترصدة لتمزق أديمى ..

في غداة أحد الأيام .. وأثناء تواجدى بقبيلة الشيخ قويا .. حدث شيئاً لم أكن أفهم مغزاً إلى حينها .. إذ نادى حمدان أحد عمال الصوب .. وقد كان أقربهم إلى قلبي حديثاً ومجلسنا .. لذا إنتقامه حمدان من بين الجميع .. وأوكل إليه أمراً يخصنى .. إذ طلب منه أن يصطحبنى إلى ساحة السمر خارج القرية بهدف الترفيه والتخفيف عنى .. وقد كان موقف حمدان هذا مبهاً غير مفهوم أو مبرر .. حتى العامل ذاته ورغم أنه لم يتائب لمراده إلا أنه كان مريحاً حيال هذا الموقف المنافي والغير لائق لما حدث منذ زهاء شهر أمام ساحة الدار وعلى مرأى منه ومن بقية العمال .. والأغرب من هذا أن أعطاه حمدان هاتفاً محمولاً .. وقصده بأن يجري إتصالاً بهاتفه .. وأن يبقى الهاتف على وضعية الإتصال بمجرد خروجنا من القرية .. قاصداً التنصت على ما سيدور بيني وبين العامل من حديث .. وبالفعل دعاني العامل إلى صحبته للتنزه عند ساحة السمر دون أن يعلن لي بأنها رغبة حمدان .. وعندما سأله عن كنة تلك الساحة أخبرنى بأنها أرض تتوطن على مسافة من القرية بقراة الكيلومتر .. يجتمع عندها شباب

القرية للتسامر واللهو ومارسة بعض الأنشطة كنوع من الترفيه يكسر حدة وخشنونه حياة القبيلة .. وقد اختيار مكانها بعيداً عن بيوت القرية في منأى من شكایة الأهالى وتأفهم المترکر التي أثيرت مراراً عندما كانت تلك الساحة تتوطن بجوف القرية .. وافقت مرغماً .. ففى ذات النهار كان حمدان والشيخ ماكثين بالدار لأمر وقيلة خاصة .. ولا مجال لآية مواجهات .. كما أنى كنت بحاجة لأن أرى شيئاً مغايراً .. عن تلك الوجوه والمعلم والأماكن التي لم أرى غيرها منذ زهاء الثلاثة أشهر ..

غادرنا القبيلة من الناحية الشرقية عبر مشى ضيق جداً تحوطه التلال .. لا يتسع إلا للمترجلين فقط .. ودهشنى أنى لم أره من قبل طوال مدة إقامتي .. وبمجرد أن بدأنا المسير أبرز العامل الهاتف وأجرى إتصالاً بحمدان وأبقى الهاتف على وضع الإتصال كما أمره ..

ظللنا سائرين حتى أهبت الشمس ظهورنا .. وتعجبت لتلك البقعة المتقطنة في الفيفاء بين الرمال الجدباء وتحت ألسنة الشمس الحارقة .. وشعرت بشيء من الندم أنى وافقت على المضى في هذا المسير .. إلا أن ما رأيته عندما شارفنا الساحة كان مغايراً لكل

تصوراتي وما كونته عن معالمه بمخيالي .. فقد كانت الساحة
بحق جنة فيحاء محاطة بأشجار النخيل الواطئة .. المتقاربة بشكل
منتظم .. وبأشجار التوت والجميز والكافور والجزورين الوارفة
.. يتوسطها بساطاً أخضر من النجيل كما لو كانت ملعاً للكرة ..
وفي الجوار ثمة مورد مياه صناعي يجلب المياه الجوفية الصافية
النقية من أعماق الأرض ..

إنكبت مستلقياً أسفل شجرة توت عتيقة ذات فروع مدلاة
وأوراق كثيفة .. كنت مجهداً للغاية بعدما أصابني الكلال من
طول مشقة الطريق في هذا النهار شديد القيظ ..

إنطرح العامل في الجوار مني .. بينما كنت أستغرق في شرودي
المعتاد الذي تبنيته عادة .. في الأونة الأخيرة .. جذب العامل
عوداً من تكتل الحلفا بجواره حتى إنزعه .. ومضى يحليه وينخليه
من إهابه طبقة تلو الأخرى .. ينظر إلى في ترقب .. يريد أن يستهل
حوار معى .. برهة وألقى العود بعد أن جرده تماماً من دثرته
وغطاءه .. ناظراً إلى البساط الأخضرمحاكيًا جلستي وهيئتي قائلاً

..

- هاد الدرجة ما بتقدر على فراقها؟ ، بتعشقها يا مصطفى؟

ظننت أنه قد تكهن جازماً أنى أفكر في حبيتى المكلومة ..
الرابضة هناك .. في منأى عنى .. بينما أنا هنا منفياً عنها .. إذ دار
بيني وبينه سالفًا حديث بخصوصها .. فأخبرته بأمرها .. إنطلق
لسانى دون تفكير وأنا أرى طيف سماح يتمثل أمام مرآى ..
- أنا خسرت أجمل أيام عمرى علشان خاطرها ..

ومن مفارقات القدر أن سألنى الرجل عن إسمها ولأول مرة مذ
حدثته عنها في حين كان حمدان على الطرف الآخر يقترب
بمسامعه من مسامع هاتفه الذى يوصله حديثنا خلسة .. حتى
يستبين ما يقال بجلاء ووضوح .. فقلت مجياً أغفل ذاك المترصد
عبر الأثير ..

- سماح .. إسمها سماح .. كانت جارتنا .. عمرها ما غابت
يوم عن عينى .. دى أول مرة أغيب عنها كل المدة دى ..
وحشتني .. ووحشنى أبويا وأخويَا .. البلد كلها
وحشتني ..

وما إن سمع حمدان الإسم حتى غرق لأذنيه جازعاً مشتنا ..
تشاقل بجسده إلى جذع نخلة مبهوتاً يتقدّر بالندم .. وبداً أن ذنبنا
ما قد إقترفه بحقى لم أكن أتبينه حتى تلك اللحظة .. ظل حمدان

على حالي إلى أن رفع هاتفه الذي تناقل هو الآخر فهو واقع ..
وظل يهتف ..

- ألو .. ألو .. يامراجع .. يامراجع شو صارلك ياخبل ..
اللو .. ألو

إلا أن العامل لم يرد .. فقد تناهى حمدان أنه طلب من العامل كتم
صوت المتصل .. حتى لا تنبو إلى مسامعي أية أصوات عبر
الهاتف المندس في جيب العامل العلوي .. فأصوات الماشية هناك
.. بربوع القبيلة .. كفيلة بإفتضاح الأمر .. ففعل الرجل كما طلب
منه ..

ظل حمدان مطرقا للحظات يتسمع أصواتنا .. إلى أن إنتصب
واقفا .. ثم هرع إلى سيارته وركبها متوجهها صوب أقصى الحد
الشرقي .. وأنا كالأخumi .. تحاكي لى التدابير أمام مرآي دون أن
أراها ..

توقف الحديث بيني وبين العامل .. بينما رمكته مريحا يتربص
الطريق خلفه يضرب بناظره في أرجاء الساحة بشيء من الريبة ..
وهذا ما إسترعى إلتغاتي وخالجني بالرهبة والوجل .. وإستفقت

بغتة إلى أن ساحة السمر تلك خالية عن آخرها .. ساحة سمر بلا متسامرين ..

ظل العامل لبرهة مطروقا لا ينبع بكلمة واحدة إلى أن طالعني برغبته في قضاء حاجته في الجوار .. وإنصرف وتركني وحدى أتلفت حولي شاردا .. كان المدق الرئيسي المؤدى إلى القرية على مرأى مني بزهاء النصف كيلو متر .. ساعدت حدة الإنحدارات به أن أرى قمته دون أن يرنى مرتابيه ..

وفي غمرة إنشغالى بهوا جسى .. والتي زادت عندما تغيب عنى العامل لما يudo الرابع ساعة .. لمحت بعيدا عند بطحاء الطريق سيارة شرطة .. بدا لي أنها تتقدم صوب الساحة .. فهجعت من مضجعى متتصبا .. وهرعت أخفى خلف كومة رمال على بعد قرابة العشرون مترا ..

إقتربت السيارة شيئا فشيئا حتى كانت على رأس الساحة .. وكانت الصدمة عندما لمحت الضابط مدوح يهبط منها شاهرا سلاحه وبصحبته إثنان من العساكر .. ظهر العامل أخيرا بعد قضاء حاجته فبوغت بمرأى الضابط .. الذى رعد فيه دون سابق إنذار يسأله ..

- هو فين؟ ..

- على من تسولف حضرتك؟ ..

- إنت هتستطبع؟ .. مصطفى ..

- مصطفى من ياباشا؟ .. ما في حدا هان غيري ..

ـ مما أثار حفيظة الضابط فثار ثائره وصفع العامل على وجهه ..
ـ حينها علمت بالمكيدة التي حيكت لي .. رغب أحدهم وخالجني
ـ ظن أكيد أنه حمدان في تسليمي يد بيد للشرطة .. بعيدا عن القبيلة
ـ .. وبعيدا عن أعين الشيخ قويا .. مناهضهم الأوحد في تلك
ـ المنطقة .. حتى يتم الأمر في خارج ساحته وأراضيه .. بدعوى أنه
ـ تم الإمساك بي أثناء هروبى من قبضة الشيخ وحمايته .. حتى لا
ـ يوقع الضابط في شراك التعذيب على الشيخ في حصنوه وأراضيه
ـ إستدررت بجسدى لأطلق قدماى للريح متوجهها صوب القرية
ـ لأحتمى بحاجها .. وهنا فقط تيقنت قيمة ذاك الكهل العجوز ..
ـ الشيخ قويا .. بيد أنى ما كدت أن ألوى عنقى حتى بوغت
ـ بحمدان يتزرعنى من أطراف ثيابى عند كتفى .. هاربا بي إلى
ـ خارج الساحة .. كانت سيارته بالقرب تتوطن بأحد المدقات
ـ الخبيئة .. انكبينا بها .. وانطلقنا صوب القبيلة ..

.....

وفي قرية الشيخ قويا .. قبيل الظهيرة بدقائق .. كانت سيارة الضابط مدوح تقترب من ساحة البيت .. من الجهة الشرقية .. بينما يظهر جلياً الشيخ سلمان .. يطل من بقعة السقية وتعتل أساريره ضحكة سافرة ساخرة .. حينها كان حمدان في الجوار القريب على غير حاله .. سادم نادم .. الغيط والإحتقان يغمران ملامحه ..

وما إن تجمعت أمام مرأى المشاهد الثلاث حتى بطل عجبي وتيقن حدسى حول المكيدة التى حيكت لي .. لقد أبرم حمدان إتفاقاً مسبقاً مع الشيخ سالمان .. أن ينصبأ لي فخ للإيقاع بي .. ولكل كانت مصالحة وأغراضه الخاصة .. فحمدان أراد الإنقام مني .. عندما ظن أن ثمة علاقة مريبة تربطني بخطيبته صالحة سراً كما أىقنت أن وجود شاب أعزب في دارهم يمثل خطرًا على أخيه هويدا البكر العذراء جسداً وقلباً وعقلاً .. قليلة الخبرة والتجارب في التعامل مع الرجال .. وفي الواقع كان ظناً أحمقًا إذ أن المكيدة الحقيقة قد نصبت لوالده الشيخ قوياً من جانب الشيخ سالمان الحاقد الكاره .. فأوشيا بي عند الضابط مدوح

وأعطيانه خبرى كاملا .. كما دبرا لإقتياضى إلى خارج القرية ..
حتى تكون عملية الإيقاع بى يسيرة ونظيفة دون عقبات أو
حقوق ..

وما إن علم حمان بحقيقة أمرى حيال صالحة .. وأن قلبي معلق
بفتاة أخرى خلفتها بموطنى .. كان قياد الأمر قد إنفلت من بين
يديه .. إلا أنه وباللحظة الأخيرة تمكن من إنتزاعى من هذا
الشراك قبل أن تغلق مزاليلجه .. وتيقن بالنهاية أن المكيدة في
جوهرها كانت مرسومة ومدبرة لوالده .. فالشيخ سالمان لن
يتورع أو يفوت فرصة لإيذاء أبيه .. وذاك لمواقفه المناهضة
لعصبه ورعونتها وأفعالها الهوجاء ..

ورغم أن حمان قد أنقذ الموقف بالنهاية وأعلم أبيه بما جرى إلا
أن رياح الندم إكتسحته وبات غريق الحسرة والكمد عند رؤيته
لسيارة الضابط تتقدم رويدا من داره .. فالشيخ سالمان ضيع عليه
زهوة نجاحه في انقاذه من مكيدته فوجه الضابط رأسا إلى بيت
الشيخ قويا .. ورغم أن خطوة كتلك لن تؤتى جدواها إلا أن
الشيخ سالمان فعل والضابط إستجاب ..

.....

في مضيفة البيت الوثيرة جلس الشيخ قوياً وولده يستقبلان الضابط ممدوح .. بينما مكثت أنا قابعاً في أحد الأركان البعيدة المقابلة لهم .. وقد أشار إلى الشيخ مسبقاً بـألا تفوه بكلمة في حضوره .. فبقيت خامداً .. لا ينبو للفظ ..
استهل الضابط المقالة في حزم وصرامة ..

- ياشيخ قوياً .. أنا جيت لحد بيتك .. إحتراماً لأعرافك
وتقاليدكم .. مصطفى هارب من العدالة .. وبتمنى من
الله تستوعب ضرورة تسليمه ..

فنظر إليه الشيخ وقولاً .. إلا أنه ناهضه في شبه صيحة ..
- لا .. أضبط الكلام .. الأعراف والتقاليد هاد إنت
إتخطيتها بالفعل حين دهست بقدمك أراضينا من غير إذن
.. لا تتسلق بلسانك وتقول أنا جيت إحتراماً لها .. إنت
لفيت هان جل تتقى شرنا .. ولو لا إتنا ما بنخون ضيفنا
ولا بنقتل عدونا في دارنا .. كان هيبيقي لينا معاك شأن
.. تاني ..
فبين الضابط قائلاً ..

- أنا ما قصدتش الإهانة .. بالعكس .. ده أنا فضلت
أصطاده بعيد عن دياركم عشان ميتنقالش إنى دهست
أراضيكم زى ما بتقول .. ولعلكم مصطفى قاتل ..
إيديه متلطخة بدم اللوا طارق .. ده لو مكانش قالك ع
الحكاية دى ..

فأردفه الشيخ موضحا ومصححا جوهر الأمر الخافى بين
عبارات الضابط التعسفية ..

- ياحضرة الضابط .. مصطفى مش قاتل مثل ما بتندعى ..
ويديه ما تلطخت بدم لأنه ما كان عنده نية القتل في
الأساس .. إنما القاتل الحقيقى هاذ اللي فضل يحاصره لما
إضطره يعمل هييك .. وبعدين نحنا ما بنسلم ضيفنا حتى
لو كان قاتل .. مثل ماليك تار ليه تار .. وтарه أكبر ..
والحق في كفته ..

فطا طا الضابط رأسه يهز هزها ..

- كنت عارف إنك هتقول كده ..

ووجه الضابط حديثه لى .. متوجهلا حضور الشيخ في جسارة
وجرأة متغالية ..

- عايزك تعرف كويس إن خلاصك في إيدى .. وإنى أنا
الوحيد اللي قادر أهربك برة مصر .. والشيخ يعرف كده
كويس .. فهمه ياشيخ ..
فنظرت إليه متفرسا .. عجبًا ..
- وإيه المقابل بقا للخدمة الجليلة دى ؟ ..
رمقنى الضابط مبتسما بخبث ..
- ربنا ينور لك بصيرتك ويفتح لك دماغك .. تعجبنى
باهاتك .. ما هو اللي في ظروفك لازم يعرف مصلحته فين
ويشتغل عليها .. أنا ليَا عندك أمانة .. والأمانة دى تخص
ناس كبار .. كبار قوى .. مش هتقدر على شرهم ..
نظرت إليه مستنكرا ..
- وأفهم إيه بقا من الكلام ده ؟ .. إنت بتتفاوض ولا جاي
تهددنى ؟ ..
فواجههنى قائلا ..
- شوفها زى ما إنت عايز .. إنت حر ..
كان الشيخ آنها مطرقا يرمي الأرض بنظرات باهتة لا يفهم
معزاتها .. قلت للضابط مت肯هنا يحدونى يقينى ..

- أكيد طبعا تقصد تماثيل الذهب ..
فابتدرنى قائلا ..

- هما مش عايزين غير تمثال واحد .. والباقي ربنا يباركلك
فيهم وييمتعك بخيرهم .. وده طبعا مقابل حريتك ..
بالذمة دى مش صفة منصفة .. نفع وإستنفع .. فكر فيها
كويس وإنت تعرف إننا بنعمل معاك صح الصح كمان ..
فتسائلت مندهشا ..

- وده تمثال إيه ده اللي هيموتوا عليه كده ؟ ..
رمقني ثاقبا .. تبعت من عينيه إشارات لؤم وخبيث ..

- تمثال صغير لطائر إسمه طائر اللقلق .. يشبه الطيور اللي
بتبقى على سط البحر .. ومتفكرش تتذاكي معايا عشان
 تستدرجنى .. التمثال ده هيخدوه هيخدوه .. دول
مبيهزروش .. أى مراوغة منك هتطير فيها روس كتير ..
وهللاقى نفسك قدامهم لوحدك وش فى وش فى بحر من
الدم ..

نظرت إلى الشيخ قويا الذي إمتنع وجهه وتغير لونه .. ولا ينبو له لفظ .. وكأننا إتفقنا على تبادل الأدوار .. فتكلمت أنا بينما مكث هو صامتا ..

- إيه رأيك يا عالم الشيخ ؟ .. مبتكلمش ليه ؟ ..
فنظرني الشيخ ضائقا ..

- بنضر .. هاذى مهزلة مضحكة ..
فسألته مريجا ..

- قصدك إيه ؟ ..
فإبتسם الشيخ ممتععا غير راضيا يقول ..
- كمل سجالك إمعاه .. بدئ أنضر آخر المكلمة الفارغة
هاذ ..

نظرت إلى الشيخ حائرا .. إذ لم يعطني الفرصة لمشورته .. ثم رمقت الضابط .. أحاول أن أحافظ على رزانتي وثباتي

- وإيه سر التمسك الغريب بالتمثال ده تحديدا ؟ .. وده شرطى عشان أتم الصفقة ، أعرف الأول قيمته وأهميته ..
فأسند الضابط ظهره إلى الحائط تغمره الثقة قائلا ..

- مع إن ده مش شغلك .. ومع إنك مجرر على الموافقة .. بس
مفيش مشكلة هقولك .. أنا متأكد إن إنت معدوم الحيلة
وسكط الضابط هنيهه ثم قال ..

- على المسطرة اللي في صهر التمثال ده نقوش وكتابة ..
بتحدد بالضبط مكان المقبرة الملكية وإتجاه بابها بدقة
متناهية .. والناس دى على إستعداد تام إنهم يدفعوا كثير
ويعملوا أكتر عشان يوصلوا للمقبرة دى تحديدا ..
حينها إسترجعت بذهني إلى الوراء .. وللمرة الثانية .. حيث دار
الصراع الأخير هناك في جوار المقبرة .. وتذكرت تلك الصخرة
الجرانيتية المعبدة التي إصطدم بها كاحل قدمى إثر مقتل اللواء
طارق .. فقلت ..

- طب إيهرأيك أنا ممكن أبقى دليلكم لباب المقبرة دى من
غير لا تعب ولا شقى ..
وأجهنني الضابط بكامل جسده تلتحم عيناه بعيني في شبه ندية
وتحدى ..

- برضه مفيش مشكلة .. بس ناخد التمثال الأول .. وعايز
أعرفك دى فرصتك الأخيرة معانا .. الفرص الباقيه مع
عزرائيل ..

فنظرت للشيخ أستجديه أن ينطق بكلمة واحدة .. لأطلب
مشورته وعونه .. إلى أن جرت الكلمات على لسانه أخيرا بعد
صمت مريب .. إثر سماعه الجملة الأخيرة للضابط والتي أثارت
حفيظته .. فإعتدل في جلسته مما إسترعى إلتانتنا .. وعرفنا أن
حديثا ما بدأ يعتمل داخله .. فسكت كلاما ننتظر ردة فعله .. نظر
الشيخ إلى الضابط يطوى سخطا كاسحا .. قائلا ..

- أشوفك تلفي أراضينا تهدد وترعد فينا .. وتحمر لنا عينك
.. بعد ما إخنطيتها ودهستها بقدمك .. واللى مثلك ما
يدرى جزاء إنتهاك حرمتنا ..

وترانى إتغاضيت عن تجرؤك علينا في عقر دارنا ..
وخرست لسانى .. ولقمت فمى حجر وأنا سامع حكيك
الصبيانى السخيف ..

إسمع إنت وهادول اللي وراك .. لو إجتمع كبرات
كبراتكم .. بعسكركم وعتادكم .. بالعون ما تهزوا فينا

شعرة .. دى أراضيا وده ضيفنا .. وعزرايل هاد اللي
بتلعب بسيرته بخل ترعبنا .. عمرنا في يوم ماخفنا من
زيارتة .. دوم كان ضيف عزيز .. بنقدر جيته وبنحترمها
.. ونضحي بألف راجل قبال كرمتنا وهيبتنا .

ما تعمل فيها عنتر تانى وتجع فى وشوشنا .. وإلا
مسخناك بعوضة تلحس الوسخ من أقدام بهايمنا ..
نظرت الضابط وقد تغيرت ملامحه .. وإنتم الشحوب
والإصرار ساحتة .. يرمق الشيخ في وجہ .. ترتعد أو اصله من
ذاك التقرير الضارب فوق رأسه .. وقد هوی من أوج عجرفته
وكبره إلى درك الإذعان قسرا يتبع إهانته ويرکع لذله ..
قال للشيخ في خنوع وخصوص ..

- ياشيخ قويا .. مقامكم محفوظ .. وبعدين أنا مجرد وسيط
.. مقصدتش أتحداك....

فصاح الشيخ في وجهه ..

- وتحبيك من وين الشجاعة والرجولة هاد ؟ .. إنت مثل
أرانب الودى اللي بتهرب من صوت الغنم .. قول للي

بعتوك .. صبرنا ليه حدود .. وللحين ما نضرتوا منا
الوش الثاني ..
نظر إلية الضابط مستسمحا ..

- ياشيخنا ..
فناهضه الشيخ ضائقا ضجرا ..

- لا تكثر .. كفاك ببغة خاوية .. خبرهم إن معادنا بعد
باكر عند المقبرة .. وعرفهم اللي يعرفونه حق .. ما في مجال
للخيانة .. هاد فرصتكم الأخيرة لجل تجددوا عهدموا
معاكم .. وتوكل إنت وقيادك إن مصطفى قبل ما يكون
ضيفنا وفي حمايتنا إحتسبناه ولدنا .. ونقطة دم واحدة منه
أو من هله بآلف رجل منكم .. وإنتم تدررون نحنا قادرين
.. إتقوا حرب ما تلاقوا الصدها طريق ..

فالضابط مبهوتا ..

- تمام ياشيخ قويا .. هبلغهم ..
وإستقام بجسده متثاقلا .. يتقهقر بظهره .. مطايا الرأس .. ثم
استدار خزيانا يجر أذيال الخيبة والإنكسار .. مغادرنا ساحتنا ..

بينما وقفت أنا واجما أنظر شبحه الغارب وقد مسحت بكرامته
وذكره رمال الفيفاء .. وتأملت كيف أنه لا تبدى جواهر الرجال
وجسارتهم إلا وقت الشدائـد والخطر .. إذ كشفت هذه المحادثة
عن تلك النفس الجبانة المغلفة بأديم من العجرفة والعنجهية
الخاوية ..

كنت مذهولا من هول حديث الشيخ وجرأته وصلابته .. فلم
أعهد مثل ذاك من قبل .. فمن ذا القادر على التلفظ بقيلة كتلك
في وجه رجال الداخلية بجبروتهم وسلطانـهم .. وكانت من جملة
أشياء كثر أجهلها .. كما يجهلها عموم الأهـالى ..

إنصرف الضابط تصطـك قدمـاه .. يتلفـت يمنـة ويـسـرة .. خوفـا
من رصـاصـة طائـشـة من هـنـاك .. يـتنـفـس الصـعدـاء ويـبتـلـع
ريـقاـ في فـم ضـحـضـاح .. إـلتـقطـ أـنـفـاسـه أـخـيرـاـ يـحمدـ اللهـ أـنـ أـنجـاهـ
من بـرـاسـنـ هـؤـلـاءـ الـقـومـ الشـرـسـةـ المـتوـحـشـينـ ..

بعد تلك المقابلـةـ كانتـ الأمـورـ قدـ بدـأتـ تتـضـحـ فيـ ذـهـنـيـ تـبـاعـاـ ..
فـذـاكـ العـهـدـ الذـىـ حدـثـنـىـ الشـيـخـ بشـأنـهـ سـالـفاـ .. معـ رـجـالـ
الـداـخلـيـةـ .. لمـ يـكـنـ معـ الـمـؤـسـسـةـ ذاتـهاـ وـالـكـيـانـ نـفـسـهـ .. وإنـماـ معـ

هؤلاء حفنة الرجال الفسدة الفجرة منهم .. وللأسف فهم كثر .. وهم المقصودين بالتهديد والوعيد ..

في الحقيقة كانت الغيرة تعتمل في صدرى .. فمها خاضت بي قدماء الأحوال ورغم رفضي للواقع ومقتضياته وقوانينه الجاسية الصلفة .. والأوضاع المزرية التي ماجت بها البلاد .. فهذا لا يعني أن أتنصل من قوميتي .. ومن ظنت سالفا أنهم المقصودين إنما هم جزءا هاما من هذه القومية .. رغم أن إيمانى بها كان منقوصا .. مجزءا ممسوخا ومشوها .. يؤمن بشيء ويكره بجزء منه .. لعن الله الفاقة والعوذ التي تمسخ نفوسنا وتبدى أديمنا على وجه مناف لحقيقة ..

شعرت بإرباك وتخبط شديد تجاه تلك المسألة .. بيد أنى لم أملك عند محطها كثيرا .. فلتذهب المبادئ إلى الجحيم .. ماذا فعلت لي وأنا أعق الشري بحثا عن لقمة العيش ؟ .. بماذا أفادتني وأنا غارق لأذنٍ في أتراح الماضي .. أهدر زهرة عمري الحاضر .. وأرى مستقبلي يذهب قسراً أدراج الرياح أمام عيناي .. بماذا أفادتني تلك المبادئ الواهية .. التي لا تمتلك حتى أن تتصر لذاتها في زمن الجهل والهراء .. فلتذهب المبادئ إلى الجحيم ..

ولتذهب القومية إلى الجحيم .. قبالة أن أعيش حرا طليقا ..
لقمتى من فأسى وصوتى من رأسى .. أملك قرارى وزادى ..

"١٦"

في صبيحة اليوم المقصود .. كنت أقف عند البحيرة .. أتأمل مخط
قدماء .. والخطوة التالية المرجوة .. رغم أن نزاعا داخليا محتملا
في جوفي .. حول البقاء والتريث أو المضي .. إلا أن هديرا مدمدا
يحدوني لأن أنهى تلك الحال العثرة .. وذاك المسعى المشئوم ..
فكفاني تطيرا ووجلا .. فلا سبيل إلا المواجهة .. ولو لا أحبتني
لكان الهروب خير سبيل ..

وجأ إستغرaci بغتة صوت الشيخ يناديني .. فأدرت وجهي قائلا
- خلاص ياعم الشيخ .. جهزتم ؟ ..
فأمسك الشيخ بكفى مطمئنا ..
- زين .. توكل يا ولدى .. الحان نمضي لشغلتنا .. إلعاد ما
في وقت ..

إقتربت منه أسر له بحديث ذا أهمية ..
- خليك جنبي ياعم الشيخ .. مدوح ده خاين وملوش
عهد .. والأمانة اللي عندك دى أقل حاجة ممكن أهدىها
ليك .. قصدى حق الرجال اللي معاك ..

نظرنى الشيخ مبتسما بحبّية ..

- يا ولیدي مساعدتنا لك ما تكفيها كنوز الدنيا .. قلت لك
قبل الحين إنت رجل بحق ونحنا نعزع ونقدر النشامى ..
هاذيك اللعبة اللي لفيفت روحك فيها خطيرة جدا ..
ونحنا ندرىها وندرى قواعدها .. ما تخاف .. توكل
ويفرجها الله .. وبالله تلاقينا في ضهرك ..

تمتمت بعبارات خافتة بينى وبين ربى أطلب المدد والعون .. ثم
تحركت بإتجاه سيارة خاصة في الجوار .. وركبت بصحبة الشيخ
جنبا إلى جنب .. يشاركتنا حمدان المسير .. وتحركت السيارة تتقدم
خمس سيارات نصف نقل متقللة بالرجال المسلحين ..

.....

قبل أن نصل إلى منطقة أبو بيللو بأقل من الثلاثة كيلو متر ..
همست إلى الشيخ أرجوه ..

- معلش ياعم الشيخ .. لازم أشوف أبويا الأول .. قبل ما
نروح مشوارنا

فسكت الشيخ لبرهة .. فطن لما يدور في رأسي .. فلعله اللقاء
الأخير لذا أذعن لإرادتي ..

إقتراح الشيخ أن يصطحبنى في تلك الروحة .. وقد كان .. عبرت السيارة المجرى المائى خلال " معدية " صغيرة قرب منطقة الخطاطبة .. وخلفتها إحدى السيارات الخمس .. بينما مكثت بقية السيارات على الجانب الغربى من الترعة الوسطية تنتظر إشارة التحرك .. وإنطلقت السياراتان تجسر طريق الجانب الشرقي تتجه رأسا صوب بلدتى .. كفر داود القديمة .. وفي أقل من نصف الساعة كنا قد شارفنا مدخل البلدة .. عندها توقفتا السياراتان .. وأبديت رغبتي في الذهاب منفردا حتى لا نثير الرعب في نفس والدى .. إلا أن الشيخ كان قد كلف إثنان من رجاله ليتبعاني دون أن يلفتان ناظرى .. تحسبا لأى خطر .. أزمعت المرور ببيت سماح أولا .. فقد كان الأقرب في البلدة القديمة وإنتويت بعدها التوجه رأسا إلى منطقة التجارة التي تبعد ما يناظر الكيلو متر حيث يستقر منزلى سرت مترجلا على قدمى عبر أزقة البلدة حتى وافيت ناصية الحارة التي تقطن بها سماح .. وقد كانت حالية إلا من الأطفال اللاهين .. تحركت إلى بيتها في حرص شديد حتى لا يتتبه أحدهم لي .. على أحدهم يترقبنى في الأصل .. طرقت الباب عدة

طرقات خفيفة كعادتى .. وعندما فتح الباب أصابنى فزع شديد
مريج بجذع وذهول لتلك الهيئة التى رأيت عليها سماح .. كانت
الجروح تعطى أديم وجهها .. لن أنسى ما حيت تلك الطلة
والنظرة التى طالعتنى بها ..

ما زاد ذهولى أن إندفع أخرى الصغير فى جوارها مرقيا بين
ذراعاى .. باكيا فى نشيج مستمر وهو يردد .. أبي مات .. كانت
الصدمة قاتلة .. شلت عقلى تماما .. وأفقته عاجزا .. أتساءل ..
كيف حدث هذا؟ .. إلا أن الشك كان جاثما فى عميقى بأن لذاك
الوغدى فيما جرى

جست الكلمات على منطقى .. أتصبب عرقا باردا .. ورقا الدمع
فى عينى .. أرمق أسارير سماح الممزقة .. محملقا ذاهلا فى وجوم
.. لم أستطع أن أتكهن ما قد حدث .. فسألت سماح تتحشرج
الحروف فى حلقى ..

- إزاي ده حصل؟ .. وإيه الجروح اللي في وشك دى؟ ..
فقشت لي سماح بصوت نائح متهدج .. ما حدث لها ولوالدى
بالقسم على يد الضابط عديم الضمير .. مما كان سببا فى موت
أبى كمدا وحسرة ..

كان وقع كلماتها مؤلما .. وجعاً أجهد فؤادي .. وتناوיבت
عليه قبضة عية .. جعلته يختليج مثقلًا .. ذاك الشعور القديم
الذى لازمنى لسنوات طوال ..

إقتربت سماح منى تحاول مواساة قلبي المطعون غدرا .. هوت إلى
الجوار منى ترسو راحتها على صدرى المختليج إحتضارا ..
ومازلت أردد ..

- إزاي ده حصل؟ ..

أهذه النهاية؟ .. سؤال ظل ينكرر في ذهني وعلى منطقى ..
توقعـتـ الكـثيرـ ماـ يـحـتمـلـ أنـ يـكـونـ قدـ حدـثـ لهمـ .. إلاـ أـنـىـ لمـ
أـتـوقـعـ أـلـأـرـىـ أـبـىـ إـلـىـ الأـبـدـ .. طـفـقـتـ أـلـعـنـ وـأـسـبـ ذـاكـ المسـيرـ
المـلـعـونـ الذـىـ أـفـقـدـنـيـ صـدـيقـىـ وـأـبـىـ جـمـلةـ وـاحـدـةـ .. سـكـنـتـ مـثـقـلاـ
بـهـمـوـمـىـ وـمـثـاقـلـىـ العـظـامـ .. لـاـ أـسـتـطـيعـ الـحـرـكـةـ إـلـاـ أـنـهـ سـرـيـعاـ
إـعـتـمـلـتـ بـقـلـبـيـ نـارـ الثـأـرـ ..

لم تمض لحظات حتى تسمعت طرقـاتـ الـبـابـ .. فـتـحـتـ سـماـحـ
لـأـجـدـ أـحـدـ رـجـالـ الشـيـخـ جاءـ ليـسـتـدـعـيـ إـثـرـ مـكـالـمـةـ أـتـهـ منـ
الـشـيـخـ قـوـيـاـ .. تـحـاـمـلـتـ عـلـىـ مـصـابـيـ الـجـسـيمـ .. وـخـرـجـتـ مـسـرـعـاـ
تـدـفـعـنـيـ رـغـبةـ الـانـتـقـامـ .. يـأـتـيـنـيـ صـوـتـ سـماـحـ منـادـيـاـ ..

- رايح فين المرة دى ؟ .. مش مكفيك اللي حصل ؟ ..

مستنى تفقد مين المرة الجاية ؟ ..

سرت قدمًا ولم أكتثر بنداءاتها المتتحبة .. إلا أنني لم ألبث أن
قطعت نصف الحرارة .. حتى اشتعل بصدرى وجع مؤلم .. خوفا
من فراقهم .. عدت أدراجى مسرعاً متلهفاً .. يحدونى شعور
موحش وخيف .. أُسقطت سماح بين أحضانى .. أستشعر دفع
قلبها .. كنت أتسمع لدقاته ونحيبه ..

طفرت عيناي دموعاً حارقة .. أغمضت بها أريد إسكات فيضهما ..
أطلقت ذراعاي لأقبض أخرى الصغير بين دفتيه .. ذاك الصغير
الذى ذاق أجاج اليتيم قبل أن يتذوق للدنيا حلاوة .. مع كل
لحظة كانت تبادر إلى ذهني .. أنى قد لا أعود .. فأحكم قبضتى
عليه خوفاً ورعباً مما يتنتظره .. فبفعل القدر قد يحكم عليه أن
يقضى الباقي من عمره وحيداً ..

كان الوقت بخيلاً ضئيناً لم يسع لأن أبدى أسفى لما جلبيه عليهم
.. أسمعونى كثيراً .. إلا أنني لم أصغى إلا لصوت نفسي .. بقدر
ما أفرز ذاك الوداع الأليم من إشتياق وخوف من المجهول القادم

.. بقدر ما تضاحمت داخل رغبة الإنقاذ دون الإكثار بالتبعات

.. لا مناص من أخذ حق فقدائي ..

وسريعا كما أطبقتهم بين ذراعاي .. أطلقتهم نافرا إلى حيث

جرت تدابيرى ..

كررت راجعا في صحبة رجال الشيخ إلى حيث تركنا السيارة ..

ومذ أن ركبت لم أنطق بكلمة مما أثار حفيظة الشيخ ، فبادرنى

يُسأَل ..

- أشوفك مُغتم .. هو فيه شى جرى ؟ ..

نظرت إليه نظرة طويلة تحمل من الأسى أسيان .. ثم أطلقتها عبر

النافذة الزجاجية .. دون أن أخبره بما جرى .. إلا أن الشيخ

بصیرته الثاقبة قد فطن أن حدثا جلل قد وقع وإكتنف ذوى ..

فلم يثقل قلبي بكلماته ..

أجرى الشيخ إتصالا هاتفيا .. لأحد رجاله بالسيارات الخمس

لتسبقنا إلى منطقة أبو بيللو .. على مبعدة من البقعة المقصودة ..

ريثما نقابلها من الناحية الأخرى بمحاذاة الرياح الناصرى ..

.....

وعند موقع ما بالقرب من المقبرة .. وقفـت السيارات .. بينما نزل
الشيخ قويـاً وحمدان والـسائق .. وأطلـقاني لأقود السيارة بمفردى

.. حينها وقفـت في الجوار منها أحـاديثـ الشيخ وقدـ بـح صـوـتـي ..

- أكثر حاجةـ خـوفـانـي .. إنـكـوـ تـيـجـواـ بـعـدـ فـوـاتـ الأـوـانـ ..

بوصـيكـ يـاعـمـ الشـيـخـ مـتـسـتـنـاشـ لـماـ تـطـلـعـ أـولـ طـلـقةـ

رـصـاصـ .. نـمـكـنـ تـكـونـ فـيـ صـدـرـىـ ..

ربـتـ الشـيـخـ عـلـىـ كـتـفـىـ يـرـبـطـ جـأـشـىـ ..

- ماـ عـلـيـكـ شـرـ يـاضـيـفـ اللهـ .. نـحـنـاـ حـوـالـيـكـ وـقـدـامـكـ ..

إـنـشـوـفـكـ حـتـىـ لـوـ إـنـتـ ماـ تـشـوـفـنـاـ .. إـعـقـلـهـاـ وـتـوـكـلـ ..

وـسـوـىـ حـكـيـكـ لـسـانـ شـجـاعـتـكـ وـكـرـامـتـكـ ..

وـخـلـىـ سـبـيلـ لـأـلـجـ المـدـقـ الضـيـقـ المـؤـدـىـ إـلـىـ المـنـزـلـ وـحدـىـ .. بـينـماـ

هـجـعـ الشـيـخـ بـالـسـيـارـاتـ إـلـىـ جـهـةـ مـقـصـودـةـ ..

.....

شارفت بـسيـارـتـىـ سـاحـةـ المـنـزـلـ .. أـوـ قـفـتـهاـ منـفـرـدةـ بـالـقـرـبـ عـلـىـ
الـناـحـيـةـ الـأـخـرـىـ مـنـ السـيـارـاتـ المـتـرـاـصـةـ بـحـيـثـ تـكـونـ فـيـ مـأـمـنـ
لـلـوـلـوـجـ وـالـمـغـادـرـةـ السـرـيـعـةـ .. تـنـاظـرـ المـمـرـ مـبـاـشـرـةـ .. وـجـعـلتـ
مـقـدـمـتهاـ إـلـىـ الـخـارـجـ مـنـ المـنـزـلـ فـيـ وـضـعـيـةـ الـمـغـادـرـةـ الـيـسـيرـةـ ..

كان المدوء يغمر المكان إلا همهمة خافتة .. دنوت أترجل حذرا
حتى كانت الساحة في مرآى بالكامل .. لأجد الشيخ مرسى
وصاحب المنزل والضابط ممدوح ورجلان آخران .. الحضور
المعتاد .. للمرة الثالثة إلا أن المختلف هذه المرة أنهم كانوا جميعا
وقوف في إستقبال .. تأهبا منتصبين عندما سمعوا أزيز
عجلات السيارة .. نظرت إليهم جادا شبه متوجه .. وتقدم
الضابط مباشرة نحوى يطالعني بعبارة المصطنعة المرائية ..

- حمد الله ع السلامه ..

نظرت إليه شدرا .. ولم أغير كلماته إلتفاتا .. وبدوره لم يأبه
بتجاهلي له .. فقال مباشرة دون أية ديباجات ..

- فين التمثال ؟ ..

أعطيته حقيقة صغيرة كانت بيدي .. ففتحها وتحرى عنه بنفسه ..
وبيه هو في غمرة إنشغاله .. ترجلت عدة خطوات دائرا حول
سيارته قائلا

- رجع عربتك ورا .. الفتحة تحتيها ..

أو ما الضابط إلى أحد رجاله .. إقترب فأعطاه الحقيقة .. وأودعها
الرجل داخل السيارة بينما إقتادها متوجهة إلى الخلف .. ثم
أشرت بإصبعي إلى العاملين المتخصصين على مبعدة قريبة ..

- إنتم .. قلعوا كل الحشيش والهييش ده .. نصفوا المربع ده
بالكامل ..

وأجرت الأحداث بعدها سريعا إذ أنهيا العاملان ما أمرتهما به ..
فإنجلت أمامهما صخرة حجرية معبدة السطح والحواف ..
فالتقطت عتلة حديدية وأطلقتها لأحد الرجالن قائلا ..

- حركوا البلاطة الحجر دى وإرفعوها .. دى باب القبر ..
 أمسك كل رجل بالألة المناسبة .. وطفقا في إنجاز العمل

.....

في ذات الحين كان الشيخ قويا وبصحبته الشيخ إمباوى كبير
عربان بلدنا جالسين أمام أحد المنازل .. يطوقهما رجالهما
المسلحين ..

وثمة حديث دائر بينهما بخصوص ما يحدث هناك حيث المقبرة ..
وبدا أن الشيخ قويا قد أزمع الإستعانا برؤوس العربان المحيطة
بتلك المنطقة ورجالهم ..

كان الشيخ قويا ما بين الحين والأخر يرفع ساعده ناظرا إلى ساعة
يده .. يتحين لحظة الجسم وتبعد على أساريره علائم التوتر
والقلق ..

.....

أما في ساحة المقبرة ..

فقد تمكن الرجال بمساعدة الشيخ مرسي وصاحب البيت من
زحزحة الباب الحجري عن فوهة القبر .. في حين كنت أقف
مناظرا للضابط محتذرا .. الندلند .. نطوقهم على الجانيين ..
إلا أنه ما إن زحزح الباب لمسافة صغيرة لا تعدو بضع
سنتيمترات .. حتى نفر الجميع .. على حين غرة .. مبتعدين عن
الفوهة وكانت من بينهم .. إثر إنبعاث دخان أبيض كثيف .. نافذ
الرائحة من العمق .. وكأنه سدل ثوب شف .. ليأتينا صوت
الشيخ صائحا ..

- إبعدوا عن الفتحة .. خدوا بالко الدخان ميت ..

ثم هرع إلى حقيبته القماشية البدائية .. يجلب نوعا من البخور
المعتقد وطفق ينشره عند الأركان الأربع للفتحة الصغيرة .. مقدار

زحرحة الباب .. إلا أن الدخان تكتل وزادت كثافته بشكل
ملحوظ ومرعب ..

أتذكر أن الدخان كان قد أصابني بحرقة شديدة في مقلتي ..
فطفلت أفركهما براحةٍ بعنف مكروب .. وما لبث أن نفذ
الدخان الكريه إلى عمق صدرى .. فتطوح جسدي رغمما عنى
يتدافع عشوائيا .. إذ شعرت بدوار شديد يعتمل في رأسى .. ولم
ادر يمينى من يسارى .. وكأن الأرض تميد تحت قدمائى ..
ظللت على حالي تلك لعدة دقائق .. إلا أنى ما إن تمالكت قواى
وزمام إتزانى حتى مضيت أحابول كشف أغطية الدخان عن
مرآى .. وكنت مدفوعا برغبة حثيثة للإستفادة من غياه布
الأدخنة البيضاء .. خوفا من أن أكون قد أوقعت في شراك تم
تدبيره لي مسبقا .. في بادئ الأمر ظننت أنها حيلة مقصودة
للإيقاع بي وتركيعي .. بيد أنه ما إن حمد الإلتهاب الحارق من
ناظرى وإتضحت الرؤية .. حتى رممت جل من حولى وقد
أصابهم ما أصابنى .. إلا الشيخ مرسي .. وذاك أغرب ما في
الأمر ..

أفاق الجميع من غمرة الدخان .. كان كل فرد ملقى في جانب وكأن ريح عاتية هبت علينا فأغرقتنا وثرثرت جماعتنا .. ويبدو أن هذا الدخان يحدث نوعاً من الصدمة المؤقتة .. تصيب المخ رأساً .. يختل بعدها إتزان الحواس والأطراف .. كان كل منا قد أحس ذات الألم .. هياجاً بجنبات الرأس .. وووجعاً في عظامها .. نظر كل منا الآخر .. يظن ذات الظن .. ويحتسب لذات الخطر .. ولم يكن هذا غريباً فطبيعة وظروف تلك المرة توحى بأن خطباً ما سيصيب أحدينا قد دبر له من قبل .. فطلات الوجوه مختلفة .. والأسارير تبعث نوعاً من الريبة المزعجة وتكهن يقبض القلوب وقف الشيخ في الأمام من الفوهه مباشرة يمسك بمخطوطة قديمة .. ويتمتم بعبارات وطلاقس ملغزة .. بينما لم لم الحضور أشلاءه المتناثرة في حالة ذهول مشتت .. لم ينبعس أحدنا ببنت شفة حتى أنهى الشيخ طلاسمه .. كان مجال الرؤية ضبابياً وما زال متاثراً بأطياف الدخان الأشيب ..

وبغتة .. وقبل أن يتمالك أحدينا نفسه أو يزعن قياد أجزاءه .. سمعنا صوت فحيح مرعب .. مدوٍ يصم الآذان .. يخرج من جوف المقبرة ليتردد صداه في أرجاء الفيفاء .. وكأن ثعباناً ضخماً

أو تنينا خرافيا سينجل من العمق ليلتقم الوقوف المتصرون
رعبه ورعبا .. وما أثار إندهاشنا أنه على إثر إنبعاث هذا الفحيخ
الغريب إنكشفت الرؤية .. وتجلى وضحتها .. وكأن هبوبا صافية
نفخت فأزالـت ألسنة الدخان السامة وحزمتها الضبابية ..
وجالـت في تصوراتنا خيالـات لنوع من الرواحـف الأسطوريـة
العملاقـة .. قد صعد نافـتا من حـشـاه رـيحـا نـقـية لـتـزيـع عن مـرـآـنا
تلك السـدـل الرـفـراـفة الـبـيـضـاء بـيـاضـا مـرـضـيا كـثـيفـا ..
نظر الضابط إلى الشـيخ مـرسـى سـاخـطا ..

- إتعـمـينا .. إـيه اللـى بـيـحـصـل بـالـظـبـط يـاشـيـخ قـرد؟ ..

فلـم يـحبـه الشـيخ .. كان مـسـتـغـرقـا فـي طـلاـسمـه .. تـارـة يـغمـض عـيـنهـ
كمـن يـبـعـغـ نـائـما وـتـارـة أـخـرى يـحـملـقـ كـالمـصـعـوق .. ظـلـ يـتمـمـ
ويـشـرـ الـبـخـورـ حـولـ جـنـبـاتـ الـفـوـهـةـ إـلـىـ أـنـ إـنـفـضـ إـنـفـاضـاـ عـنـيفـاـ
جـعـلهـ يـثـبـ هـاوـيـا عـلـىـ الـأـرـضـ .. أـصـابـ صـدـاهـ أـجـسـادـناـ
بـقـشـعـرـيـةـ مـرـعـبةـ .. فـحـاكـىـ الجـمـيعـ لـاـ إـرـادـيـاـ ذـاتـ رـدـةـ الـفـعلـ ..
إـنـتـصـبـ الشـيخـ وـاقـفـاـ مـفـيقـا .. وـكـأنـ شـيـئـاـ لـمـ يـحـدـث .. وـإـقـرـبـ منـ
الـبـابـ بـهـدوـءـ يـتـبعـ الـجـمـيعـ مـبـهـوتـين .. وـأـشـارـ إـلـىـ الـعـامـلـينـ

بزحزة الصخرة كاملا .. وإبعادها لتنكشف الفتحة عن آخرها ، وقد كان ..

أمسك الشيخ بمصباح يعمل بنوع من البطاريات .. وهبط إلى الدرج الحجرى .. يتبعه الضابط وخلفتهم بينما مضى ورائي صاحب المنزل على التتالى .. ومكث العاملان بالخارج يتاهبان للتحرك بإشارة منه ..

أنهينا الدرج واحدا تلو الآخر .. يضيئ المصباح طريقنا .. كان الضوء يزداد خفوتا كلما إستخرطنا في العمق .. وبدأ الظلام يتسرّب إلى مرآنا رويدا رويدا .. فأخرج الضابط هاتفه المحمول وأضاء كشافه .. ونحونا ذات مسلكه فزالت الظلمة بعض الشيء ..

وفي الواقع كان القبر من الداخل مختلفا عن سابقيه في الجوار .. فقد إنجلت الجدران المزданة بالألوان الزاهية وكأنها مخطوطة منذ زهاء أيام زهيدة .. وبدى الإرتسام بأبجديات الفراعين معبرا عن قيمة وعظمة القبر وجلال قاطنه ..

طفقنا متراجلين وبعد قرابة العشرة أمتار من الدرج الحجرى .. وجدنا أنفسنا غارقين داخل طرقة طويلة خانقة .. شاهقة

الارتفاع .. فصاح الضابط ضجرا .. إذ لم يعهد أن تبدأ مقبرة
بطرقة بهذا الطول ..

- إيه ده ؟ .. دى مش مقبرة ياشيخ مرسى ..
مضى الشيخ في الممر الضيق .. رادا على عباره الضابط ..
- الله أعلم إحنا داخلين على إيه ..

وبعد عدة خطوات داخل الممر بعدما قطعنا ما يقارب الخمسة عشر مترا .. بدأ الجو في الإختناق .. كان الهواء ينسحب من الفراغ شيئاً فشيئا .. مما أثار حفيظة الضابط .. فصاح ضائقاً بصوت أبجح أجنش يشهق ويزفر في سرعة متلاحقة مكروبة ..
- هو الممر ده ملوش نهاية ؟ .. أنا بتخنق ..

فأجابه الشيخ بصوت رخيم معدنى بارد ..
- إهدى شوية .. الصبر يا حضرة الظابط ..
كان جيينا قد ضاق بهذه العتمة التي كادت أن تخطف
أبصارنا .. والإختناق الذي أوشك أن يزهق أرواحنا .. إلا
الشيخ .. وكأنه داخل هذا العمق المظلم يتنفس بإسطوانة هوائية
.. ويضاء طريقه بمصابيح لا نراها ..

وفجأة .. إنطفأ المصباح .. وتلته جميع الهواتف في شبه إتفاق مسبق .. فتدثرنا بغياب دامسة حالكة .. وتكاثف السواد أمام مرآنا .. فبتنا كمن أصيب بالعمى التام .. مما جعل الضابط .. هذا الأرعن كثير الثورة قليل الصبر .. يستشيط غضبا ..

- صبر إيه ياراجل يا مجانون؟ .. قربت أموت من الخنقة ..
وتحسس هاتفه حتى تمكن من إضاءته .. وكررت خططانا خارجا من المقبرة .. حينها إشتعلت داخل مشاعر مريحة ما بين رغبة الإنقاص .. والخوف أن أخلى سبيله ليحط على رأسنا خارج المقبرة بينما نحن بالعمق .. فإن توقيت الإمساك بساعديه قبل أن يتخططانى ودفعه بقوة إلى الداخل .. إلا أنه ما كادت الفكرة أن تختمر في رأسى .. وبيت على وشك التنفيذ .. حتى إنبعث ضوءا من هاتف صاحب المنزل خلفى واكبه صياح الشيخ مbagata ..

- الباب أهواه .. لقيت الباب يامدوح باشا ..
فتراجعت .. بينما تلمست هاتفى حتى أضاء وكذلك فعل الشيخ مع المصباح ذو البطارية .. فإنقشع الظلام شيئا ما .. وإستبان الباب .. إستدار الضابط ليجد أن هناك بابا بالفعل قد تكشف

على بعد ما يناظر الثلاثة أمتار .. فترجلنا نلجم من الباب واحدا
تلوا الآخر ..

إنكشفت أمام أعيننا على الجانب الآخر معالم المكان .. وما زاد
من وضاحتها إلتماع القطع الذهبية والنفائس الأخرى المعدنية
تحت وضوح الأضواء الساقطة ..

ولن أنسى ما حييت ما رأيته داخل تلك القاعة الفسيحة .. كنز
رهيب مهيب .. ذو وفرة مفرطة من آثار وخبايا الفراعين .. ثمة
تماثيل ضخمة من الأحجار الكريمة تحمل تيجان أزهار اللوتون
يقع على عاتقها سقف المقبرة .. موزعة على الحواف وفي أنصاف
الأجناب .. وما يعود العشرة توابيت .. مصنوعة من الذهب
الصراح المزخرف والمطعم بالأحجار الكريمة والفسفورية ..
ومئات القطع والأغراض الذهبية والحجرية بشتى الأشكال
والأنواع والأحجام .. بدت بالفعل وكأنها مقبرة لعظيم من
أعظم الفراعين ..
وثب الشيخ مهلا ..

- الله أكبر .. الله أكبر .. إيه الخير ده كله .. بسم الله ماشاء
الله .. إظاهر ربنا راضى علينا المرة دى ..

بينما طفق الضابط يقلب القطع بنهم وشراهة فجة ..

- إيه ده .. معقوله كل الكنوز دى مدفونة تحت الأرض !!

ووقفت أنا وصاحب البيت مشدوهين بجلال ما نرى .. لم أكن
أصدق أننى في يوم ما سأسمع عينيّ بمشهد مثل ذاك
لح الشیخ مساحة قائمة مستطيلة الشكل بشكل رأسى .. بحجم
إنسان مرة ونصف إلى الجوار من أحد التماثيل .. فترجل عدة
خطوات يقترب منها .. ليجدها باباً محفوراً في الجدار .. ولج منه
مستعيناً بضوء مصباحه .. لينفرج أمامه فراغاً فسيحاً آخر
يتشعب منه فراغات جانبية لحجارات في الجوار ملأى بالنفائس
والكنوز .. فعاد أدراجه يثب مبشراً ..

- الله أكبر .. دى فيها أوض تانية .. صدق اللي سماكى مقبرة
ملكية ..

ردد الضابط عبارته مدھوشًا ساھما .. وكأنه لا يدرى بما يلفظ ..
- مقبرة ملكية ..

وطفق يرمقنا ثاقباً .. وكأنما شيئاً ما يعتمل برأسه أو يستفاق إليه
وفي غمرة إنشغالنا وبينما نحن غارقين في النظر والتدقيق
والتحري .. تراجع الضابط لعدة خطوات محسوبة مدرورة

للخلف .. ليصبح بالقرب من باب المدخل المطل على الطرقة مباشرة .. ثم دس يده في الجراب الخبيء الناشر في جانب خصره .. وأبرز مسدسا عامرا بالطلقات .. يشهره في وجوه الحضور .. بغتة .. ناكثا لعهوده .. غادرا بمن رافقوه مغامرين إلى العمق ..

باغتهم وناهزهم سافرا يقول ..

- يالله يا حلو إنت وهو .. ضموا جنب بعض .. وكل واحد يحط تليفونه على الأرض بهدوء .. بعدين بشبك إيده ورا دماغه .. ومش عايزة أسمع صوت حيوان فيكم لم أندھش كثيرا لما يحدث .. فقد كنت أشعر بأن شيئا ما من هذا القبيل لا مناص وأن الضابط يكنه في نفسه ويتتويه .. إلا أنى لم أتخيل شاكلة وكيفية حدوثه ..

ترجل الشيخ شطر الضابط .. محاولا الإنضمام لحزبه .. إلا أنه رعد فيه مناهضا قبل أن يخطو بعض خطوات ..

- إرجع مكانك وحط الكشاف على الأرض .. وإعمل زى زمايلك ده لو مش مستغنى عن روحك ..

وضع الشيخ المصباح مجبراً في خزي وخنوع .. وإنضم إلى جماعتنا
خائباً .. وأشار الضابط إلينا ..

- يالله إتحر كوا قدامي ..

ورمقني شدراً بنظرة تشفى .. مقيطة .. قائلًا يقصد الشيخ قويًا ..

- وإيقى ورينى المكع الخرفان بتاعك ده هييفعك بـايه ..

ظل الضابط يقلقنا ويحركنا بإتجاه المدخل حيث كان
منتتصباً .. بينما ترجل حذراً إلى الداخل صوب المصباح .. ومال
بجسده حريصاً يتقطّه ..

إقتادنا أمامه على مبعدة زهيدة إلى خارج المقبرة .. سرت معهم
أفكراً في سبيل للخروج من هذا المأزق المباغت .. شارفنا سفح
الدرج الحجري .. ولم توحى لي قريحتي بفكرة ما .. بدأنا في
الصعود واحداً تلو الآخر .. كان في المقدمة صاحب البيت
وخلفته أنا .. بينما مضى وراءنا الشيخ مرسى مطرقاً يتربّق
ويترصد الضابط في خلسة ..

إرتقى صاحب البيت وأنا أخلفه .. وما إن شارف فوهه القبر
وقبل أن يتم خروجه .. هويت عنوة بقدمي عند حافة إحدى
الدرجات .. أدعى التعثر .. وفي غفلة من الشيخ وإنشغاله بالنظر

إلى محطة قدمي المتعثرة .. إستدررت مباغعاً ودفعته خلسة بياطنة
قدمي دفعه عنيفة .. حتى سقط متذرجاً دافعاً الضابط أمامه ..
فإنكبا طريحين عند درك السلم .. وتكون الجسدان فوق بعضهما
البعض .. وإنفلت قياد المصباح من يد الضابط .. بينما إندفع
المسدس لعدة أمتار إلى جانب جار الطرقة ..

قمت متتصباً .. أنتهب الدرجات أمامي نهياً حتى إشتبئ
جسدي برأسه من فوهة القبر .. فأكملت ظهوري إلى الخارج
أزوج صاحب البيت بيديّ في قوة وغلظة .. والذى كان قد إلتفت
إلى الفوهة إثر ما حدث بالأسفل .. فسقط هاوياً دافعاً أحد
الحارسين أرضاً في سرعة خاطفة .. أفردت جسدي وإنحنىت
لاهثاً أنقطت سلاح الحارس الهاوى .. إلا أن سلاحاً آخر كان
مصوبًا إلى رأسي مباشرة .. إذ ناهضني الحارس الثاني هو الآخر
بدوره في ذات السرعة الخاطفة ..

قام الحارس الأول ولكرني بقدمه ملتقطاً سلاحه .. وتمكننا
الإثنين من إخضاعي قسراً .. بينما صعد الضابط من جوف القبر
يتساند على أركانه .. مهتاجاً وقد أصيب إثر الركلة وإصطداماته
بالدرج الحجري بجروح موزعة كالللمم بأجزاء جسده إلا أن

أكثراً وجاً كان في رأسه وبراحته اليسرى .. توجه صوبى
مباشرة يتآلم يطروح جسده ويترنح حتى أنه كاد يسقط طريحاً ..
وبأقصى قوته ظل يركلنى بعنف وغلظة .. وما إن إستقامت أمامه
أرد عن جسدى ضرباته حتى لكمنى في وجهى .. فتلّوحـت
عظام مسحتى وإلتقط سلاح أحد الحارسين ودق رأسى بظاهره
حتى بعـ الدم منها بغا .. فـ سقطت طريحاً ..

أشهر السلاح صوبي مباشرة .. يتأهب لقتلي .. إلا أنه إلتفت خلفه بغتة إثر سماعه صوت الشيخ مرسى .. يصعد من الفوهه متاؤها يحبر أذياال عباءته .. فإندفع شطره وزوجه بقدمه زجة عنيفة حتى هوى على مقربة منى يسيل الدم من أنحاءه .. يلتاع من شدة السحجات برجله وكتفه وظهره وجروح غائر بجانب رأسه ..

نظرنی الضابط یہیج ثائرہ .. یہدنی ..

- هدفك في مكانك حي .. أقسم بالله لأدفنك بيادي ..

قام الحراس بحجزى وتركيزى عنوة .. أنا وصاحب البيت
والشيخ مرسى .. إلى الجوار لأحد جدران المنزل الخارجية .. وتم
توثيق كل منا .. وإحكام وثاقنا .. بينما ظل الضابط يتسبّّج

متحركاً أمامنا جيئه وذهاباً .. مكث يرعد فينا مدمداً لبرهة من
الوقت .. إلى أن تمالك شيئاً ما من ثائره فتوقف بغته يناظرنى
مبشرة .. ويرمقنى ساخراً ..

- ياحبيبي .. إنت لست عيل بريالة .. آخرك تستخبي زى
الفران ..

طالعه الشيخ القابع في أسره .. يحمر عيناه مهدداً ..
- هنزل عليك لعنات الفراعنة ..

رمقه الضابط بلحاظ عينه صامتاً لبرهة ثم إنفجر يضحك
ويكركر كالخدورين .. إلى أن تجهم بغته يهزأ به ساخراً ..

- لعنة؟! .. لعنة إيه ياراجل يامعtoo؟ .. إنت مصدق إن
إحنا مأمينين بييك أصلًا .. الكل عارف إنك مجرد دجال
ونصاب كمان .. ومفيش فايدة من الخزعبلات اللي
بتعملها دى .. بس عادي مفيش مشكلة من وجود
أمثالك عشان يكملو الديكور .. إنتو جزء تافه من لعبة
كبيرة .. وبالخرافات اللي بتروجواها بتسهلو شغلنا
وتزودا هييتنا .. زى تقليعة لعنة الفراعنة دى ..

وضحك ضحكة هستيرية هوسيّة .. أغلقها بحديثه المتعالى
المتعجرف ..

- إنت عارف .. هعلمك أنا بقا لعبة الفراعنة .. دى إحنا
اللى بنحط قوانينها .. ونحدد مين يدخل فيها ومين يخرج
حاولت أن أقتاده إلى جدال عبئي .. لكسب المزيد من الوقت
ريثما يأتيني الشيخ قويا الذى لم أعلم علة تأخره حتى حينها ..
فطالعته أحدهاته هادئا ..

- بس الحكاية لسة مانتهتش ياباشا .. مستعجل ليه النهاية ؟
نظرنى والإبتسام يملأ فيه ..

- إيه ده !؟ .. مين بيتكلم ؟ .. مصطفى بيء ! .. والله
وطلعلك صوت يابرص تتكلم ! .. إنت لسه فيك نفس
ترغى ؟! .. يابنى إنت ميت ميت .. معدش فيه مكان
ليكم بعد النهاردة .. لو بإيدى كنت طبقت عليكم قانون
البحر .. عارفه ؟ .. لما السفن بتغرق .. القادة بس هما اللي
عارفين سر النجاة .. وأمثالك بياكلوه السمك .. زى
زميلك اللي راح فطيس بسبب غباوتك .. زمان السمك
شرب عليه بقين ميه ..

وإنطلق ضاحكا في سماحة ..

- حلوة دى .. سمك في مية شرب بقين مية .. والنبي حلوة

.. والنبي عسل ..

إشتغلت النار بصدرى لسخريته من صديقى المسفوح غدرا ..
بيتها نظرت إليه حاذقا أستخف بتنظيره الساذج عن البحر
وقانونه ..

- بس البحر مابيفر قشن بين خادم وقائد .. لحظة الغرق كله

بيغرق سعادتك ..

رمقنى متوجهها ضجرا ..

- إنت مش هتبطل تتفلسف ياعم الفيلسوف الغبى .. مش

مكفيك المصايب اللي نزلت على راسك وراس أهلك ..

بطل لعب معايا .. متعشمش في جولة تانية .. أفهمك

إزاي؟ .. ياحمار اللعبة خلصت وأمرك إنتهى ..

فقلت متاجسرا ..

- ياريتني أعرف منين جايب الثقة الهمبة دى؟ .. بسهولة

كدة بتهينا؟ .. إنت فاكر نفسك مين؟ .. أقسم بالله إنت

صعبان عليا .. إنت المخدوع المضحوك عليه .. بالبلدى

كده مدینيك على قفاك .. بيقولولك إقتله .. وفاكر
الحكاية إنتهت .. وبمناسبة اللعب إحنا لسه في الملعب ..
وأفهمك أنا أكتر ياعم الفيلسوف الذكي .. الزهر لسه ع
طاولة .. وقدامي جولة وإتنين وتلاتة .. تعرف تعد ..
رمقني متعاليا ..

- ماهو ده ياحيلتها الوقت بدل الضایع .. خلصنا خلاص
.. إنت عارف عجبانى شجاعتك .. وكانت قدامك
الفرصة تبقى حاجة .. بس إنت للأسف متھور وغبى ..
وغباءك ده ساقك لحتتنا .. اللي ما فيهاش هزار ..
نظرت إليه متعجبًا ..

- حتنكم ! .. البلد في النهاية بقت حتنكم ؟ .. إنت عارف
زى ما أنا عارف إنكم مجرد حفنة من الفسدة والمرتشين ..
بس دوام الحال من المحال .. بكرة البلد اللي متعنك
بخيرها سنين .. ترفضكم .. تبرأ منكم ومن أمثالكم ..
فضحك الضابط عابثا ..

- البلد اللي بتتكلم عنها دي بتتنفس فساد وظلم .. وهو ده
نظامها وشرعها .. بجهلك عايز تغيرها بين يوم وليلة ..

قلت أسفًا ..

- الله يلعن اللي فهمك إنه لما يبقى فيه فاسد واحد .. يبقى
الفساد شرع .. ولما يكتر الفساد .. يبقى حكمها مشيخة
ال fasd .. كفياكم ظلم .. خنقوانا بفحشكم ..
فالساخر ..

- فساد إيه وظلم إيه اللي بتكلمنى عنهم ؟ .. إنت تعرف
حتة واحدة من الآثار المدفونة دي توزن ألف راجل من
عينتك .. بكرة البلد دي هتفرز أجیال ملهاش لازمة ..
زيك كده .. هتحطم التاريخ وتبيع البلد .. هتمحى
ذكرها وتتاجر بكنوزها .. وبنفسها إذا لزم الأمر .. طب
قولي بالذمة مش إحنا الأولى ؟ .. حتى نعيشلنا يومين ..
إحنا اللي عايشين على الأرض .. وخل بكرة لبكرة ..
ضحكـت ضـحـكة يـأس فـاتـرة خـافـتـة ..

- إنت "ربب أرض مجهولة .. ورحم عاهرة" ..
فأقرب مني معتاضا .. ولكنني بمقيدة مسدسه في جبهتي

- أنا مش هستحمل وقاحتك وسفالتك دى كتير .. لولا
إنهم عايزينك كنت صفيتك من بدرى .. مش عارف أنا
إيه قيمة واحد زيك عشان يتمسكوا بيها بالشكل ده ..
ثم إقترب مني منحنيا وأمسك بتلايبي ينظرنى بخبث ..
- بس عايزك تعرف إنه في كل الأحوال نهايتك مش ه تكون
غير على إيدى ..
فنظرته حزيناً انقهر بالندم ..
- تصدق .. بسببكم ندمت على كل لحظة قضيتها أتعلم في
مدارسكم وجامعاتكم .. لو كنت أعرف من البداية إن
حكومتي هيالى بتسرق قوتها .. كنت بقيت أول
الحرامية .. أقله كنت لقيت مكان دلو قتني بينكم .. مش
فيه بينكم حرامية من الشعب ياباشا برضه .. ولا إنتو
واحدين اللقب حصرى ..
- فارحنى وطفق يتحرك جيئة وذهاباً أمامى .. وكأنها يلقننى
محاضرة ..
- أزمتك الحقيقية إنك لسة مصدق إن سجالنا مع أمثالك ..
يا حمار إنتو مجرد عرایس تافهة على مسرحنا .. إحنا اللي

بنحدد الأدوار .. ومساحة كل دور .. أما إنت بقا ..
فالمثل الفاشل اللي خرج عن دوره .. إرتجل .. فالناس
صقت .. والتقطة إن المخرج طرده في الآخر .. ولسه
فاهم إنه لستة على المسرح ..

تلخصت حولي أحاوول أن أترقب أية بادرة أمل .. ولا أدرى ماذا
دهاهم .. وماذا يتظرون .. فلا ريب أن ذاك الخائن لن يمهلني
كثيرا .. سريعا ما سيمل الحديث وينهيني .. نظرت إليه حتى لا
يرتاب في أمري ..

- عارف إن ساعة الحساب قربت .. بس قولى حاجة أخيرة ..
إيه كان ذنب فتحى وأبويها عشان تنتهى حياتهم
بالطريقة البشعة دى ؟ .. عشان بس ترضى غرورك
وعنجهيتك الفارغة .. إيه ذنبهم ؟ .. ليه بتذمروا علينا
وتقولوا ظروف .. وليه إحنا بس اللي لازم ندفع فاتورة
الظروف دى ..

ليه خلبيتوا شعبنا مريض بالجزام .. ومش دارى بنفسه
وهو بيتهش فى جلدء بضوافره ويمزعه .. ليه ؟ ! ..

عارف ياباشا .. إنتوا الج Zam ده .. هلكتونا وفقرتونا
وشردتونا .. بعثوا أرضنا وسرقتوا قوتنا وقوت عيالنا ..
فنظرني ضاحكا ..

- إنت بتكلمنى عن الأرض والقوت بلسان المناضل ..
متشوف نفسك يابنى إنت فىن .. إنت بینا .. واحد من
شوية الحرامية اللي عمال تسلقهم شتيمة من بدرى .. إنت
مش واحد بالك ولا بتتغابى ولا دماغك شيعت .. ولا
بتحاول تنط على أى كفة راجحة وخلاص ..
كفاية تدعى الشرف .. إنت مش منزه عن اللي إحنا
موحولين فيه ..

وكأنه قذفى بحجر من شاهق .. حاولت إلهائه لتمرير الوقت
ريشا يلحق بي الشيخ قويًا بحديث عبى " لا معنى له " .. إلا
أنى لم أحسن اختيار الموضوع .. فصدقنى في نهاية قيلته بالحقيقة
الصادمة .. " لست منزه عن جريمتهم " .. دوما كنت أغالب
تلك العبارة " المائجة الثائرة " في عمقي .. أحاول وأدها مع
سنوات الفقر والعوز .. بيد أنها الحقيقة .. حقا .. كيف أناضل
من أجل وطن أسرق تاريخه .. كيف تجرأت وتحايلت على

ضميرى ؟ .. كيف علت نعرتى الكاذبة كفاحا من أجل شعب
وأنا أتسابق مع لصوصه فى سرقة ثروته ومقدراته ؟ .. كيف ؟ ..
أردت أن أكون ثريا فقط .. وبأى شكل .. حتى ولو كان عن
طريق التقى وتجارة الآثار .. دونها أن أوصم بالخيانة والسرقة
.. حاولت تحقيق معادلة لن تتحقق أبدا ..
سريعًا ما تململ الضابط من هذا الحديث العبى ..

- أنا مش عارف أنا واجع راسى بهريك ده ليه ؟ ..
ثم ترجل الضابط عدة خطوات مبتعدا .. وأخرج هاتفه المندس
في ستنته ليجري مكالمة ما ..

- أية سعادتك .. كل شيء تمام ..
وإنتظر قليلا يتسمع حديثا ما .. إلى أن أنهى مكالمته ..
- زى ما تشوف سعادتك .. مستنى مكالمة معاليك
وأغلق الهاتف .. ثم تلفت إلى أحد الرجال المسلحين قائلا
- طلعوا كل اللي في القبر دلو قتي ..

"الأخيرة"

كان الشيخ قويا مازال في إجتماعه مع الشيخ إمباوى .. وإنضم إليهم بعض شيوخ القبائل بالمناطق المحيطة .. برجاتهم وعتادهم .. وإمتلأة الساحة بالرجال المسلحين ..

وما زال القلق يغرق أسارير الشيخ قويا .. ينظر ساعته من تارة لأخرى .. إلى أن نظرها أخيرا يقول ..

- وإيش خبر مصطفى؟ .. إتأخر .. الله الأمر من قبل ومن بعد .. نتوكل يا رجال ..

تحرك الشيخ بإتجاه سياراتهم الخاصة .. بينما تحركت جموع الرجال المسلحين صوب سيارات النصف نقل .. كان الحشد بحق كيف .. فكلشيخ إصطحب معه ما لا يقل عن المائة رجل .. مشهدا مهيبا .. تخشى أن تراه لا أن تسير بجانبه ..

ساروا متابعين كالسيل العرم .. متذكرين مسالك ومدقائق لا يعلم أخرها إلا عرقهم .. مدفونة بين أكواخ الرمال وتلالها .. بحيث إن مرت شاحنة كبيرة خلاها .. لا يراها الناظر من بعيد وكان لزاما عليهم إتخاذ تلك الطرق للتخفى حتى لا يعلم بأمر تدبيراتهم .. علاوة على أن الطريق الرئيسي المؤدى لمنطقة أبو

بيللو بمحاذاة الرياح الناصري .. لابد وأنه سيشغل بسيارات الضابط ورجاله .. ولا ريب أن السير عليه سيفسد سرية الأمر .. وتمثل كل خطوة فيه مجازفة وخطورة بالغة على حياة مصطفى الواقع بين أيديهم .. إذ أنه ما إن يذاع نبأ تدبيراتهم لن يتورع هؤلاء الغادرين في تصفيته وإنهاء حياته ..

شغلت السيارات المدقات الفرعية عن أخرها .. بما يقرب من الثلاث كيلو متر في طريق ملتو .. بينما أصل المسافة على إستقامتها لا تتعدي الكيلو متر الواحد ..

تم التدبير لمعركة الهجوم والمحاصرة .. تدبيرا حكيمها .. وكأنه صادر من قائد عسكري .. وفي الحقيقة كانت كلها من ثمار قرحة الشيخ قويما .. ذاك العجوز الذهافية

وقد تم التنبيه على جميع السيارات بعدم إرسال أية نداءات أو تنبيهات بأبواقها .. كما يحذر إطلاق طلقة واحدة ولو بسبيل الخطأ .. تحريا للهدوء والخفية ..

تم التأهب .. تحسبا .. بكافة العتاد والأسلحة الالزمة .. فلا يعرف بالضبط ما هم قادمون عليه .. وما كان يتقصى زحفهم سوى الطائرات والدبابات ليصبح جيش عسكري كامل القوام

.....

في ذات الوقت .. وعند ساحة المقبرة قام ما يقارب العشرة رجال بإستخراج الكنوز من العمق .. وتحميلها إلى سيارات نقل وشاحنات تم جلبها لهذا الغرض .. بينما إنتصب رجلان بأسلحتهما قبالتنا .. وجلس الضابط يتبع التحركات وعمليات النقل ويباشرها عن كثب ..

كان قد مر من الوقت ما يعدو الساعة من الزمن .. ولم ينته الرجال من أعمالهم .. وقد تم التدبير لعملية النقل بحرص وحكمة .. إذ تم رفع القطع الذهبية الصغيرة أولاً في صناديق خشبية مدهونة بالقار الأسود الجاف تماماً .. تلاها الأكبر فالأخير .. ثم تناوب العمال على رفع باقي النفائس المعدنية والحجرية .. إلا أن الكتل الكبيرة كالتوابيت والتماثيل في طول الإنسان الطبيعي وما يزيد طوله عن ذلك .. فتم الترتيب لنقلها فيما بعد .. إذ تتطلب عمليات إزالة جزئية لسقف المقبرة لتوسيعة الفوهة .. كما تتطلب معدات خاصة مجهزة لهذا الغرض ..

وبغتة .. وقبل أن ينتهي العمال من رفع كافة القطع الصغيرة ومتناهية الصغر .. وعلى حين غرة .. ظهرت أمامنا ثلاثة

سيارات للأمن المركزي على مقربة من مقدمة المنزل .. غافلتنا
أصوات النقل والتحميل عن التنبه لقدمها .. وسرعاً ما
حاصرت الساحة من الجهات الثلاثة الرئيسية والتي يمكن لأى
من السيارات الخاصة أو سيارات النقل المحمولة العبور من
خلالها فهى الجهات الوحيدة التى تتفرع من ساحة المنزل
بمدقات ومرات شبه معبدة ..

جاءتنا أصوات قصقصة عنيفة ناتجة عن تكسر فروع الأشجار
الجاقة وإنفجارات تكتلات الصخور والرمال الصلدة عند مرور
سيارات الأمن من خلال المسافات البينية الوعرة للمدقات ..
وفي غضون لحظات تناثرت حشود قوات الأمن المسلحة تطوق
المنطقة بالكامل محدثة جلجلة ودببة مدوية تردد في الأنحاء
المحيطة ..

أصيب الجميع بحالة من الذهول الرهيبة .. حتى العمال توقفوا
عن عمليات الرفع .. بينما هب الضابط مدوح واقفاً مذعوراً ..
يتنفس رعباً .. ظل يحملق .. يدور بجسمه ورأسه .. ظاناً أنهم
أسقطوا في قبضة الشرطة عنوة .. بعد تسرب نبأ الحفر .. كان
المشهد داعياً للريبة والتشكك .. إلا أن سيارة خاصة تقدمت

شيئاً فشيئاً إلى الداخل من ساحة المنزل والمقدمة .. رقمها الضابط مرتانا .. إلا أنه يسترد جائده شيئاً ما عندما يستوثق أنها سيارة اللواء صبرى .. وذاك أنه الموجه الرئيسي والمبادر لعمليات التنقيب والحفري وأحد الشركاء في عملية استخراج كنوز المقبرة الملكية ..

كان الضابط مازال مريحاً تتلاعب الريبة والظنوون بلبه وفؤاده .. لكنه حاول أن يتماسك عندما تقدم اللواء صبرى مترجلاً نحوه .. إلى أن توقف أمام أحد الصناديق الملأى .. وطفق يتحرى عينة من القطع الذهبية ويقلبها في رزانة وهدوء .. ولتلك اللحظة لم يكن الضابط قد فهم كثرة الأمر وعلة وجود قوات الأمن المركزى .. وما زالت تقلبه التوقعات السيئة .. إلا أنه حاول إسكات ذاك الهاجم الشائر داخله بوازع أنه لا مناص أن تدبيراً ما سرياً قد تم ترتيبه مسبقاً لعملية النقل دون علم منه .. ولقد تأكد حدس شئنا ما عندما سأله اللواء ..

- إيه الأخبار؟ .. خلصتم؟ ..

رد الضابط بنبرة متهدجة ..

- كل حاجة زى ما أمرت معاليك ..

رمقه اللواء بنظرة مبهوته دونية .. لما يبدو عليه من حال مزرية
من آثار الجروح بوجهه .. والأتربة والأوساخ العالقة بهندامه ..
أحضر الضابط مقعدا وأعد له مجلسا خاصا في الجوار .. جلس
اللواء يمسك نوعا من السيجار الفاخر .. بينما أخرج الضابط
مشعلة وقربها من اللواء .. فأشعل الثاني سيجاره نافثا دخانه
الكثيف في وجه الضابط .. فإنزاح ليقف على مقربة منه .. يجادل
حديثا داخله محاولا فك طلاسم ما يرى .. يتکهن ما سيتأتى من
أمور ..

بينما كنت بدورى مریجا .. أتساءل في نفسي عما إذا كنا قد أوقعنا
فعلا في يد الشرطة .. كان البديل لذاك الإحتمال تصورا يصعب
تعقله .. أو حتى تخيله .. إستنكرت في خلدي مندهشا .. "هل
ناهضت قوة هؤلاء الفسدة لتركيع إمكانات الداخلية لأغراضهم
الدينية؟ .. أىعقل أن تصبح السرقات هكذا علينا؟ .. وتحت
حماية من هم منوطين بحمايتنا .. " .. " ولا تقول لي بعد الأن أن
هناك ثوابت .. حتى القيم الراسخة تتمسخ .. وبعد الأن ..
أفجر .. ولا حرج "

ظللت متربقا لما يحدث .. لا أصدق ما تراه عيناي ..

بينما كان اللواء يرمي العمال وهم يشربون من الفوهة واحدا تلو الآخر حاملين الصناديق البطينية بالكنوز .. كان العمال قد أصابهم ذات الإختلال .. يتناوبون إختلاس النظر إلى اللواء وأفراد الأمن المثيرين في كل مكان في وجل وريبة .. حتى أن أحدهم كاد أن يسقط بصندوقه عندما تعلقت عيناه بمشهد الجنود الرا比ضين ..

ظل الضابط متتصبا على مقربة .. يشرد لبه توجسا .. تتقاذفه الأفكار السيئة والمخاوف المقيتة .. يتبع اللواء بنظرات خرساء بلهاه .. بينما أبرز اللواء هاتفه محمول ليجري إتصالا إلا أنه لم يلفظ سوى جملة واحدة عبر الأثير ..

- كل شيء تمام سيادتك ..
ثم أنهى محادثته بجملة جعلت قدماء الضابط تصطرك رعا ..

- تمام .. إحنا على إستعداد لإستقبالكم ..
إنفجرت الظنون المرعبة تفتك برأسه .. لا يدرى من هؤلاء القادمين .. وجأ سرتـه الصغيرة صياح اللواء في وجهه متعاليا مما جعله يشبـ منتفضا ..

- خلص الشغل ده .. وهات صناديق التمايل الذهب دى
هنا ..

وأشار إلى بقعة خاوية إلى الأمام من تالي السيارات ..

.....

في ذاك الوقت .. ودون سابق إنذار .. كانت سماح على مبعدة من
البيت .. تقترب شيئاً فشيئاً .. تتسلل بتؤدة عبر تلال الرمال
القزمية .. كانت قد إقتفت أثارى بعدها تركتها مباشرة .. فلقد
إتهمها شعور بالفرقة والوحشة .. وإغتمرها إحساس بأن لقائي
ذاك هو اللقاء الأخير .. إذ كانت دموعى وأحضانى تنطق
صارخة بهذا المعنى ..

هرعت وراءى متلهفة .. علها تستطيع أن تفعل ما قد ينقذنى من
أوهالى .. وما زادها شكا وتوجساً .. هذان الرجالان اللذان
صحباني من البلدة إلى جسر الطريق .. وتلكم السيارة التى
ركبتها بصحبة رجال من البدو .. وما أهاج ريبتها السيارة
الأخرى الملاي بالرجال المسلحين ..

كل الأمور كانت داعية للريبة .. ما دفعها دفعا للتحرى ورأى ..
تسللت تتبع ما يدور هناك .. وترجلت متغيرة بمحاذاة المجرى
المائى .. عند سفح الجرف الذى يحد صفتة من الناحية الغربية ..
حاولت أن ترمق ما يجري هناك .. حيث كان مستقرى لما يعدو
من الساعة والنصف .. وما إن رأت عساكر الأمن المركزى
يتناشرون حول البيت حتى طفقت بدورها تحدث نفسها بأنه لا
مناص بأن أمرا ما سيئا قد حدث .. والرأى للمشاهد من بعيد
يظن للوهلة الأولى ذات الظن . أنها قد أوقعنا فى شراك الشرطة ..
فأثرت المكوث .. لتترقب ما سيستجد من أحداث .. ولأنها
إلى ذاك الحين لم تكن عيناها قد رأتني بين هؤلاء المعتملين هناك
على مرماها .. فربضت عند المنحدر تتخفى خلف تبة خفيضة
تحرى عنى بين هؤلاء المجتمعين ..

.....

أما حول القبر .. فهزال العمال يتناوبون العمل .. بعضهم يخرج
محتويات المقبرة .. أما البعض الآخر فيستغرق فى إفراغ سيارات
النقل من حمولة الصناديق الحاوية للقطع الذهبية الصغيرة ..

وجلبها إلى حيث أمر اللواء صبرى .. وفي الواقع كان لديهم
الكثير منها .. ما يفوق الثمانين صندوقا ..

وبينما كان العمل مستمرا على أوجه .. تراءى في كبد السماء شبها
لطائرة مروحية تحلق في الأفق البعيد .. كلما إقتربت يكبر حجمها
رويدا رويدا .. وتتضخ ملامحها أكثر وأكثر ..

في البداية لم يعيرها أحدا إلتفاتا رغم أنها كانت تقترب فوق
سماءنا بشكل ملحوظ .. إلا أن عيني ^٣اللواء صبرى تعلقت بها ..
ظل يرمقها متابعا .. مما إنتبه إلتفات الجميع .. من أحقرهم
لأعزهم .. بدئ اللواء وكأنما يتضرر أحدا ما قادما بها .. كان هذا
الظن خرافيا بالنسبة لأغلبنا .. لذا لم تستحوذ المروحية ذاتها على
أنظارنا بقدر ما راعينا مشهد اللواء المراقب لها ..

خالجني ظن ما بأنه لا مناص وأن اللواء يخشى شيئا ما .. لربما
توجس خيفة بأنها قد تكون مروحية عسكرية غير مرحب
بمرورها فوق سماء تلك البقعة بالتحديد .. وكان هذا أقصى ما
يمكن أن يتخيله عقلى حول هذا المشهد .. إلا أن ظنى لم يكن
صائبا .. فقد إتضحت ملامحها وإنجل أ أنها طائرة خاصة ..

ظللت المروحية تقترب وتقرب ويتضارب حجمها .. تصدر هديراً مدوياً إلى أن أصبحت فوق رؤوسنا بحجم منزل كامل .. إهتاجت الزراعات والأشجار وتمايلت أعواد النخيل .. وتطايرت تkovارات الهيش اليابس على بعد .. وثارت فورة هوائية جعلت ملابسنا تختليج إختلاجاً عنيفاً تقاد أن تخيلنا إلى عرايا بالكامل ..

تعلقت أبصارنا إلى حيث كانت تحلق .. حتى جنود الأمن المركزى .. كان المشهد العام مهيباً وداعياً للإضحاك في ذات الآن .. بدأت الطائرة تهدر وترعد بقوة ويتفاهم هديرها وفحيح مروحيتها متفاقماً بسرعة لاهثة مباغته .. وذاك عندما بدأت في الهبوط بتؤدة في ساحة خاوية على الجانب الجنوبي من البيت .. كانت ملأى بالجنود المتناثرين الذين ما لبثوا أن هجعوا من مستقراتهم مبعدين في خطوط عسكرى حيث .. ليفسحوا لها مجالاً للهبوط الآمن .. وكأنها مراسيم رسمية لأحد المسؤولين فائقى الأهمية ..

ظللت مشدوهاً يشاركتى الحضور ذات إنفعالاتى وخطوط أساريرى .. وأنا أرى الطائرة الضخمة تهبط إلى أن إستقرت فوق

أديم الأرض في بقعة رملية يبدو أنه تم تعبيدها مسبقاً لهذا الغرض .. ولا أعرف كيف غفلت عن هذا التبدل في هيئتها أثناء مقدمي ..

لم يكن المشهد غائباً عن أعين الشيخ قوياً .. إذ قدم بسياراته وإستقرروا على مبعدة من أفراد الأمن .. وحالجه ذات الظن حينها أنه جرت التدابير لضبط الحضور متلبسين بفعلتهم .. وجلبت تلك المروحية لرفع الكنوز وتوزيعها على متاحف الدولة فيما بعد وما إن إستقرت الطائرة حتى فتح الباب الخلفي أسفل الذيل الممتد .. وتلاه باباً صغيراً نسبياً في جانب مقدمة الرأس .. تم إنزال درج حديدي أسفل الباب الصغير يكفي إرتفاع جسم المروحية عن الأرض .. وهبط عليه رجلين شديدي الضخامة .. وإنصبا بجوار الدرج .. بدأ من هيئتهما أنها حارسان خاصان وبعد برهة تجلى رجلاً من ذات الباب .. بدأ في التكشّف بتؤدة .. طويلاً وسيماً .. تبدو عليه علامات الفخامة واليسر .. إلتمعت صلعته النصفية المميزة تحت وضح الشمس .. ووارت عيناه نظارة سوداء عريضة المساحة تقدم وجهه طويلاً .. أبيض البشرة .. ذو أسارير وتقاطيع منحوتة بإستطالة ..

لم أتعرف عليه .. للوهلة الأولى .. ولكن ما هي إلا هنئية .. خلع الرجل نظارته فتجلى وجهه وضحا .. جحظت عيناي .. إنه هو ؟! .. لم أصدق ما رأيته .. كان الرجل من رؤوس القوم التي يستحيل حتى النطق بإسمها أو نعتها .. أو حتى التوجس في تورطها في هذا العمل المشبوه ..

كاد عقلى أن يقف تماما عن التفكير .. كنت مريجا متخبطا ..
أعجز عن تفسير ما أرى أوربط الأحداث وترقيها .. أو قل
إنحدارها إلى هذا المستوى .. وكان هذا الرجل هو النهاية التي ما
بعدها نهاية .. والتى إستحال تصورها
هبط الرجل الدرج الحديدى .. وكان فى إستقباله اللواء صبرى
.. بينما بقى الضابط متأخرا كجرثومة عالقة فى نعل أحدهما ..
يشاركتى ذات الإندهاش والبلاهة ..

نظر الرجل إلى اللواء بسمو وعجرفة وإستعلاء يجادله الثاني
قائلا ..

- الصناديق زى أمرت .. معاليك ..

وأشار اللواء إلى حيث الصناديق المرصوصة .. قرابة الشهرين
صندوقا .. تحرك الرجل إلى حيث مخطها .. يخلفه اللواء .. الذى

تقدمه مسرعاً يفتح أحدها مطراها في خضوع .. تحرى الرجل
القطع النفيسة أمامه في زهو وخيلاء متسبماً .. إبتسامة ذات
معزى .. وذاك أيضاً في جملة ما رأيته ولن أنساه طيلة ما عشت ..
من أعاجيب ذاك اليوم الغرائبي ..

أوماً الرجل إلى اللواء بطرف بنانه لرفع الصناديق .. والذى
بدوره أصدر أوامره للعمال بالتنفيذ ورفعها إلى مؤخرة المروحة
تم إنزال مستو حديدي مائل من أسفل الفتحة الخلفية للطائرة ..
بينما ظهر رجلان ضخام البنية ليستقبلا الصناديق ورصها
وتنظيمها في الداخل ..

وما هي إلا دقائق .. كانت الصناديق قد نقلت بالكامل .. وكان
ذاك الرجل الوسيم قد سبقها إلى المروحة .. ورفع الدرج
الحديدي وأغلق الباب .. بينما ظلا الحرسان منتصبين حوله ..
يشهراً نوعاً من الأسلحة الآلية فائقة التطور .. ريشماً تغادر
الطائرة ساحة المكان تماماً ..

إرتفعت الطائرة رويداً رويداً تتمايل إلى الجانبين .. وجميع
الحضور ينظرونها مشدوهاً ..

بدى وكأن ما حدث .. حلمًا .. كان القدوم فيه سريعاً والمغادرة
أسرع .. وما زالت الأعين في سكرتها تتعلق بالطائرة .. حتى
الضابط لم يكن مفيقاً من الحدث .. وقف محملاً ببلاهة يكاد
الخبار أن يضرب رأسه ..

وعلى حين غرة .. صعقني صوت سماح يتازف صارخاً من بعيد
، كصخرة تهوى من شاهق ..
- مصطفى .. يا مصطفى ..

جن جنونها عندما لاحتني على بعد أسيراً الرجالهم وأصحابها حالة
هياج وثورة عارمة .. فهرعت صوبى تخترق صفوف جنود
الأمن الرباعيين فازعة صارخة .. تسللت إلى وسط ساحة المقبرة
لم أكن أصدق أن قدماتها قد ساقتها إلى هنا لأجل .. كان الذعر
قد بلغ من كل مبلغ .. إنتفضت من مستقرى أحاذل تحريرو وثاقى
.. إستجمعت كل ما أوتيت من قوة أقاوم إحكامه .. كادت
خشونته أن تبتز معصمي وتنحره .. إلى أن إنفلتت إحدى يدائى
.. بيد أنى لم أكدر أن أحرر اليد الأخرى حتى هويت مقبوضاً ..
تكاد الصدمة أن تذهب عقلى .. وأناأشهد الجنود يرشقونها
بوابل من الطلقات العشوائية من كل الأرجاء المحطة ..

فرعت من محطى أزار زئير ضيغم مصعوق .. لقد إخترق
الرصاصات جسدها النحيل .. فإهترأ كفرخ هش من الورق ..
وإندفعت هاوية تبك الدماء من عروقها بكا .. غريقة في بحر من
ثجيج الدم المحموم ..

حمى الشد والجذب داخلى .. أتناهض ثقيلا منهوكا أقاوم رأسا
خندورا وعينا تفتح لهيبا مستمرا .. الفظ زفيرا وسعالا أبح أجش
.. وإندفعت الدماء الكاسحة في عروقى تركض مكروبة كسر ب
من الجمال الهاجعة النافرة .. أصرخ مزقا .. يتصاعد صوتى
المذبوح بددممات تشن القلب .. ويتردد هادرا في أعماق الفيفاء
بوقع يضم الجبال ..

- سماااح ..

نفرت إلى أحدهم أصدمه براحتى صدمة كسرت عنقه فأرددته
قتيلا .. فالتقطت سلاحه كالمحنون .. وطفقت أرش الطلقات
رشا غليلا .. أينما ذهبت النيران ذهبت .. صوبتها تجاه كل من
وقدت عليه عيناي .. الضابط واللواء والشيخ وصاحب المنزل
ورجالهم .. بعثتهم الرشقفات فأسقطتهم صرعى عن آخرهم ..

تازف صراخى وتلاحق مجلجلا .. أتاوه بحرقة جاسية قاسية ..
نابضة من القلب المقبوض جزا والمكلوم فرعا ..
رفعت السلاح بيدي أصوبه شطر المروحية المغادرة بعيدا ..
أدفعها بطلقات واهنة واهية .. عاجزة خائبة .. كوخذ الإبر في
جسد تنين عجوز سميك الجلد .. فإستدرت ملهموفا أصوبها تجاه
عساكر الأمن .. إلا أنى وجدتهم رقادا صرعى عن آخرهم ..
كان الشيخ قويأ ورجاله قد بربروا من كل الأنحاء كالجراد المتشر
الكاسح فأجهزوا عليهم وأردوهم قتلى .. وحاولوا إسقاط ذاك
المغادر محلقا بحصونه .. ناهبا ما جلبناه من كنوز .. إلا أن
المروحية كانت قد غادرت سماء المكان .. وتضاءل شبحها شيئا
فشيئا حتى إبتلعتها المزن بالأفق البعيد .. مخلفة حربا ظالمة ..
المتصدر فيها قائدا جبانا .. نهب غنائم جيش من القتلى هاربا ..
والخاسر جيشا جسورا كسره سوء طالعه والتقدم المتأخر .. إلا
أنه بالنهاية لم يذروا إلا صوت النيران ورائحة الموت ..
ألقيت سلاحى أرضا .. وهجعت أتعثر في الرمال إلى حيث جثة
سماح المسجاه .. أحياول تحريكها على أتحسس نبضها .. ولكن
دون جدوى .. فلا حرراك لها .. لقد جست الدماء وماتت

العروق وإستكان الجسد وحمد .. لفظت آخر أنفاسها وهي
تناديني .. تستصرخني أن أكف عنها أنا ماض فيه .. دون أن
أسمعها .. أو قل صممت آذانى عنها .. كما صممتها عن صديق
عمرى وأبى .. أسكط صراخهم داخلى .. كابت وعاندت ..
سرت يقودنى عقلى .. وها هو الأن يتصل منى ومن قراتى ..
إرتقيت على جسدها .. أصرخ .. أتأوه .. أجيب نداءاتها .. ولكن
في اثر النزع الأخير بعد فوات الأول .. لم أكن أصدق أنها ماتت
.. خايلى شعور أن قلبها سينبض .. ستقوم وتعاتبنى مثلما كانت
تفعل دواما معى .. كانت راقدة .. ساكنة .. تنظرنى بآعين
زجاجية .. إلا أنى أتسمع عتابها ونشيجهها ..

لقد خبا آخر خيط تعلقت به بالحياة .. طوال الرحلة وأنا أعلم أن
مسيرى هذا سيفقدنى شيئا ما عزيز على قلبي .. ظننته تطيرا .. لم
أكن أعلم أن فاتورتى باهضة لهذا الحد .. لم أكن أعلم أن هذه
الثروة التى سعيت وراءها ستفقدنى أعز الناس وأغلاهم ..
وسؤالا يطن فى نفسى .. ما ذنب القطيع أن يتحمل أخطاء راعيه
، ما ذنبه !؟ ..

لقد إنتهى الأمر .. إنتهت الرحلة .. مغامرة اليأس لا العقل
والحساب .. ولا صوت إلا صوت الفراق الجاثم على المشهد ..
ساعة زمن مؤلمة تكمل رحلة خاسرة .. وخطو عاشر .. ووعي
غائب خائب ..

قُبعت أحضرن جثائنا .. وهمهات الحضور نواح في أذني ..
القلب يضرب في رهبة وينزف ألمًا ورعبا ينهش الحشا .. والخوف
جبل ثقيل راسخ يحيط عليه .. الذاكرة تنفجر بمشاهدتها الموجعة
لتغرقني في تشنجات مرتعشة منهكة .. ومخالب تتشبث خناجرها
في عمق نفسى لتمزقها

إقترب الشيخ قويًا مني .. ووقف إلى جواري أسيانا .. ترسو يداه
على كتفى .. يحاول أن يهون على نفسي مصابها .. لم يكن يعلم أن
قلبي لن يكف عن الصراخ إلى أن يقبض الله أنفاسي ..
رفعت جثة سماح بيديّ .. وترجلت أحملها بين القتلى الكثري إلا أن
أعزهم وأغلاتهم بين ذراعاي .. لم ينطر بيالي أبداً أنى أنا ..
وبيدي .. سأواريها التراب إلى مثواها الأخير ..

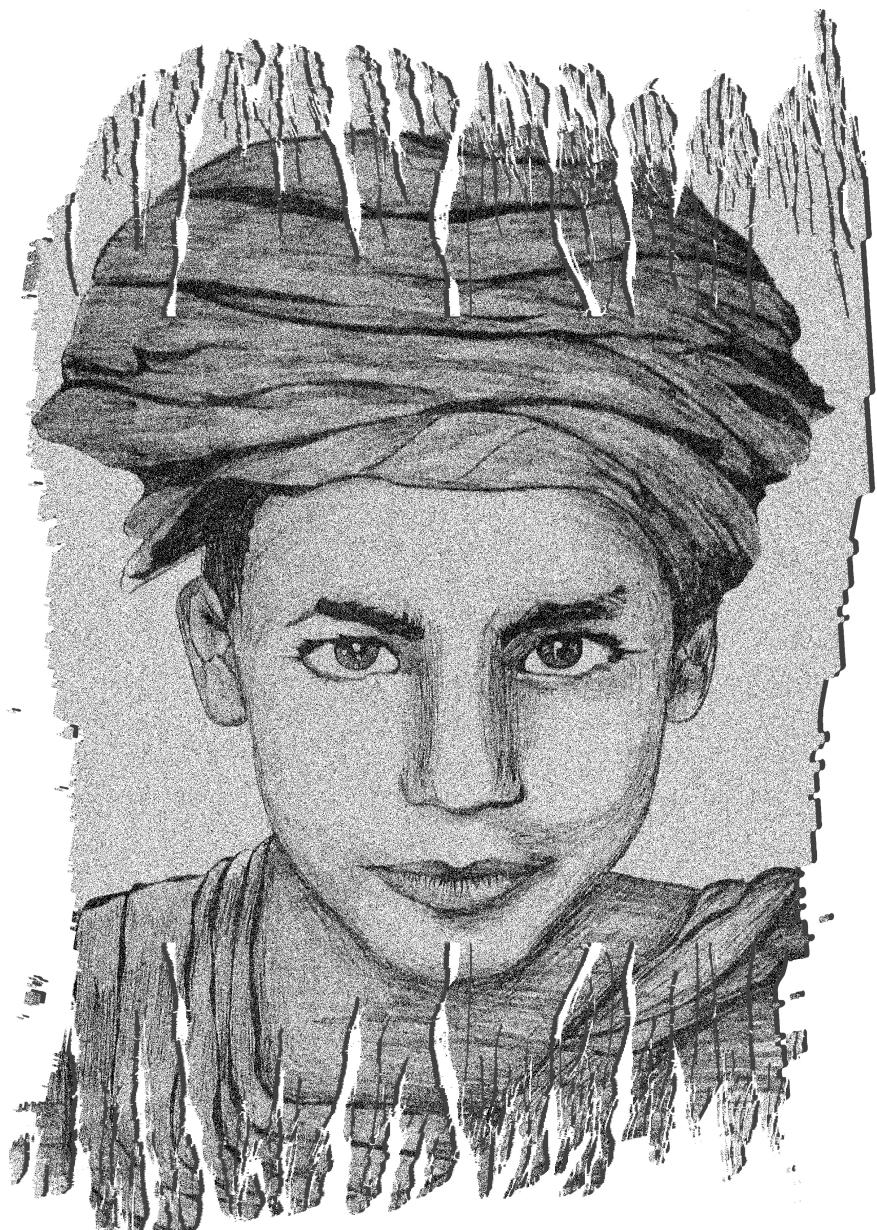
.....

تعاقبت الأحوال وتداولت الأيام .. ومرقت الأعوام المديدة ..
ولم يغيبوا أو يرحلو عن ذاكرتي .. أبي وحبيبي وصديق عمرى
.. أفتقدهم دوماً وأتوق شوقاً للقاءهم .. وما إن تقاومنى عقبات
الطريق حتى أسترجع حديثهم وعتابهم .. بفضلهم بت أفعل كل
شيء على نحو آخر .. ودوماً تسوقنى قدمائى إلى حيث مثواهم ..
أقف بين رفات الموتى .. أرفع يدائى أذكراهم في دعائى .. وإلى
الجوار منى .. أخي الصغير .. وعلى الجانب الآخر إبنة سماح ..
وخلفى تقف هويدا .. تربت على كتفى وتعضد أزرى ..
عشت مع ثلاثة .. وأمضيت النصف الباقي من عمرى .. مع
ثلاثة .. وبقيت أنا المكلوم ..

أحمل في فؤادي نار من عشت معهم وفقدتهم ، وبقعة أمل لمن
تشبوا بي وتعلقت أحلامهم بعقال محبتى ومعيتي ..

* * *

تمت بحمد الله ...



مُؤسِّسَةُ الْأَمْمَةِ الْعَرَبِيَّةِ
لِلنَّسْرِ وَالتَّوْزِيعِ



مُوسَى بْ نَعْمَانُ الْعَنْدِيُّ

أبو ديلو

مجزرة المقابر

الحكايات عنها تصارع الأساطير . قيل أنها قدماً كانت مدينة فرعونية عظمى .. عقد لها كهنتها رصداً مهيباً منذ أزمان سحرية .. فخسق بها .. ومنذ ذاك الحين ما تفك أن تنغرس قرية على أطلالها حتى يصيّبها ذلك الرصد المخيف .. فتبليعها الأرض في جوفها وكأنها لم تكن .. وكلما حاول أحدهم التحرى داخلها عن كنوز الفراعين إختلاساً .. يذهب في غيابها دونما عودة ..

وكثيراً من الإهانات والأضغاث تلك .. تموح على السنة
الناس وفي عمق أدمغتهم .. بيد أن تلك الأرض المرصودة
.. ستبطل شاهد عيان على ما حدث في تلك الفترة .. يتحاكون
به الأهالي مراراً ولسنوات طوال بعدها .. سيورثونه أولادهم
وأحفادهم وستظل الحكاية الأكثر ذيوعاً وشيوعاً على الألسن.